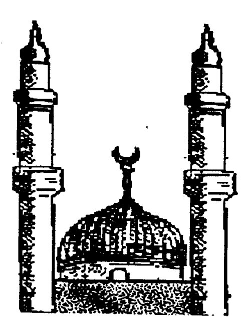
السيرة النبوية

دراسة تحليلية تاريخية



الأستاذ الدكتور

عبد الرحمن أمين صادق أبو راس



مقـــــدمة

كنا ولا نزال وسنظل نحن المعنيين بالتاريخ الإسلامى كلما قرأنـــا فى السيرة النبوية أو حاولنا إعادة كتابتها نفاجأ بالجديد الذى لم يســــطر بعد. وستظل السيرة النبوية كصندوق من المجوهرات النــــادرة ، كلمـــا مددنا أيدينا فى داخله خرجنا بقطعة ثمينة لم ترها أعيننا من قبل .

صحيح أن الإطار العام للسيرة النبوية لم ولن تتغير أبدا . وذلــك على الرغم من وجود كثير من الأسرار القيمة ، المبثوثة فــــى جوانــب وحنايا أحداث السيرة النبوية ، ولم تعرها عيون البعض ، اهتماما لأنها لم تلاحظ عندهم،أو لوحظت وروعيت فسجلتها أيــــدى بعــض المؤرخيـــن المبدعين .

ولذلك ترى عند هؤلاء فى كتب السيرة ، بعيدا عن الإطار العـــام الذى لا يختلف فيه أحد رؤى جديدة مبهرة ، قد أعطت قيمة خبرية جديدة لأحداث السيرة ، نتيجة لما لوحظ من خبايا لا ترى فى كـــل حيـــن ،ولا تجلو فى كل عين .

وقد كتبت فى السيرة النبوية أكثر من مرة ، وربما كتبت فيها فـــى البداية بدون رؤى ، وبلا عمق ، ولكن مع دوام القـــــراءة فـــى الســـير المختلفة عند مؤرخى السيرة النبوية قديما وحديثا ،وعند أصحاب التفاسير والحديث الشريف أكتشفت أسرارا عديدة فى أحداث السيرة لم تر النـــور بعد ، تثمر ـــ دون شك ـــ رؤى جديدة لم تسجل من قبل .

ومن هنا حاولت جاهدا أثناء تأليفى لهذا الكتاب الجديد فى السيرة النبوية ، أن أهتم كثير بالرؤى الخلفية للأحداث ، وتحليل كل ما يحتاج إلى تحليل ، وتأريخ كل ما يتطلب إلى تأريخ ، ولو أننى أعلم مسبقا أننى لن أدرك كل ما أتمناه من جواهر السيرة النبوية ،مهما غصت فى أعماق السيرة وأحداثها ، لأنها ستظل تقدم عطاءاتها الممتدة والمستمرة لكل غواص ماهر ، ولكل ثاقب نظر حاذق ٠

وإذا عدنا للسيرة وأحداثها ، وعن منهجنا فى هذا الكتاب ، فهو لا يخرج عن الإطار العام للسيرة النبوية فأولا الحديث عن حياة العرب قبل الإسلام ، ثم الحديث عن ظهور الإسلام فى مكة المكرمة، وقيام الإسلام فى المدينة المنورة ، وما بين ذلكم من أحداث ٠

والحق أن الناظر لتاريخ العرب قبل الإسلام ، يرى فى وضوح كيف كان العرب قبل انبثاق فجر الإسلام ، وكيف أصبحوا من بعده ، كما أن الناظر إلى قريش وهم أهل الكعبة وأصحابها ، وحماة مكة وأربابها كيف واجهوا الإسلام فى بدء إهلاله ، وكيف تعاملوا مع النبى صلى الله عليه وسلم حيال دعوته بنبذ الأضداد والأزلام ، وترك الأوثان والأصنام ،وعيب الآباء وتسفيه الأحلام ٠

والذى ينظر فى كل هذه الأحداث ، ويغوص فى أعماقها يرى العجب العجاب ، وانقلاب الأحوال من هؤلاء وأولئك ٠ إذ كان العرب عبارة عن شرازم منثورة فى أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية ، لا يربطهم رابط ، ولا يجمعهم جامع ، قبائل بلا وزن أمام الإمبراطوريات التى وجدت من حولهم من فرس وروم ، وتراك وأحباش ٠

كان العرب فى ذلك الحين ما زال البعض منهم يسجدون للشمس من دون الله ،ويتعبد بعضهم قوى الطبيعة ، بل وبعضهم ما انفكوا يسجدون للأصنام والأوثان ، وكانت الحرب سجالا بينهم ، والعصبية الممقوتة تقودهم إلى إهلاك الحرث والنسل ن وتمزيق أواصر البطون والقبائل • والخمر والميسر والأزلام تشكل جزءا كبيرا من حياتهم ، والزنا ووأد البنات من صميم موبقاتهم •

وجاء الإسلام وتحول العرب به إلى أمة ذات مبادئ قوية بإيمانها عظيمة فى تحملها لأعباء الدعوة • وعلى أكتافهم انتشر الإسلام فى العالم •

أما قريش فقد حباها الله بأنعم كثيرة ، تكريما لهم لمجاورتهم بيت الله الحرام ، مع أنهم كانوا يسكنون دائما بواد غير ذى زرع ، فى أرض صحراوية جرداء قاحلة ، وعلى الرغم مما حباها به الله من رزق وفير كفروا بها زمنا ، واستحبوا العمى على الهدى فأصموا آذانهم عن الدعوة، وأغمضوا أعينهم عن رؤية النور ، واستكبروا على الله ، ومنعوا الحق من ظهوره ، وتآمروا على قتل محمد صلى الله عليه وسلم وحاربوه بضراوه ، حتى فقدوا أموالهم وكبار صناديدهم ، إلى أن يئسوا أخيرا عقب فتح مكة ، واستكانوا للإسلام ثم تحولوا إلى قوة إسلامية ، وتحملوا عبء قيادة الأمة العربية ، والدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم •

أما اليهود والذين ابتليت بهم الجزيرة العربية ؛ ليفسدوا فيها ، وينشروا سمومهم وأرزاءهم ، فعلى الرغم من أنهم كانوا يعلمون بأنه قد آن أوان ظهور نبى جديد ، وينتظرونه بفارغ الصبر ، لينتصروا به على العرب ، تحولوا عند ظهور النبى العربى صلى الله عليه وسلم إلى العداء

له ، وبما جاء به من الحق ، وتآمروا لقتل رسول الله ، وخانوه وغدروا به ، حتى طرد الرسول الكريم أكثرهم وقضى على باقيهم فى المدينة، وانتصر عليهم فى غيرها ٠

ودخول قريش فى الإسلام فاتحة خير للدعوة الإسلامية ، فقد جاء العرب أفواجا وأفواجا من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة معلين دخولهم فى الإسلام ٠

ولما كان الإسلام دينا للبشرية جميعا ، ورحمة للعالمين ، وكافة الناس ، بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوة الأمم خارج الجزيرة العربية ، وذلك بعد دعوة العرب جميعا ٠

وكان تعريف الناس بآخر أركان الإسلام ، وهو الحج إلى بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا وأداء شعائره وتعليمه للناس هو آخر أعمال النبى صلى الله عليه وسلم وختام رسالته ٠

والله ولي التوفيق

أ ٠ د / عبد الرحمن أبوراس

الباب الأول

العرب وفجر الإسلام
فى مكة

شبه الجزيرة العربية

وسكانه

بدأ الجنس العربى رحلته الأولى فى تاريخ البشرية من داخل شـبه الجزيرة العربية ٠ ونتيجة أسباب طبيعية واجتماعية وسياسـية — والتـى سوف نتناولها فى هذا الكتاب — أخذ الجنس العربى فـى الانتشـار إلـى المناطق المحيطة بموطنه الأول ٠

وشبه الجزيرة العربية ، أو الموطن الأول للجنس العربـى ، أرض مستطيلة غير متوازية الأضلاع تحدها شمالا فلسـطين وباديـة الشـام ، وجنوبا المحيط الهندى وخليج عدن ، وشرقا الحيرة ونهر الفرات وخليـج فارس ، وغربا بحر القلزم (البحر الأحمر) وخليج العقبة، ويبلغ طـول شبه الجزيرة أكثر من ألف كيلو متر ، وعرضه يبلغ نحو ألف كيلو مـتر ، وتبلغ مساحته أكثر من ثلاثة ملايين كيلو مترا مربعا ٠

أقسام الجزيرة الطبيعية :-

تنقسم الجزيرة العربية حسب طبيعتها إلى خمسة أقسام وهى :

تهامة — الحجاز — نجد — اليمن — العروض ٠

فأما تهامة : فهى الأرض الواقعة على شـاطئ البحـر الأحمـر (القلزم) من الجنوب إلى الشمال ، وتمتد عرضا إلى سلسلة جبال السراة ٠ وقد سماها العرب تهامة لشدة حرها وركود ريحها ويقال لها أيضا الغور ، لانخفاض أرضها ٠

وأما الحجاز : فهى سلسلة جبال السراة ، الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام ٠٠ وقد سميت حجازا ، لأن هذه السلسلة الجبلية حجزت بين تهامة ونجد ٠

وأما نجد : فهى الجهات الواقعة بين جبال السراة أو الحجاز غربا حتى العروض وأطراف العراق شرقا ، ومن أدنى حدود اليمن جنوبا إلى السماوة شمالا ٠٠ وسميت نجدا لارتفاع أرضها ٠

أما اليمن : فهى المنطقة الواقعة بين نجد والحجاز شمالا ، وساحل المحيط الهندى فى الجنوب ٠ وتمتد بلاد اليمن شرقا إلى حضرموت والشحر وعمان ٠

أما العروض : فهى الجهات الواقعة بين نجد والخليج الفارسى٠ وبها بلاد اليمامة والبحرين وما والاها ، وسميت عروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق (١) ٠

الوصف الطبيعى لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب صحراء مترامية الأطراف ، وينتشر فى أرجائها كثير من الجبال ، وتتخللها العديد من الوديان ، التى صنعتها السيول ليجرى فيها ماؤها ٠

---

(١) د/السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ص ٨٨-٩٢ ٠

فما كان من أرضها قريبا من هذه الوديان أخصب وأنبـــت الكـــلأ والمرعى ، فتمكن أهله من الاستقرار فيه ، بحيث يجدون مـــــا يشـــربون ويرعون فيه أنعامهم ، وما بعد عنها أقفر ولا يصلح للسكنى ٠

ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاجة سكانها ، كـــان الجـــدب غالبا عليها ، ولاسيما أن كثيرا من مياهها يغيض فى باطن الأرض ، فـــلا يمكن لسكانها الانتفاع به إلا بصراعات ومعاناة ، فيما عدا بلاد اليمن التـــى أمكنها فيما مضى أن تتحكم فى مجارى الوديان ، فتوجهها إلى جهة ، ثـــم تبنى سدا محكما يحجز الماء خلفه فى أرض صلبـــة للإنتفـــاع بـــه حيـــن الحاجة، فلا يتسرب إلى رمال الصحراء ، ويغيض فـــى الأرض ، ولـــهذا عدت اليمن من البلاد الخصبة ، وأطلقوا عليها اسم العـــرب الخضــــراء ، وأيضا باليمن السعيد ٠ ([1])٠

أما ما عداها ، فإن شمال الحجاز تقل به هـــذه الأوديـــة ، وجـــل اعتماد أهله على العيون والآبار القليلة التى لا تـــروى إلا الشـــارب مـــع الجهد، وقد تسقط به بعض الأمطار فتنبت الكلأ فى بعض سهوله القريبـــة من الوديان ٠

وأما نجد والعروض ففيها وادى الدهناء ، وما يصـــب فيـــه مـــن صغار الأودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور ، لأن غالب مائـــه يغيض فى الرمال أيضا ، وقد يتأخر المطر فيشتد الحال بمن يقيم عليها من القبائل ٠

([1]) عبد العزيز سالم : المصدر السابق ص ٩٢ ، ٩٦ ٠

لهذه الأسباب جميعا قلما كان العرب فى بواديهم يســــتقرون فـــى مكان واحد ، وانما يتبعون مواقع الكلأ والماء ، وقد أكسبهم هذا الترحـــال المستمر والتنقل الدائم النشاط والخفة إلى العمل ، ولتلك الأسباب أيضا كان جل اعتماد أهل البادية على أنعامهم ، وعلى وجه الخصوص الإبل منها ٠ فيأكلون لحومها ويشربون لبنها ، ويكتسون بوبرها ٠ كما تحمل أثقالهم فى تلك الصحراء المقفرة إلى ما يرومونه من الجهات ٠(١)

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ص ٨٢-٨٧ ٠

تقسيم الجنس العربى :

اعتاد كثير من المؤرخين العرب قديما وحديثا ([1]) على تقسيم الجنس العربى إلى :-

١-العرب البائدة :-

ويعنون بهم : العرب الذين بادوا ، ودرست آثارهم ، وانقطعت أخبارهم ، وذلك كأقوام عاد ، وثمود ، وحضورا ومدين ، وطسم ، وجديس، وغيرهم ٠

٢-العرب الباقية :-

ويعنون بهم العرب الباقية أعقابهم على تعاقب الزمان ٠

وقسم هؤلاء المؤرخون هذا القسم الأخير إلى قسمين ، هما :

- العرب القحطانية ، أو العرب العاربة ٠
- العرب العدنانية ، أو العرب المستعربة ٠

والحق أن تقسيم الجنس العربى إلى العرب البائدة والعرب الباقية بعيد عن الصواب ، ذلك لأن هذا التقسيم لا يتماشى مع منطق الأشياء وطبائعه اذ أن معنى بائدة ، باد الشئ يبيد بيدا وبيادا وبيودا : انقطع وذهب وباد يبيد بيدا ، إذا هلك ٠ وفى الحديث :"فإذا هم بديار باد أهلها " أى هلكوا وانقرضوا ٠

وعلى هذا فيكون معنى العرب البائدة : الذين هلكوا ، وانقرضوا ولم يبق لهم باقية ٠

([1]) زين الدين بن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ،جـ١ ص ١٣٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ،جـ١ ص٣١٣، جود على : المفصل فى تاريخ العرب ، جـ١ص٢٩٤ - ٢٩٨ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ١ ص٨ ، عبد الرحمن أمين صادق أبو راس : أضواء جديدة حول تقسيمات النسابين والاخباريين للجنس العربى ص ١٢٤ ٠

فإذا تتبعنا الأقوام العربية التى عرفت بالعرب البائدة كقوم عاد وثمود ومدين والعماليق وغيرهم ، نجد أن الهلاك والإبادة التامة لم يكن مصيرهم جميعا ، إذ وجد لعاد بقايا بعد هلاك أغلبهم ، كما وجد لثمود ومدين والعماليق بقايا أيضا بعد هلاك أكثرهم.([1]).

ودليلنا فيما نذهب إليه هو ما ورد من نصوص فى القرآن الكريم فى شأن بعض هؤلاء الأقوام فقد نص القرآن الكريم على عدم هلاك جميع قوم عاد ، إذ أن الذين هلكوا منهم هم الذين كفروا بالله ، وبما جاءهم به نبيهم هود عليه السلام ، وأما الذين آمنوا بالله وبما أرسل به نبيهم ، فقد أنقذهم الله تعالى من الهلاك .

يقول الله فى هذا الشأن فى سورة الأعراف " **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** " ثم يقول الله عز من قائل فى آخر هذه الآيات :" **قال وقد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** "([2]) .

وما حدث لمن آمن من قوم عاد ونجاتهم من العذاب والهلاك ينطبق أيضا على من آمن بنبى الله صالح عليه السلام من قوم ثمود فيقول الله تعالى فى شأن ثمود: ومن آمن منهم مع نبيهم صالح :" **وأما ثمود**

([1]) عبد الرحمن أبزراس : المصدر السابق ص ١٣٠ .
([2]) سورة الأعراف ، الآية ٦٥ – ٧٢ .

فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ٠ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون "٠[١]

وهذا ما حدث دائما مع من آمن برسل الله جميعا ، أنجاهم الله من كل رجس وغضب وقع على أقوامهم ، وهذه سنة الله وعدله مع عباده٠

إذاً : أنه من الثابت ـــ كما رأينا ـــ من خلال النصوص القرآنية ، ومن خلال بعض الوثائق والآثار التى اكتشفت حتى الآن ، وذلك بخلاف روايات النسابين والإخباريين أنه كان بأرض الجزيرة العربية تواجد عربى مستمر دون انقطاع أو انقراض ، فلم يكن هناك كما ادعى البعض هلاك مطلق ، ولا موات عام ؛ فلا الريح الصرصر الذى نزل على قوم عاد قد نزع الناس جميعا كأنهم أعجاز نخل خاوية ، دون تفريق بين الكفار والمؤمنين ، ولا الصيحة التى حلت بثمود جعلتهم جميعا جاثمين فى ديارهم، دون تمييز بين الطالحين والصالحين ٠

وإذا كان الأمر كذلك فليس من المستساغ إذا ما درج عليه المؤرخون قديما وحديثا فى تقسيم العرب إلى عرب بائدة ، وعرب باقية،[٢] ومن كل ما سبق من قولنا نرى أن الأولى والأجدر فى تقسيم الجنس العربى هو ما ذهب إليه بعض المؤرخين الآخرين ، اذ أرجع هؤلاء الجنس العربى إلى أصلين رئيسيين ،وهما :-

- **العرب العاربة**
- **العرب المستعربة ٠**

---

[١] سورة فصلت الآية ١٧ ، ١٨ ٠
[٢] عبد الرحمن أبوراس: المصدر السابق ص ١٢٨ ، ١٢٩ ٠

فأما العرب العاربة :- فهم الخلص فى العروبة ، وأبوهم الأعلى قحطان ، وموطنهم الأول بلاد اليمن ، ولذا يطلق عليهم أيضا القحطانية واليمنية وعرب الجنوب أيضا ٠[١]

وقد تشعبت قبائل العرب العاربة من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ن فكان منهم بطون حمير ، وأشهرهم زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك ، ومنهم بطون كهلان ، وأشهرهم : همدان ، وأنمار ، وطىء ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ، الذين تفرع منهم الأوس والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام ، وقد تفرقت هذه البطون القحطانية من اليمن — إثر سيل العرم — إلى باقى جهات الجزيرة العربية ، واحتلت أخصب الأراضى الزراعية فى الشمال (الهلال الخصيب) ، وبقى باليمن كثير من قبائل حمير ، وكندة ، ومذحج وغيرهم ٠ وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم كان الملوك والأقيال ٠

أما العرب المستعربة :- فينسبون إلى ما معد بن عدنان ، ومن هنا أطلق عليهم العدنانية ، وموطنهم الأول مكة المكرمة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ، وينتهى نسب العدنانية إلى سيدنا إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، الذى حضر به ابوه إلى مكة مع والدته هاجر وتركهما عند البيت بمكة ، حسب تخطيط سماوى دقيق ، فعاش اسماعيل مع قبيلة جرهم التى كانت تقطن فى هذه المنطقة ٠ ولما شب تزوج منهم٠[٢]

---

[١] عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،جـ ٣ص٣٤٠

[٢] قيل أنه تزوج أولا إمرأة من العماليق أقدم سكان مكة ، ثم أمره والده فى رسالة تركها مع زوجته أن يغير عتبة بيته — أى يطلق زوجته لأنه وجدها إمرأة سيئة غير كريمة فطلقها إسماعيل تنفيذا لرسالة والده ثم تزوج إمرأة من جرهم ، وقيل أن الزوجتين كانتا من جرهم الذين رحلوا إليها من اليمن وسيطروا على مكة بعد العماليق ٠ محمد بن يوسف الصالحي : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد جـ١ص١٧٧-١٨٠ ٠

ومن هنا أطلق على عرب عدنان " العرب المستعربة " لأن أباهم لم يكن عربيا ، وإن جرى فى عروقهم دم عربى عن طريق أمهم الجرهمية٠٠ ويطلق على عرب عدنان أيضا عرب الشمال ٠(١)

ولم يزل أبناء اسماعيل عليه السلام بمكة يتناسلون حتى كان منهم عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية لأنسابها ومن أهم بطونهم إياد ، وربيعة ومضر ، ومن بطون مضر بطون إلياس بن مضر ، ومن الياس بن مضر كنانة ابن خزيمة ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ٠

فلما تكاثر أولاد عدنان فى مكة وما حولها ، ولم تعد تكفيهم هذه المنطقة ، أخذوا فى الترحال إلى مواطن الكلأ والماء ، فى داخل الجزيرة العربية ، أو فى أطرافها ، وبقى ممن بقى بمكة وما حولها قريش وبطونها حيث فضلت الإقامة بها ، ولكن لم ينتظموا فى وحدة جامعة إلا فى أيام قصى بن كلاب أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢)٠

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ١ص٣٣٦

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٢٢١ – ١٤٠ ٠

أحوال العرب قبل الإسلام

كانت شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام — على يـد خـاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — فـي حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب فى جميع نواحى الحياة ، وعلـى وجه الخصوص النواحى السياسية والاجتماعية والدينية . فلم تكن هنـاك بين سكانه وحدة سياسية تجمع بينهم ، ولا رابطـة اجتماعيـة تشـد أزر بعضهم ببعض ، ولا وحدة روحية يتجمع حولها قلوب هؤلاء السكان.

١-الأحوال السياسية :

لم يكن فى بلاد العرب قبيل الإسلام دولة عربية موحدة ، بل كـانت بها وحدات سياسية مستقلة عرفت بالأنظمة القبلية .

ونلاحظ هذه الحالة فى المناطق الصحراوية فـي أواسـط جزيـرة العرب ، مثل نجد وأطراف الحجاز .

أما فى الحجاز فنجد مدنا ذات حياة سياسية . كذلك كان بـأطراف جزيرة العرب فى الجنوب ممالك اليمن ، وفى الشمال مملكة الحيرة شرقا، ومملكة الغساسنة غربا .. ومن ذلك يتضح عدم وجود مركزية فى بـلاد العرب .

الممالك العربية

قلنا أن الطبيعة الصحراوية الغالبة على الجزيرة العربية قد فرضت على غالب أهلها حياة الهجرة المستمرة ، والتنقل الدائب طلبا للماء والكلأ ، أو طلبا لمكان أوسع وأرحب من موطنهم الأول الذى ضاق بسكانه ٠

ولكن على الرغم من هذه الصفة الغالبة على حياة أهل الجزيرة ، إلا أن بعض هؤلاء العرب قد عرفوا الاستقرار والسكن فى بعض الجهات من الجزيرة العربية ، نتيجة لوفرة المياه بها ٠

وبطبيعة الحال أدى هذا الاستقرار إلى ظهور الممالك والإمارات والحكومات المركزية ٠ وبالتالى بزغت بعض الحضارات العظيمة فى عدد من الممالك والمدن بالجزيرة العربية ٠

أولا : الممالك الجنوبية فى بلاد اليمن :

كانت بلاد اليمن من أعظم مراكز الحضارة بالجزيرة العربية ٠ وقامت على أرضها أجل الحكومات المركزية بالجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ٠

ويرجع السبب الرئيسى لهذا التقدم الحضارى باليمن السعيد إلى ما حباها الطبيعة بأمطار موسمية ، أدت إلى كثرة المياه العذبة بها ، وقيام أهلها بخزن هذه المياه وحفظها ، عن طريق إنشاء الخزانات والسدود ٠ وبخلاف ذلك لموقعها الاستراتيجى الهام فى الطرف الجنوبى الغربى من

الجزيرة العربية ، المطل على المحيط الهندى ، وبحـر القلـزم (البحـر الأحمر) ، مما له أثره الكبير فى الازدهار التجـارى بـاليمن ، بفضـل وقوعها فى واحدة من أهم طرق التجارة الدوليـة المعروفـة فـى ذلـك الحين([1]) .

وكانت اليمن قبل ظهور الإسلام تنقسم إلى محافد — جمع محفـد — والمحفد يشمل عدة قصور ٠وكان القصر إذا ذاك كالحصن ، يحيـط بـه سور ، ويحكمه شيخ ، أو أمير ، وعرف صاحب المحفـد بلفـظ ذو — أى صاحب — وكان يضاف هذا اللقب إلى اسم المحفـد ، فيقـال مثـلا " ذو رعين" أى صاحب رعين ٠

وفى أحيان كانت تجتمع عدة محافد ، ويتولى شئونها أمير يسـمى "قيل" ، ويطلق على مجموع المحافد وملحقاتها مـن القـرى والمـزارع " مخلاف "([2]) ٠

وباجتماع عدد من هذه المخاليف قامت بعض الدويلات ، وعـرف حكامها بالملوك ٠ ومن أشهر الممالك التى قامت فى بلاد اليمن قبل ظهور الإسلام ٠ ثلاث ممالك هى :

١ – دولة معين (١٣٠٠ – ٦٥٠ ق٠م)

نشأت هذه المملكة فى حوالى عام (١٣٠٠ ق م) بمنطقة الجـوف بين نجران وحضرموت ، واتخذ ملوكها " قرناو " عاصمة لـهم وبحكم طبيعة هذه المنطقة اشتغل المعينيون بالتجارة ، واقتبسوا الأبجدية الفينيقيـة

([1]) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ص ١٠٣ - ١١١ ٠
([2]) محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ، ص ٢٥ ٠

لتدوين حساباتهم لسهولة استعمالها • كما قاموا بتدوين لغتهم بهذه الأبجدية المقتبسة •

وقد ظلت دولة معين فى ازدهار إلى أن قامت دولة سبأ ، التى أخذت توسع حدودها على حساب دولة معين ، فبدأت منذئذ فى التدهور والانحطاط ، حتى انقرضت دولة معين فى حوالى سنة (٦٥٠ ق م) (١)

٢-دولة سبأ : (٩٥٠ - ١١٥ ق م)

نشأ السبئيون منذ حوالى (٩٥٠ ق٠م) ، بجوار إخوانهم المعينين، واختلطوا بهم ، واقتبسوا لغتهم وعاداتهم وديانتهم ، ولما أحس السبئيون بقوتهم ، ورأوا ضعف إخوانهم المعينين ، قضوا على دولة معين وأسسوا دولتهم على انقاضها ، واختاروا فى أول أمرهم قلعة صرواح عاصمة لهم٠

ومرت دولة سبأ منذ قيامها بعصور مختلفة ، وتميزت باختلاف ألقاب ملوكيا ، ففى العصر السبئ الأول والذى ينتهى سنة (٦٥٠ق٠م) كان لقب حاكم سبأ " مكرب سبأ " ، ويتضمن هذا اللقب معنى الكهانة ، مما يدل على أن حاكم سبأ كان ملكا وكاهنا فى نفس الوقت •

أما فى العصر الثانى لدولة سبأ ، والذى يبدأ سنة (٦٥٠ ق م) • وينتهى بانتهاء دولة سبأ سنة (١١٥ ق م) ، فقد تجرد حاكم سبأ من صفته الدينية ، وأصبح يطلق عليه ملك سبأ كما انتقلت عاصمة الدولة فى هذه المرحلة إلى " مأرب " •

وكانت الملكة بلقيس التى عاصرت النبى سليمان عليه السلام من أشهر ملوك سبأ فى هذه المرحلة ، وقد حكى القرآن الكريم قصتها مع سليمان عليه السلام فى سورة سبأ •

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، جـ ١ ص ١١٣، ١١٤ •

وتمتعت دولة سبأ بثروة عظيمة وحضارة عريقة فبالإضافة إلى كون بلاد اليمن كانت دولة تجارية بالدرجة الأول فيما قبل سبأ أصبحت دولة زراعية فى المقام الأول بالإضافة لتجارتها بفضل تقدمها الحضارى المذهل فى العهد السبئ ، وكان سد مأرب هو الرمز الحضارى الخالد لما وصل إليه السبئيون فى سلم الحضارة الإنسانية .

وكان من أمر السد أن المياه كانت تجرى بين جبلين ، وتجتمع إليه سيول الأمطار التى تتساقط على جبال اليمن وأوديتها ، فعمد ملوك سبأ الأقدمون فبنوا بين الجبلين سدا عظيما محكما جدا عند مأرب ـ عاصمتهم الجديدة ـ حتى ارتفع الماء ، فحكم على أعالى الجبلين، فغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة ، وزرعوا الزروع الكثيرة وكان اتساعه فرسخافى فرسخ .([1])

ومن هنا أصبح السبئيون ـ بخلاف معين ـ فى غبطة عظيمة ورغد من العيش ، وأيام طيبة ؛ حتى قيل أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها ، فتمتلئ بما يتساقط فيه من الثمار ، من نضجه وكثرته ، من غير أن يحتاج إلى كلفة ، كما قيل أنه لم يكن فى سبأ شئ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شئ من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء ، وصحة المزاج ، وعناية الله بهم ،وأصبحت بلاد اليمن عبارة عن قرى خضراء متصلة لا يفصلها فاصل من مفاوز وفيافى ، حتى أن المسافرين بينها كانوا لا يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف ؛ إذ كانوا يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى .([2])

([1]) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ص ١٣٧

([2]) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ص ٥٣٠، ٥٣١ ، البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

زوال دولة سبأ :

هكذا عاشت سبأ فى نعيم مقيم ، وحضارة عريقة ، وقوة فائقة إلى أن آل عليها الأمر إلى زوالها ٠

وقد اتفق المؤرخون العرب على أن السبب فى زوال دولة سبأ يرجع إلى تصدع سد مأرب وذلك عندما اجتاح السد سيل عرمرم لم يستطع أن يصمد أمامه لشدته وقوته ، وقد نتج ذلك بسبب الضعف الذى بدأ يدب فى أوصال دولة سبأ ، واستسلام أهلها لحياة الترف والنعيم ، وإهمالها فى رعاية سدهم العظيم ، الذى كان سبب نعيمهم وعظيم تفوقهم ٠(١)

هذا ما جاء عند المؤرخين ، ولكن كان فى الأمر شئ آخر سماوى فمن خلال القرآن الكريم عرفنا حقيقة أمر سبأ وزوال ملكهم وهلاك بلادهم ٠ فيحكى لنا القرآن الكريم بأن السبئيين كانوا فى غبطة عظيمة وأرزاق دارة، وثمار وزروع كثيرة ، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسعادةوطريق الرشاد إلى أن تبدلوا عما كانوا عليه من الهدى والرشاد إلى الكفر والضلال والألحاد ، حتى سجدوا للشمس من دون الله ٠ يقول الله تعالى على لسان هدهدسيدنا سليمان عليه السلام :" **فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ٠ إنى وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ٠ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون**" ٠(٢)

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٢ ص ١٦٠ ، جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص ٢٧ ٠

(٢) سورة النمل ص : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ٠

فلما حدث ما حدث من تبدل فى أحوال سبأ ، من الهدى إلى الضلال ومن الإيمان إلى الكفر ، وتكذيبهم من نزل عليهم من الرسل ، فعبدوا غير الله وبطروا نعمته ، بل ووصلوا إلى أبعد من ذلك فى كفرانهم بنعم الله فسألوا — بعد تقارب ما بين قراهم ، وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات — أن يباعد بين أسفارهم ، وأن يكون سفرهم فى مشاق وتعب ، فسلبهم الله تلك النعمة العظيمة والحسنة العميمة بتخريب البلاد ، والشتات على وجوه العباد بهذا السيل العرم الذى إجتاح سدهم • يقول الله تعالى فى هذا الشأن :" لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل • ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور • وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليال وأياما آمنين • فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا فظلموا أنفسهم فجعلناهم آحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور"([١]) •

هكذا أفصح القرآن الكريم عن حقيقة أمر سبأ وسر انهيار سدهم العظيم • ومن الواضح أنه لا فرق بين ما جاء عند المؤرخين عن سبأ وسدهم ، وما ورد فى القرآن الكريم ؛ فإذا كان المؤرخون قد أرجعوا أسباب انهيار سد مأرب إلى ظواهر الأشياء من ركون السبئيين إلى الدعة والترف والاهمال ، فإن القرآن قد آبان ما غمض لديهم وأغلق عليهم • فى فهم الأسباب الحقيقية فى إنهيار سد مأرب وتشتت أهلها •

([١]) سبأ ، الآيات : ١٥،١٦،١٧،١٨،١٩، القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ٥٥١٧ _ ٥٥٢٨ •

وقد اضطر السبئيون إثر إنهيار سـد مـأرب ، وغـرق القـرى والمزارع المحيطة بمأرب إلى الرحيل عنها وهجرتها إلى أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، فبعضهم سكن ظفار بعد تعميرها وبعـض قبائلـها هاجرت شرقا ، أما البعض الآخر من القبائل السبئية فـهاجرت شـمالا ، فبنوجفنة هاجروا إلى حوران من أرض الشام وبنو لخم هاجروا إلى أرض الحيرة من أطراف العراق ، أما خزاعة فقد ارتحلت إلى مكـة المكرمـة وسكنوها بعد أن أزاحوا عنها جرهم الثانية ، وأما الأوس والخـزرج فقـد هاجروا إلى يثرب ــ المدينة المنورة فيما بعد ــ فخـالطوا اليـهود بـها وسكنوها ، وظلوا بها إلى أن هاجر إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم مـن مكة فى عام الهجرة ، وقبائل أخرى كثيرة انتشرت فـى شـبه الجزيـرة العربية وفى بلاد الشام ٠([1])

٣-دولة حمير (١١٥ ق م ــ ٥٢٥ م) :

عاش الحميريون فى ريدان وقد عرفت باسم ظفار ، وعندما تغلبوا على إخوانهم السبئيين صار لقب حاكمهم " ملك سبأ وذوريدان " ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة حمير الأولى ، وظلت قائمة حتى سنة (٣٠٠ م) ، وكانت عاصمتها ظفار ([2]) ٠

أما دولة حمير الثانية فقد بدأت حوالى سـنة (٣٠٠ م)، وتطـور لقب حاكمها فى هذه المرحلة إلى " ملك سـبأ وذوريـدان وحضرمـوت ويمنات " ، وكان أول من لقب بهذا اللقب من ملوك حمير شـمر يرعـش

([1]) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ١٦١٦ ، جمال الدين سرور : قيام الدولـة العربية ، ص ٢٧ ٠

([2]) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص ٢٨ ٠

"(٢٨٠ -٣٠٠ م) ، وكان من أشهر ملوك حمير ، وذكر مؤرخو العرب أنه غزا أرض العراق وفارس وخراسان ، وافتتح مدائنها ، وخرب مدينة الصغد الواقعة وراء نهر جيحون ، وبنى بها مدينة عرفت " بشمر قند " وهى المدينة التى عرفت فيما بعد باسم سمرقند ٠

ويقول شمر يرعش فى هذا :

أنا شمر أبو كرب اليمانى   جلبت الخيل من يمن وشام

لآتى أعبدا مردوا علينا   وراء الصين من عثم ويام

فنحكم فى بلادهم بحكم   سواء لا يجاوزه غلام (١)

التنافس الاستعمارى والدينى ونهاية دولة حمير

تنافس كل من الإمبراطورية الفارسية ، والإمبراطورية البيزنطية على فرض سيطرتها على دولة حمير فى عهدها الأخير ، وقد استخدم البيزنطيون فى تحقيق أغراضهم السلاح الدينى ، فنشروا أولا المسيحية فى بلاد الحبشة ، ثم تمكنت الدولة البيزنطية فى إدخال المسيحية فى نجران من بلاد اليمن ، وأصبح بها جالية نصرانية قوية (٢) ٠

وقد رامت بيزنطة من وراء ذلك فرض نفوذها السياسي والإقتصادي في بلاد اليمن ، فصارت تجارة بينزنطة تسير بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر مارة ببلاد اليمن ، لكن حمير استاءت لذلك ووقفت فى وجه تجارة بيزنطة وضايقتها ٠

وكان الفرس قد وقفوا على ما يرمى إليه الروم من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن ، فاقدموا على عرقلة هذه المجهودات ٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى - تاريخ الرسل والملوك - جـ ٢ ص : ١١ ، ١١٢ ٠
(٢) جمال الدين سرور : المصدر السابق ص ٢٨ ٠

وفى العصر الثانى الحميرى دخلت الديانة اليهودية فى اليمن ، ثـــم قويت شوكتها فى أوائل القرن السادس الميلادى بدخول ملك حمير يوســـف ذى نواس فى اليهودية ، وتعصبه الشديد لها ٠

وقد أوقع ذو نواس — لفرط تعصبه هـــذا — بـــلاده فـــى براثـــن الاستعمار ٠ إذ أنه لم يقبل أن يكون بعض رعيته فـــى نجـــران يدينـــون بالنصرانية ، فمثل بهم فى سنة ٥٢٢ م بقسوة بالغة ، بأن حفر لهم أخـدودا فى الأرض ، وألقاهم فيه ثم أشعل فيهم النـــار ، فأحرقـــهم علـــى بكـــرة أبيهم٠(١)

ولما طار هذا الخبر إلى الإمبراطور البيزنطى جوستين انتهز هـــذه الفرصة ، وبادر بإرسال أمر إلى النجاشى ملك الحبشة المتدين بالنصرانيـــة بالانتقام من ذى نواس ٠

الاحتلال الحبشى لليمن:

بعث النجاشى ملك الحبشة — إثر وصول رسل الإمبراطور — جيشا حبشيا بقيادة أرياط إلى اليمن ، فتغلب الأحباش على الحميرين ، وما كـــان من ذى نواس بعد هزيمة جيشه الا أن اقتحم البحر بفرسه ، وأغرق نفســـه خشية العار ، وسقطت منذئذ دولة حمير الثانية سنة ٥٢٥ م (٢)٠

وظل أرياط حاكما على صنعاء ، ثم اغتاله أحد قواد جيشه اســـمه أبرهه ، وحكم اليمن بدلا من أرياط بعد أن استرضى ملك الحبشة ٠

(١) هم أصحاب الأخدود الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم ، سورة البروج الأيـات ٤ — ٨ ٠

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ٠

وأبرهة هذا هو الذى قاد جيشا لهدم الكعبة ، وأراد بذلــك صــرف العرب عنها ، بعد أن فقد الأمل فى اجتذاب العرب نحو بيت بناه بصنعاء ، لينافس به الكعبة ، ولكن على مشارف مكة حدثت المعجزة الإلهية بامتنــاع الفيل ــ الذى كان فى مقدمة جيش أبرهة ــ من التقدم نحو الكعبة ، ثم نزل الطير الأبابيل على جيشه ترميهم بحجارة من سجيل ، كما جا فــى كتابــه العزيز فى سورة الفيل ٠

ولما أصاب أبرهة وجنده ما أصابهم بمكة ، عاد منهزما يجر أذيــال الخيبة ، ومات أبرهة بعد عودته كمدا وحسرة وحكم بعد أبرهة ابنه يكسوم، ثم ابنه الثانى مسروق ٠(١)

السيطرة الفارسية على اليمن :

ظهر فى العهد الأخير من حكم الأحباش فى اليمن الأمير سيف بــن ذى يزن الحميرى : أحد أولاد ملوك اليمن السابقين ، وسعى هذا الأمــــير الحميرى ــ لإعادة بلاده من يد الأحباش إلى الامبراطور كسرى أنوشروان امبراطور الفرس عن طريق أولاد عمومته ملوك الحيرة ٠

وعندما رأى كبار أمراء الفرس تردد الإمبراطور فى نجدة ابــن ذى يزن أشاروا عليه بمساعدته ، لتحقيق أهدافهم السابقة فى مد النفوذ الفارسى على اليمن ، فوافق الامبراطور الفارسى ، وبعث جيشا مع ابن ذى يـــزن بقيادة أحد قواده الكبار اسمه وهرز فى سنة ٥٧٥ م ٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ١٢٨ ــ ١٣٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ٤١ ــ ٦٢ ٠

فركب الجيش الفارسى المراكب من الأبلة ، وقطعوا خليج عمان حتى رسوا على شواطئ حضرموت ، فنزلوا وتحركوا إلى صنعاء يتبعهم جموع غفيرة من القحطانية ، والتقوا جميعا مع الجيش الحبشى فى معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الفرس والقحطانية على الأحباش ، وأجلوهم عن البلاد ٠

وحينئذ توج القائد الفارسى وهرز ابن ذى يزن ملكا على البلاد ، وابقى معه جندا من الفرس ٠ فوفدت الوفود العربية من انحاء الجزيرة العربية إلى اليمن لتهنئة ملك اليمن بعودة ملكهم ، وكان عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها — وجد النبى صلى الله عليه وسلم — ممن وفد مع الوفود للتهنئة ٠([1])

ولكن فى حقيقة الأمر لم يؤد استنجاد ابن ذى يزن بالفرس ضد الأحباش إلى تحرير اليمن من المستعمرين ، فإذا كانت اليمن قد تخلصت من الأحباش من جهة إلا إنها وقعت من جهة أخرى تحت سيطرة الفرس ولم يلبث سيف بن ذى يزن إلا مدة قصيرة ، وقتله خدمه من السوادان غيلة([2]) ٠

وظل الأمر كذلك فى اليمن حتى ظهور الإسلام ، وكان فى حكم اليمن عند ذلك حاكم فارسى يسمى بازان ٠ وقد هداه الله للإسلام فأسلم ، ودخل فى تبعية النبى محمد عليه الصلاة والسلام ٠ وكانت اليمن من أوائل البلاد التى دخلت الإسلام فى الجزيرة العربية ٠([3])

([1]) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ٢٠٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ١٣٩ — ١٤٢ ، الكتبى (محمد بن شاكر) :عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٢٣ ٠

([2]) الكتبى : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٦ ٠

([3]) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ ٠

ثانيا : الممالك الشمالية

١-مملكة الحيرة :

كان العرب قديما يفدون إلى التخوم الشرقية للجزيرة العربية ، وحتى إذا ما وصلوا وادى الفرات ألقوا بعصا الترحال وأقاموا فى ربوعه ، وفى أوائل القرن الثالث الميلادى بدأت تفد قبائل من لخم اليمنية إثر انهيار سد مأرب ، وعاشوا فى بداية أمرهم فى خيام ، ومن ثم أصبح مخيمهم قاعدة عرفت بالحيرة (من حيرتا السوريانية أى مخيم) ، وكانت على بعد ثلاثة أميال جنوبا من الكوفة([١]) ٠

وكان سكان الحيرة الأصليون قبل نزول اللخميين بها من قبائل شتى من بطون العرب ، ويعتنقون النصرانية على المذهب النسطورى (مذهب الكنيسة السورية) ٠

وقامت العلاقة بين المناذرة حكام الحيرة من اللخميين وبين الإمبراطورية الفارسية صاحبة النفوذ فى هذه الجهات على أساس أن يقدم المناذرة الطاعة لكسرى فارس ، وهو بدوره يولى عليهم أميرا من بينهم ، وكان على المناذرة أن يصدوا كل مغير يحاول الإغارة على بلاد فارس من نواحيهم ، سواء كانوا من البيزنطيين ، أو القبائل العربية المتنقلة على أطراف الإمبراطورية ، وفى مقابل ذلك يعفون من الإتاوة المفروضة على غيرهم ٠

([١]) جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ، ص ٣١ ٠

وقد قامت الحيرة بدورها المرسوم لها ، ودافعت عن الإمبراطورية من جهتها ، كما شاركتها فى معاركها الحربية ضد البيزنطيين ، ومنها تلك الحرب التى اندلعت بين الطرفين فى سنة ٥٢٢ م ، وقد قاد اللخميين فى هذه المعركة ملكها المنذر الثالث بن إمرئ القيس ــ الملقب بابن ماء السماء ــ (٥٠٥ ــ ٥٤٤ م) ، وكان النصر فيها لصالح الفرس والمناذرة، حتى اضطرت بيزنطة إلى توقيع الصلح ، وكان من شروطه أن تدفع الإمبراطورية البيزنطية مبلغا من المال لإمبراطور الفرس وأمير الحيرة٠

ولكن فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل القرن السابع الميلادى عدل الفرس عن سياسة استخدام عرب الحيرة فى أغراضهم الحربية والسياسة ، كما عمدوا إلى إزالة استقلال هذه المملكة ٠ وأخذوا فى التدخل بتولية أمرائها ، حتى ولوا عليها أحيانا قائدا فارسيا ٠

وقد ظلت إمارة الحيرة قائمة على الرغم مما عانته من الفرس ، حتى فتحها خالد بن الوليد ، وكان أميرها فى ذلك الوقت المنذر بن النعمان٠(١)

٢-مملكة الغساسنة :

كما كان انهيار سد مأرب من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى هجرة اللخميين إلى الحيرة فى الشمال الشرقى من جزيرة العرب وكونوا مملكة بها ، كذلك كانت " أزد " ضمن البطون العربية التى هاجرت من اليمن ولكنها اتجهت إلى بلاد الشمال ، واستقرت " جفنة " وهى بطن من أزد بجوار ماء اسمه غسان بالشام فنسبت إليه ٠

---

(١) أنظر تفاصيل هذه الأخبار ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٢٠٨ ــ ٢١٥ ٠

كانت بادية الشام أرضا عربية من أقدم الأزمنة ، إذ هـــاجر إليـــها بعض القبائل من البادية ، كما وفد إليها الضجاعمة ، ونزلـــوا بالبلقـــاء ، واستقروا بها إلى أن قدم عليهم الغساسنة فطالبهم الضجاعمة بالإتاوة ٠

وظل الغساسنة يؤدون الإتاوة للضجاعمة على كره منـــهم ، حتـــى تغلبوا عليهم ، وانفردوا بالسلطان ، وأنشأوا لأنفسهم دولة بالبلقاء وحوران، عرفت فى التاريخ بدولة الغساسنة ، وكان جفنة بن عمرو أول من تولـــى الإمارة بها ٠

ولم تملك الإمبراطورية البيزنطية صاحبة السيادة العليا على هـــذه المناطق إلا الموافقة على هذا التغيير ، لأن الذى كان يهمها بالدرجة الأولى هو أن يقوم العرب بالدور المرسوم لهم من جانب الروم منذ وفد العـــرب على هذه المناطق ، وهو حماية حدودهم الجنوبية مـــن هجمـــات القبـــائل العربية من ناحية ، وحمايتهم من هجوم الفرس من ناحية أخرى ، وهـــذه هى نفس السياسة التى اتبعتها الإمبراطورية الفارسية فى علاقاتـــها مـــع جيرانها المناذرة فى الحيرة ٠

ولم يزل الملوك من آل جفنة يحكمون الشام ، وما يليها من باديـــة العرب، بصفتهم عمالا للأمبراطورية البيزنطية حتى جاء الإسلام ، وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بـــن الأيهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٠(١)

---

(١) أنظر تفاصيل أخبار ملوك غسان ، زين الدين عمر بن الوردى : تتمة المختصـــر فى أخبار البشر ، جـ ١ص ٩٥ــ١٠٠ ٠

ثالثا : بلاد الحجاز

يختلف الوضع السياسى فى الحجاز عما شاهدناه فى اليمن أو فـــى العراق أو الشام ، فهذه المناطق لتقدمها الإقتصادى بسبب خصوبة أراضيها وثرائها التجارى ، شهدت كما رأينا الإستقرار الذى مكن أهلها من إقامـــة دول وحكومات مستقرة ٠

أما الحجاز فلم يشهد هذا النوع من الإستقرار السياسى ، لذا لم تنشـأ فى الحجاز حكومات مركزية ، تبسط سلطانها وحمايتها على السكان ٠

وقد عاشت القبائل العربية فى إقليم الحجاز حياة بدويـــة متنقلـــة ، وعلى الرغم من امتداد أطراف الحجاز فلم ينشأ بها سوى عدد قليل جـــدا من المدن الصغيرة ، مثل مكة ويثرب والطائف ، مما يدل على أن القبـائل العربية فى الحجاز كانت فى حالة ترحال دائم ، سعيا وراء الرزق حيـــث يتوافر الكلأ والماء ٠

وسوف نتحدث عن بلاد الحجاز فى ما يلى فى صفحات هذا الكتاب، كل فى مكانه الموضوع له ٠

الأحوال الإجتماعية

أما من الناحية الإجتماعية لسكان شبه الجزيرة العربية ، فمن الواضح تماما أن غالبية العرب لم يهنأوا بحياة اجتماعية مستقرة ، وذلك لأن الطبيعة الصحراوية الغالبة على أرض شبه الجزيرة العربية قد فرضت على غالب أهلها حياة الهجرة المستمرة ، والتنقل الدائب ، طلبا للماء والكلأ ، أو طلبا لمكان أوسع وأرحب من موطنهم الأول الذى ضاق بسكانه ٠

ولا شك أن مثل هذه الحياة لابد وأن تؤدى إلى شدة المنافسة بين القبائل العربية للفوز بمناطق الماء والكلأ ٠٠ ومن هنا كانت هذه الحياة من عوامل الفرقة بين القبائل العربية ، وتفشى التعصب القبلى بينهم ٠

ولقد أدى هذا التعصب القبلى الشديد بين القائل العربية إلى عواقب وخيمة ، حيث جرتهم جميعا إلى حروب طاحنة ، لا تبقى ولا تذر ٠

ولم تكن تلك الحروب لأسباب جوهرية ، أو حتى لأسباب معقولة ، بل كانت لأوهى الأسباب وأحقرها ، كتلك التى قامت بين قبيلتى بكر وتغلب ابنى وائل فى يوم البسوس ، وكانت بسبب ناقة قتلت لبنى بكر بيد كليب بن ربيعة زعيم قبيلة تغلب ، أو التى قامت بين عبس وذبيان ابن بغيض بن ريث ابن غطفان فى يوم داحس والغبراء ، وذلك بسبب رهان على سباق بين داحس (فحل لحد بنى عبس) ، والغبراء (فرس لذبيان) أو تلك التى قامت بين كنانة وهوازن ، وقريش وهوازن ، أو بين قريش وكنانة فى جانب ضد هوازن ، وذلك فى أيام الفجار (١) ، أو مثل تلك التى

(١) سميت بأيام الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوى : أيام العرب فى الجاهلية ، ص ٣٢٢

قامت بين الأوس والخزرج من يوم سمير حتى يوم بعاث قبيل ظهور الإسلام ٠([1])

وغيرها وغيرها من الحروب الطاحنة من أيام العرب ، والتى أودت بحياة عدد لا حصر لهم من العرب حتى أهلكت الحرث ، والنسل ٠ كل ذلك بسبب هذا التعصب القبلى البغيض ٠

أما عن العلاقة بين الرجل والمرأة عند العرب السابقين فكان على ما يلى :

كان الرجل يكرم زوجته ، ويجلها غاية الاجلال ويحترم أدميتها إحتراما كبيرا ، ويدل على ذلك فى وضوح قول أحد الشعراء :

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

وكان الزواج عند العرب قبل الإسلام فى أشكال مختلفة تندرج كلها فى نوعين :

١ – زواج مستحب عند جمهور العرب قبل الإسلام ، وصورته : أن يخطب الرجل إلى الرجل ابنته ، أو من كانت فى ولايته من النساء ، فيصدقها ، ثم ينكحها ٠ وقد أقر الإسلام هذا النوع من الزواج ؛ وذلك ليقوم عليه بيت صالح ، وأسرة طيبة هى أساس المجتمع ٠

٢ – زواج غير مستحب عند جمهور العرب قبل الإسلام ٠ وهو على أشكال مختلفة :

أ – نكاح الاستبضاع ، وصورته أن يقول الرجل لإمرأته إذا تطهرت من طمثها أذهبى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها ولا يمسها

([1]) أنظر عن هذه الأيام محمد أبو الفضل و على محمد البجاوى : المصدر السابق ص ٦٢ – ٨٤ ٠

حتى يتبين حملها من هذا الرجل الذى تستبضع منه ، فـإذا تبيـن حملـها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد ،

ب – نكاح الضماد ، وصورته: أن يجتمع رهط من الرجـال دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت وضعت حملـها ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ؛ فلا يستطيع رجل منـهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ؛ فتقول لهم : لقد عرفتم الـذى كـان مـن أمركم، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ؛ تسمى من أحبت باسمه فيلحق بـه ولدها ، فلا يستطيع الرجل أن يمتنع منه ،

جـ – نكاح الخدن ، وصورته : أن يعاشر الرجل المرأة ، ويتصل بها سرا ،

د – نكاح البدل ، وصورته : أن يقول الرجل للرجل : انزل لـى عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتى وأزيدك ،

هـ – ما تعقده أسنة الرماح ، وصورته : إذا قابل الرجـل منـهم آخر معه ظعينة ــ المرأة ما دامت فى الهودج ــ غالبه عليها ؛ فإذا غلبـه أخذها منه سبية استحلها بذلك ،(١)

وجميع هذه الصور الزواجية التى كانت عند العرب قبل الإسلام لـم تكن مستحبة عند جمهورهم كما ذكرنا ، وقد أبطلها الإسلام ؛ وعبر عنـها بلفظ السفاح ، يقول الله تعالى فى هذا الشأن :" **ومن لم يستطع منكم طـولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـات**

---

(١) أنظر عن أنواع النكاح فى الجاهلية فى البخارى : صحيح البخارى ، كتاب النكاح ، باب قال لإنكاح إلابولى ،السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،

والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بـــإذن أهلــهن وآتوهــن أجورهــن بــالمعروف محصنــات غــير مســـــافحات ولا متخـــذات أخدان٠٠الآية"([1])٠

وكان العرب قبل الإسلام لا يتقيدون في الزواج بعدد معين ، وقـــد صح أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ؛ فقال لـــه النبـــي صلى الله عليه وسلم :" اختر منهن أربعا وفارق ســـائرهن ــ رواه أحمـد وابن ماجة والترمذي عن ابن عمر ([2]) ٠

وكانت المرأة تستأمر قبل زواجها ؛ يدل علـــى مـــا رواه صـــاحب الأغاني : من أن الحارث بن عوف المرى وفد علـــى أوس ابـــن حارثـــة يخطب إليه إحدى بناته ، فدعا أوس كبراهن وقال لها : هذا الحارث بـــن عوف سيد سادات العرب ، وقد جاءني طالبـــا خاطبـــا ، وقـــد أردت أن أزوجك منه ، فقال : لا تفعل ؛ لأني امرأة في وجهي ردة ، وفـــي خلقـــي بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلـــد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره ، فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما فيه ٠ قال : قومي بارك الله فيك ٠ ثم دعى الوســـطى ، فأجابتــه بمثل جواب أختها ، وقالت : إني خارقاء ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره؛ فيطلقني ، فيكون علي في ذلك ما تعلم ٠ ثم دعا الصغرى ، وعرض عليها فقالت أنت وذاك ، فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت لكني والله الجميلة وجها ،

([1]) سورة النساء ، الآية ٢٥ ٠

([2]) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصـــر الجاهليـــة ، ص ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٩ حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، جـ ١ ص ٧٣

الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة نسبا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه خيرا [1]

وكان العرب يطلقون ، ولكنهم كانوا لا يتقيدون بعدد فى الطلاق ؛ فقد روى الترمذى والحاكم وغيرهما عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها ، وهى امرأته إذا ارتجعها وهى فى العدة ، وإن طلقها مائة طلقة وأكثر ، فلما جاء الإسلام حدد عدد الطلقات ، وحرم الرجعة بعد الطلقة الثالثة " فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره [2]) وكانت علاقة الرجل بأولاده علاقة محبة وإشفاق ويقول أحدهم :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض [3]

غير أن فريقا منهم كانوا يفرحون إذا أنجبوا البنين ، ويحزنون إذا رزقوا البنات ، حتى وصل حد الحزن عند بعضهم إلى وأد بناتهم خشية العار ٠ وقد أشار القرآن الكريم منددا لهذه الرذيلة المستقبحة فقال عز من قائل : " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ٠ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون "[4] ٠

ومن العرب ايضا من كان يقتل أولاده خشية إملاق وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك قائلا :" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا "[5] ٠

---

[1] انظر ، الأصفهانى : الأغانى ، جـ ٦ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨
[2] أنظر ، الترمزى والحاكم فى مسنديهما ، باب الطلاق ٠
[3] المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٣٦ ٠
[4] سورة النحل ، الآية : ٥٨ ، ٥٩
[5] سورة الإسراء ، الآية : ٣١

وكانت علاقة الواحد منهم بأبناء عمومته القريبين علاقة حب ومودة، لأنه كان يرى فيهم قوة له كما هو الشان فى أولاده ٠

وكان على العكس من هذا علاقة القبيلة بقبيلة أخرى ، إذ كانت علاقة عداوة وكراهة ، وكان الانتقام والأخذ بالثأر شرعا لهم ، وربما اهتاجت قبيلة من أخرى لتافه الأسباب ، وقد تشتعل نار الحرب بينهم عشرات السنين فى أقل الغضاب كما ذكرنا آنفا ٠(١)

وبالإضافة إلى ما تقدم تفشت عند العرب فى الجاهلية عادات أخرى مستقبحة : كالرق الذى أهدر بسببه حقوق الإنسان ، والربا على الرغم مما فيه من أنانية وتجرد عن المروءة ، وشرب الخمر ؛ حتى اقترفوا ما تسول له الخمر من مفاسد ، ولعب الميسر ،حتى ارتكبوا بسببه كثيرا من الجرائم٠

---

(١) أنظر ما سبق ص [illegible]

الأحوال الدينية

أما من الناحية الدينية :- فقد اختلطت الديانات وتزاحمت العقائد المختلفة بين عرب شبه الجزيرة العربية .. فمنهم من كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، وكانوا الكثرة الغالبة بين العرب ومنهم من كانوا يعبدون الشمس والقمر ، ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب والنجوم . وهم الصابئة .

كذلك تسربت إلى شبه الجزيرة العربية أيضا مذاهب الفرس كالزرادشتية والمانوية ، وتأثرت بها بطبيعة الحال بعض القبائل العربية المجاورة للإمبراطورية الفارسية .

نشأة الوثنية عند العرب :

كان سائر العرب فى مبدئ أمرهم على دين إبراهيم عليه السلام ، تعبد الله وحده . وكان الطواف حول الكعبة له قدسيته عند ولد إسماعيل .

فلما كثر أولاده ، واضطروا إلى الهجرة من مكة والانتشار فى جهات الجزيرة المختلفة ، حملوا معهم بعض حجارة الحرم أو الكعبة ، ليكون معهم أثرا من آثار بركتها ، وكانوا يعظمون هذه الحجارة تعظيمهم للكعبة ، فانتشر بذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم .[1]

---

[1] ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٧٧ .

عمرو بن لحى الخزاعى وظهور عبادة الأصنام:

كان عمرو بن لحى الخزاعى أحد السادة الذين تولــوا أمــر مكــة والكعبة من خزاعة . وقد نشأ ابن لحى على أمر عظيم مــن المعــروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، حتى ملك قلوب الناس واحترامــهم فى مكة كأحد الكهنه العظام .

ولما سافر عمرو بن لحى — فى إحدى سفرياته — إلى الشام ، شهد الناس هناك يعبدون الأصنام والأوثان ، فاستحسن ابن لحى ذلك وظنه حقا، لأن الشام موطن الرسل والكتب ، واستعبد أن يقترف أهلها ما لم يأذن بــه الله . فرجع إلى مكة حاملا معه صنم هبل — الذى أصبح كبير الآلهة فيما بعد بمكة وما حولها — وجعله فى جوف الكعبة .[1]

ثم دعى أهل مكة إلى تعظيمه وتقديسه ، فأجابوه ، لأجل مــا كــان لابن لحى فى نفوسهم من احترام وتعظيم . ولما رأى أهل الحجاز ما راوه من أهل مكة من عبادة الأصنام تبعوهم فى ذلك بإعتبار أن أهل مكــة ولاة البيت وأهل الحرم ، وكل ما يصدر عنهم يعتبر حجة فى ديــن العــرب ، واعتبر هؤلاء أن عبادة الأصنام اجتهاد أو بدعة حسنة ابتدعها عمرو بــن لحى الخزاعى فى دين إبراهيم الذى يؤمنون بشريعته الحنيفية [2]

---

[1] اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ٢٥٤ .
[2] روى ابن اسحاق عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعى :" يا أكثم رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بــن خنــدف يجــر قصبه فى النار ، فما رأيت أشبه برجل منك به ، ولا بك منه ، فقال أكثم : عســى أن يضرنى شبهه يا نبى الله : قال :" لا إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير ديــن إسماعيل فنصب الأوثان ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـــ ٢ ص ٢٤١

وعندما بدأوا فى صنع الآلهة لعبادتها خطرت للعرب فكرة تمثيل العظماء ، وذوى الأثر الصالح فيهم ، أو تمثيل القوى التى يألفونها ، فصنعوا تماثيلهم على هذا الاعتبار وتقربوا إليها بالعبادة وذبح القرابين عندها ٠

ومن هنا بدأت القبائل العربية تتخذ لنفسها أصناما وأوثانا خاصة بها٠ فأتخذت عذرة "ود" وهو صنم ، وكان لهذيل صنم اسمه " سواع " فى رهاط من أرض ينبع ، وكان يعبده من يليه من مضر ٠ واتخذت مذحج وأهل جرش " يغوث " ، واختارت خيوان " يعوق " وكانت تعبده همذان ومن والاها من اليمن ، واتخذت حمير " نسر " حتى هودهم ملكهم يوسف ابن ذى نواس ، وكان لهم بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ، ويتقربون عندها بذبائحهم (١)٠

ويبدو أن هذه التماثيل الخمسة كانت من قبل نوح عليه السلام فاستحدثها هؤلاء القوم ، وصوروا على شاكلتها ، لأن نوحا كان ينهى قومه عن عبادتها وهم يتمسكون بها ، كما ذكر فى الكتاب العزيز حكاية عنهم " **وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا**"(٢)

أما عن أوثان العرب فى الجاهلية فمنها :

" **مناة** " : وكانت عبارة عن حجر أسود أقيمت بقديد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب تعظمها وبخاصة الأوس والخزرج ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ص ٧٨ ، ٧٩ ٠
(٢) سورة نوح ٠ الاية ٢١ ، وأنظر ، جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ، ص ٥٥ ٠

ومنها " **اللات** " وكانت بالطائف وهى عبارة عن صخـــرة مربعــة ويبدو انها كانت أثرا من مكان معظم ، وكان سدنتها من ثقيف ، وعظمتـها قريش أيضا ٠

ومنها " **العزى** " : وكانت بواد من نخلة الشامية ، وكانت من أعظـم الأوثان عند قريش ، وسدنتها من بنى سليم ٠

ومنها "**ذو الخلصة** " : وكانت مروة بيضاء منقوشا عليـــها كهيئــة التاج ٠ وكان له بيت بين مكة والمدينة ، وإلى المدينة أقرب ، وكانت خثعم ودوس ، وبجيلة تعظمه (١)٠

أصنام قريش :

قلنا أن عمرو بن لحى الخزاعى أول من أتى بصنم هبـــل وأدخلــه جوف الكعبة ، وقد صار هبل بعد ذلك من أكبر أصنـــام قريــش تقديســا وتعظيما ، إلا أن قريشا بالرغم من ذلك قد اتخذت بجوار هبل كبير الآلهــة آلهة أخرى من الأصنام ، فاتخذوا أسافا ونائلة ووضعوا كل واحدة منـــهما فى ركن من أركان بيت الله الحرام ، فكان الطائف إذا طاف بــدأ بأســاف فقبله وختم طوافه به ٠

كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنما يقال لـــه " مجــاور الريح "، وعلى جبل المروة صنما آخر يقال له " مطعم الريح " ٠

هذه هى الأصنام والأوثان التى قدســها غــالب عــرب الجزيــرة العربية٠ ولم تعظمها العرب لا لاعتقادهم أنها آلهة ، وإنمـــا كــان ذلــك

---

(١) الكلبى : كتاب الأصنام ، ص : ١٣ — ١٩ ، السيد عبد العزيـــز ســالم : تــاريخ العرب فى عصر الجاهلية ، ص ٤٧٠ — ٤٧٢ ٠

لتقربهم إلى الله ، كما قال أصدق القائلين فى كتابه " **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** " صدق الله العظيم ٠(١)

الديانات الأخرى بالجزيرة العربية :

لم يتخذ العرب جميعهم الوثنية دينا لهم قبل ظهور الإسلام بل عبـــد بعضهم النجوم والكواكب ٠٠ وقد ظهرت هذه الديانة فى حـــوران وبـــلاد البحرين ، كما ذاعت عبادة نجم ــ اسمه الشعرى ــ فى بعـــض القبـــائل العربية ، كلخم ، وقريش ، وخزاعة ٠ وقد عرفت فى الحيرة عبادة القمر، كما شاعت عبادة الشمس فى بلاد اليمن ٠

كذلك اعتنق بعض العرب الديانة المجوسية ، ومنها " **الزرادشــتية** " نسبة إلى " **زرادشت** " أحد فلاسفة الفرس ، وكانت هذه العبادة فى تميـــم ، و الزندقة فى بعض قريش انتقلت إليهم مـــن عـــرب الحـــيرة المجـــاورين للفرس(٢)٠

الديانات السماوية بالجزيرة العربية :

بخلاف كل ما سبق ذكره من العبادات التى اعتنقها عرب جزيـــرة العرب كانت الديانتان اليهودية والنصرانية منتشرتين فى الجزيرة العربيـــة بخلاف بقايا من دين إبراهيم الذى ظل عليه أفراد قلائل من العرب ٠

وقد تمثلت اليهودية فى بلاد اليمن ٠ وأول من دان بها أســـعد أبـــو كرب أحد ملوك حمير ، ثم تعصب لها الملك الحميرى يوسف ذو نـــواس

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ٠

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ،جـ ١ ص ٧٢ ٠

الذى حكم اليمن فى أوائل القرن السادس الميلادى وقد دخلت اليهودية فـــى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء وفدك ووادى القرى ٠

وجاءت اليهودية فى هذه المنطقة بطبيعة الحال ـــ مع الإســرائيليين الذين فارقوا الشام إثر الإضطهادات التى توالت عليهم من قبل البابليين قبل الميلاد والرومان فى القرنين الأول والثانى الميلاديين ٠

أما النصرانية فقد انتشرت بين عـــرب غســان بحكـم تجــاورهم للإمبراطورية الرومانية التى كانت قد دخلت المسيحية ٠ وكذلك انتشـــرت المسيحية بين عرب نجران باليمن (١) ، وقد مثل بهم ـــ كما رأينا ســابقا ـــ الملك الحميرى ذو نواس تمثيلا شنيعا ٠

الحنفاء من العرب :

هناك فريق قليل من العرب لم يستثيغوا عبادة الأوثان كما لم يجـدوا بغيتهم فى الديانتين السماويتين السابقتين للإسلام اليهوديـــة والنصرانيـــة ، وذلك لبعدهما ـــ بفعل الزمن وهوى النفس ـــ عن مبادئـــــهما الأصليـــة ، وحيدتهما عن جادة الصواب ٠

وقد أخذ هذا الفريق يفتش بإيمان : فى تراث العرب القديم عن ديــن إبراهيم الخليل عليه السلام ، والذى كان قد اندرس وغابت معالمــه بفعــل الزمن وهوى النفس أيضا ٠ ولما اهتدى هذا الفريق إلى بعض المعالم مــن دين إبراهيم عليه السلام اعتنقوه وتمسكوا بالقيام بواجبات دينهم الجديد ٠

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٣ ـــ ٢٧ ٠

وقد سمى هذا الفريق من العرب باسم " الحنفاء " ٠٠ نسبة إلى لفظ حنيف وهو دين إبراهيم عليه السلام ٠يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز " **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما٠**([1])

ومن هؤلاء ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل ، ومنهم أيضا كعب بن لؤى ، أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وكان كعب يجمع قريشا ويطلب منهم التفكير فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ويذكرهم بالموت وأهواله ، واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم٠ وكان ذلك من أوضح البراهين على تمسكه بدين إبراهيم عليه السلام ، وأخذه بالحنيفية السمحة ، وكان من هؤلاء الرجال أيضا قس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفى وأمية بن أبى الصلت ٠([2])

وعلى الرغم من أن عباد الأصنام والأوثان كانوا يشكلون الغالبية العظمى من العرب ، إلا أن هذه الغالبية قد تفرقت قلوبهم وهواهم بين أصنام وأوثان متعددة ، بل إن القبيلة الواحدة لم تتمسك بعبادة صنم واحد وإنما تعددت لديها الأصنام ، وأدل على ذلك وجود أكثر من صنم داخل الكعبة المشرفة ، أو على مقربة منها ، كهبل كبير الآلهة ، وأساف ونائلة ، وذلك بخلاف الأصنام المنصوبة بين الصفا والمروى ، والأصنام والأوثان المنتشرة بين مكة ويثرب ، وبين مكة والطائف ، وكانت جملة ما بمكة من الأصنام حول الكعبة فى يوم الفتح ثلثمائة وستين صنما ٠

([1]) سورة آل عمران الآية ٦٧ ٠

([2]) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ، ص ٤٨٦ ــ ٤٩٠ ٠

وهكذا نرى أن سكان شبه الجزيرة العربية على الرغم من أنهم من جنس واحد ، ويسكنون أرضا خاصة بهم ، ويتكلمون لغة واحدة ، ويتجه غالبيتهم فى مواسم الحج إلى بيت الله الحرام ، لم يجتمعوا فى أى مظهر من المظاهر الحضارية اللهم إلا ذلك الاجتماع الموسمى عند الكعبة المشرفة.

ولا شك أن طبيعة أرض شبه الجزيرة العربية ومناخها لهما أثر واضح فيما رأيناه من فرقة سياسية واجتماعية ودينية ، سادت بين سكان هذا الجزء من الأرض قبل ظهور الإسلام ، ومن هنا كان توحيد العرب وهم على هذا النحو الذى رأيناه داخل إطار سياسى واجتماعى ودينى واحد، وتجميع هذا الشتات المتناثر فى أرجاء الجزيرة العربية شيئا بعيد المنال، ولم يكن ليخطر على بال أكثر الناس تفاؤلا ، ولكن فى وسط هذا الليل البهيم الذى غطى سماء شبه الجزيرة العربية ردحا طويلا من الزمان، انبثق فجر الإسلام على يد سيد المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ليتحول العرب بعد هذا الشتات البعيد إلى أمة واحدة ، مؤمنة بدين واحد ، مترابطة بحبل من الله ورسوله . ثم خرجوا من جزيرتهم يحملون على عاتقهم نور الإسلام ، ينثرونه فى بقاع العالم من حولهم ؛ يطهرون به ما على الأرض من آفات ، ويجلون به ما على الكون من ظلمات ، حتى أصبح نور الإسلام يغطى سماء بقاع كثيرة من الأرض المعروفة فى ذلك الحين . وذلك فى سنوات قليلة من ظهور الإسلام على يد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

فالحمد لله الذى من فضله

عم البرية كلها الإنعام

نظر الرحيم إلى الورى فرآهـــــــم
أغوتهم الأنصـــــاب والأزلام
وتحيروا فى ظلمة الكفر الـــــــذى
عبدت به الأوثان والأصنـــــام
تغشى الفواحش فى المحافل جهـــرة
لا يفكرون كأنهم أنعـــــــــام
يبغى القوى على الضعيف ويقهر الـ
والى اليتيم وتقطع الأرحـــــام
فأغاثهم رب العباد بشرعـــــــــه
فيها الحدود على الشداد تقـــام
دين النبى محمد خير الـــــــورى
من فصلت فى دينه الأحكـــام
موسى وعسى بشرا بظهـــــــوره
ودعا به من قبل إبراهيـــــم
شكرا لمهديه إلينا نعمـــــــــه
ليست تحيط بكنهها الأوهـــام (١)

---

(١) من قصيدة للإمام العلامة ابراهيم بن أحمد الرقى ، أنظـر ، محمـد بـن يوسـف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ١ ص ٤٣٨ .

(٢)

مكة المكرمة : – قبل ظهور الإسلام

الموطن الأول : كانت مكة الموطن الأول للرسول صلى الله عليه وسلم ، ففيها ولد ، وفيها نشأ وتربى حتى بعث بها فى الأربعين من عمره، وفيها جاهد جهادا طويلا وشاقا ، حتى اضطره أهلها إلى الهجرة منها إلى موطنه الثانى يثرب ، وتعتبر مكة من أهم الحواضر بأرض الحجاز قبل الإسلام ، وكانت قرية كبيرة ، وقد تأسست حوالى منتصف القرن الخامس ق٠م ، فى واد ضيق مجدب وعلى مقربة من بئر زمزم ، وتبعد عن جدة بنحو خمسة وأربعين ميلا ٠(١)

سكان مكة الأوائل:

كان العماليق أول من سكن مكة المكرمة ، من ذرية عملاق أو عمليق بن لاوذ من ولد سام بن نوح ثم خلفتهم قبيلة جرهم الثانية ، وهم من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وفى عهد قيام هذه القبيلة فى مكة وما حولها قدم إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ومعه زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام ، ثم تركهما بها وعاد من حيث أتى ، وذلك تنفيذا لما أمره الله سبحانه وتعالى به ، وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام " ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون "٠(٢)

---

(١) عن مكة ومشتقاتها وأسمائها أنظر ، ياقوت : معجم البلدان ، حرف الميم جـ ٥ ص ١٨١ ، الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جـ ١ ص ٤٨،٤٧،١٠ ٠

(٢) سورة إبراهيم ، الاية ٣٧ ، وانظر ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية : ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ٠

ولما شب سيدنا إسماعيل عليه السلام صاهر قبيلة جرهم الثانية العربية ، ومن هنا اشتهر نسله بالعرب المستعربة أو المتعربة ، أو بالعرب العدنانية نسبة إلى عدنان أحد أحفاد سيدنا إسماعيل ، ثم لما حضر سيدنا إبراهيم إلى مكة فى زيارة من زياراته المتكررة لأهله بمكة ، أمره الله سبحانه وتعالى ببناء الكعبة المشرفة ، فقام ببناء البيت الحرام بمساعدة ولده اسماعيل ، فكان سيدنا إبراهيم يقوم بالبناء وسيدنا اسماعيل يناوله الحجارة، حتى إذا ارتفع البناء وضعا الحجر الأسود . يقول الله تعالى فى هذا الشأن :" **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**" (١)

ولم يزل أبناء إسماعيل عليه السلام بمكة يتناسلون حتى كان منهم كما قلنا عدنان وولده معد ، ومنهما حفظت العرب العدنانية أنسابها ، ومن أهم بطون معد:إياد وربيعة ومضر ، ومن بطون مضر إلياس بن مضر ، ومن بطون إلياس كنانة بن خزيمة ، ومن أهم بطون كنانة قريش.

وقد انقسمت قريش إلى قبائل عديدة ، ومن أهمها جمح وسهم ابنى هصيص بن كعب ، وعدى بن كعب ، مخزوم بن يقظة بن مرة ، وتيم بن مرة ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى بن قصى ، وعبد مناف بن قصى ، ومن عبد مناف كان هاشم ، وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .(٢)

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ ، وانظر ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ص ١٦٣ــ ١٦٦ ، الفلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ص ٣٥٠ ــ ٣٥٥ .

(٢) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، ص ٩ -١٣ ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١٩ .

هجرة العدنانيين من مكة وبقاء القرشيين :

لما تكاثر أولاد عدنان فى مكة وما حولها ، ولم تعد هذه المنطقة تفى بحاجتهم ، وضاقت بهم سبل الحياة ن أخذوا فى الهجرة والترحال من مكة وما حولها إلى مواطن أخرى أوسع وأرحب فى داخل الجزيرة العربية أو فى أطرافها ، متتبعين مواطن الماء والكلأ ، فهاجر بعض البطون العدنانية إلى الطائف كثقيف ، وإلى نواحى أوطاس فى شرق مكة كهوازن، وإلى البحرين كعبد القيس وبطون من بكر بن وائل وبطون من تميم ، وارتحل بعضهم إلى اليمامة كبنى حنيفة وبنو بكر بن وائل ، وأقاموا بين اليمامة والبحرين وأطراف العراق ، وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، وبنو سليم بالقرب من المدينة من وادى القرى إلى خيبر إلى شرقى المدينة، وأقامت بنو تميم ببادية البصرة ، وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، وأقامت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

ولم يبق بمكة أو بالقرب منها من البطون العدنانية إلا قريش وكنانة ، فقد بقيت بطون كنانة بتهامة ، أما قريش فهى القبيلة الوحيدة التى استقرت فى مكة وضواحيها ، إلا أن القرشيين ظلوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى عهد قصى بن كلاب .(١)

ولاة مكة والبيت الحرام :

كانت قبيلة جرهم الثانية تسيطر على مكة منذ ما قبل مجئ سيدنا إبراهيم بابنه إسماعيل وزوجته هاجر ، ثم لما بنى إبراهيم عليه السلام البيت بمساعدة ابنه تولى أمر البيت إسماعيل عليه السلام بحكم إقامته بمكة

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ٢٢٢ ت ٢٤٠ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١٧ .

دون والده ، ثم تولاه من بعده ابنه الأكبر نابت ، ونتيجـــة لأذان إبراهيــم عليه السلام فى الناس للحج إلى هذا البيت ، وذلك تلبية لما تلقاه من أمـــر من الله سبحانه وتعالى ، بدأ الناس يتوافدون إلى البيت ، ويجتمعون حوله ، ويطوفون به مقدسين له ، وعندئذ شعرت قبيلة جرهم التى كانت تســيطر على مكة بأهمية هذا البيت ، وأنه أصبح بمثابة القلب من الجسم ، وأن مكة دون هذا البيت لا قيمة لها ولا ذكر ، فاستولت عليه من ولد إسماعيل عليه السلام ، وأصبح شيوخها حكاما لمكة وولاة للبيت .(١)

ومنذ أن تولت جرهم أمر البيت بالإضافة على سيطرتها لمكـــة ، أصبحت هناك علاقة وطيدة ووثيقة بين حكام مكة وولاة البيت ، وظلـــت هذه العلاقة قائمة ومستديمة حتى ظهور الإسلام .

وقد استمرت ولاية جرهم على مكة والبيت حتى حوالى سنة ٢٠٧ ميلادية ، وفى هذا التاريخ ألقت قبيلة خزاعة اليمنية عصا الترحال علـــى أبواب مكة ، وكانت خزاعة ضمن القبائل التى هاجرت من بلاد اليمن إثـر سيل العرم (انهيار سد مأرب)، واستقرت فى أماكن متعددة فـــى أنحـــاء الجزيرة العربية .

وأرادت خزاعة بعد أن أنهكها الترحال الاستقرار فى مكة ، إلا أن جرهما بطبيعة الحال تصدت لها ، ومنعتها من الإقامة بـــها ، وتمسـكت القبيلتان بما أرادتا وحيال ذلك كان ولابد أن يشتبك الفريقان فى قتال حاسم لحسم هذا الخلاف ، وبالفعل اشتبك الفريقان معـــا فـــى معركـــة حاميـــة الوطيس، واستمرت لمدة ثلاثة أيام ، وانتهت المعركة فـــى نهايـــة الأمـــر لصالح خزاعة ، حيث انتصرت على جرهم انتصارا حاسما ، وتم بذلـــك

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ١١١

استيلاء خزاعة على مكة ،وإجلاء جرهم منها ، فتولت خزاعة أمر مكـــة والبيت الحرام ٠(١)

واستمرت خزاعة على ولايتها لمكة والبيت نحوا من ثلثمائة سنة ، وقد أحدثت خزاعة خلال حكمها الطويل لمكة وولايتها للبيت الحرام كثـيرا من الأوهام الفاسدة ، ولاسيما عبادة الأصنام ، وكان عمـــرو بـــن لحـــى الخزاعى هو السباق فى أحداث هذا الحادث الجلل الخطير ، كمـــا رأينـــا سابقا٠

القرشيون يحكمون مكة :

تولت خزاعة كما رأينا فيما سبق أمر مكة والبيت **ما فوق مائتـــى** سنة ، وفى وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشـــروا فـــى نجـــد وأطراف العراق والبحرين وغيرهما من أرض الجزيرة ، وبقى بمكة كما تحدثنا سابقا أولاد فهر بن مالك ، وهو قرشى وليس لهم من أمر مكـــة ولا البيت الحرام الذى بناه جدهم شيئ ، حتى جاء قصى بن كلاب القرشـــى ، وكانت قريش فى ذلك الوقت تنزل الشعاب والجبال وأطراف مكـــة ومـــا حولها ، بينما كانت خزاعة تنزل بالأبطح بين البيت ومنى (٢)٠

قصى بن كلاب وقصته :

هو قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فـــهر ، من ولد كنانة الذى يرجع نسبه إلى عدنان ، وإلى ذلك يشـــير رســـول الله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ١١٣- ١١٧ ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام، جـــ ١ ص ٤٥

(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ، جـــ ١ ص ٣٢ ، صفى الدين بن عبد الحق بغدادى : مراصد الأطلاع بأسماء الأمكة والبقاع ، جـــ ١ ص ١٧ ٠

صلى الله عليه وسلم بقوله (إن الله إختار من إسماعيل كنانـــة ، واختـــار قريشا من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار) وقصى هو الجد الرابع للرسول صلـــى الله عليه وسلم ٠

وولد قصى بن كلاب فى مكة ونشأ بها فى بداية حياته ، ولما توفى كلاب بن مرة وهو مازال صغيرا تزوجت أمه فاطمة بنـت عمـرو مـن ربيعة بن حرام ، وهو من قضاعة ، ثم رحلت مع زوجها ومعـــها ابنـــها قصى إلى بلاد الشام حيث مسكنى قضاعة ، وتركت ابنها الأكبر زهرة مـع قومه،ولما بلغ قصى أشده عيره رجل من بنى قضاعة لوجوده مع أمه دون قومه ، فاستاء قصى بذلك وأصر على الخروج إلى قومه فى مكة واللحـاق بهم ، وكره الغربة فى أرض قضاعة ، وما لبث قصى أن سار إلى مكـــة ولحق بقومه ٠(١)

ولما وصل قصى إلى مكة وأقام بها بين بعض من قومه بدأ يقترب من زعيم خزاعة حليل بن حبشية بن سلول الذى كان يلى إذ ذاك أمر مكـة والكعبة ، فرغب فيه زعيم خزاعة لنسبه العالى فزوجه ابنته حبى ، وظـل قصى مقيما مع حميه سيد مكة ومتولى البيت حتى أنجب أولاده عبد الـدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى (٢) ٠

قصى يتولى الحكم :

عندما شعر حليل بن حبشية زعيم خزاعة بدنو أجله لم يجد حولـه من هو أولى بتولى أمر البيت الحرام من زوج إبنته قصى ، فدعاه وعـــهد

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ٠
(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٢٤١

إليه بولاية البيت الحرام ، وقال له : إنما ولـــدك ولـــدى ، وأنـــت أحـــق بالبيت٠(١)

فلما أخذ قصى مفتاح البيت أنكرت خزاعه ذلك وأجمعـــوا علـــى حرب قصى وقريش ، وطردهم عن مكة وما والاها ٠

فبادر قصى فاستصرخ أخاه رزاح بن ربيعة فحضرهو وإخوته من قضاعة ٠ وكانت بنوصوفة (من بنى بكر) تدفع الناس بالحج من عرفـــة إذا نفروا من منى ، فلم يكن أحد من الناس يجسر أن ينفر ولا يرمى حتـــى يرموا ٠ فلما كان هذا العام فعلت بنو صوفة كما كانت تفعل ، فأتاهم قصى بمن معه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة ، فقال لبنى صوفة : نحـــن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فقاتلهم حتى هزمـــهم وغلبـــهم علـــى مـــا كـــان بأيديهم٠(٢)٠

وعندئذ انحازت خزاعة إلى بنى بكر ، وعلموا أنه سيمنعهم كمـــا منع من ذلك بنى صوفة ، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة ، فدار قتال شديد بينهم ٠ ثم أنهم تداعوا إلى الصلح ، وأن يحكموا رجـــلا مـــن العرب ، واختاروا لهذا الأمر يعمر بن عوف — من بنى بكر بن عبد منـــاة بن كنانة — فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالكعبة ، وأمر مكة من خزاعـــة ، وأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وبنى كنانة وقضاعة فيه الدية ، وأن يخلى بين قصى وبيـــن

---

(١) وقيل أن حليلا عهد بمفتاح الكعبة لسليمان بن عمرو بن بوى ، المعـــروف بـــابى غبشان ، فاشتراه قصى منه بالإضافة الى ولاية البيت بزق خمر — فقيل : أخـــس من صفقه أبى غبشان فوثبت خزاعة لتقاتل قريشا فقال بعضهم فى ذلك :

أبوغبشان أظلم من قصى وأظلم من بنى فهر خـــزاعه
فلو تلحوا قصيا فى شـــراه ولوموا شيخكم إذ كان باعه

(٢) محمد بن يوسف الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خـــير العبـــاد ، جـــ ١ ص ٣٢٣ ٠

البيت ٠ فاضطرت خزاعة عندئذ للرحيل من مكة فنزلت بطن مـــر مـــن أطراف مكة ٠(١)

فتولى قصى بن كلاب حجابة البيت وأمر مكة وجمع قومه قريشـــا من منازلهم إلى مكة ، فكان قصى بذلك أول رجل من كنانة أصاب ملكـا ، وأطاع به قومه ٠ فلما جمع قريشا بمكة سمى مجمعا ، وفى ذلـــك يقـــول حذافة بن غانم الجمحى يمدحه :

أبوهم قصى كان يدعى مجمعا

به جمع الله القبائل من فهـــر

همو نزلوها والمياه قليلـــــة

وليس بها إلا كهول بنى عمرو(٢)

أعمال قصى بن كلاب فى مكة :

بعد أن انفرد قصى بن كلاب بالزعامة فى مكة وتولى أمر الكعبة، بدأ فى وضع تنظيمات إدارية ودينية غاية فى الدقة لحكم مكة **فأولا** : قســم مكة إلى رباع ، ووزعها بين قومه ، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التـــى استقروا بها ٠ **ثانيا** : أنشأ دارا سماها بدار الندوة ، وهى بمثابة برلمـــــان صغير وفيها يجتمع كبار القرشيين تحت رئاسته للتداول فى شئون مكـــة ، ولم يكن يسمح بدخول دار الندوة والمشاركة فى اجتماعاتها إلا لمن بلغ من القرشيين الأربعين من عمره ٠(٣)

---

(١) ابن الوردى : تتمه المختصر فى أخبار البشر ،جـ ١ ص ١٤٢ ، صفى الدين بـن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقـاع ، جــ ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ٠

(٢) يقصد خزاعة ، وانظر ، الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ٠

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ص٤٨ ٠

وبخلاف ذلك جمع قصى ابن كلاب فـــى يـــده جميـــع الســـلطات الإدارية والدينية والعسكرية ، وهى :

-**رئاسة دار الندوة** ٠

٢- **اللواء هى** : عبارة عن راية الحرب التى كانوا يرفعونها فوق رمح عند إعلان الحرب على قبيلة أخرى ٠

٣- **الحجابة** : حجابة الكعبة الشريفة أو سدانتها فكـــان لا يفتـــح بابها إلا قصى ، كما لا يلى أمر خدمتها أحد غير قصى ٠

٤- **سقاية الحاج** : وهى توفير المياه لحجاج بيت الله الحـــرام ، وكان قصى يجهد نفسه وأهله فى جلب المياه من أماكن بعيدة لراحة الحجاج ، وخصوصا وأن بئر زمزم كانت مطمـــورة منذ نهاية عصر جرهم الثانية ، فإن جرهما لما انهزمت مـــن خزاعة طمرت البئر حتى لا يستفيد أعداؤهم الخزاعيون ٠(١)

٥- **رفادة الحجاج** : طعام كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافـة وكانت قريش تساعد قصيا على إطعام الحجيج بما تقدمه لـــه من الخرج الذى تخرجه له كل عام ٠(٢)

وبخلاف هذه التنظيمات الإدارية والدينية والعسكرية التى تولاهـــا قصى بن كلاب كانت هناك أيضا مصالح أخرى دون المصالح الســـابقة ، وقد وزع قصى مسئولياتها بين قبائل قريش ٠(٣)

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ٠

(٢) زاد الفاسى فى هذا التنظيمات عملا سادسا ، وهو القياده ٠ ويقول فـــى روايـــة أن قصيا أعطى الرئاسه والحجابه واللواء لبنى عبد الدار ، وأعطى الرفاده والســـقاية والقيادة بنى عبد مناف ، ومن الواضح أن بنى عبد شمس بن عبد مناف قد استأثروا بقيادة الحروب فى قريش قبل إسلام وبعده حتى فتح مكة ٠ الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ص ٦٩ ، ٧٥ــ٩١ ٠

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ ٠

وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش ، حتى لا يكون هناك مجال للنزاع ، وقد كانت لهذه التنظيمات الدقيقة أثرها الكبير بين سائر العرب فى أنحاء الجزيرة العربية، ولم يقع بين القرشيين — لذلك — خلافات حادة إلا نادرا ، بينما كانت الخلافات بين سائر القبائل العربية حادة وعميقة الجذور ، حتى دارت المعارك الطاحنة التى أدت إلى قتل آلاف الأبرياء ، وإسالة دماء آلاف من الجرحى الأشقياء ٠

لكن قريشا وإن أمنت مما أصاب كثيرا من القبائل العربية ، إلا أنها لم تأمن فى بعض الأحيان المنافسات التى حدثت بين كبراء البيت القرشى من أجل إحراز السبق فى الشرف والاحترام ٠

مكة بعد قصى :

قلنا أن قريشا قد أمنت — بفضل تنظيمات قصى بن كلاب — الحروب والصراعات الدموية التى أصابت سائر العرب ، لكن قريشا — أيضا — وإن أمنت الحروب إلا فى نادر الأحيان ، غير أنها لم تأمن فى بعض الأحيان المنافسة على إحراز الشرف والرئاسة والسبق بين كبراء بيت قصى ٠

وكان ما فعله قصى نفسه فى أخريات أيامه من الأسباب القوية فى ظهور المنافسة بين أبناء البيت الواحد ٠

فقصى بن كلاب لما كبر فى العمر ورأى أن ابنه البكر عبد الدار لم يحظ من الشرف — طوال أيام أبيه السابقة — قدر ما بلغه عبد مناف ، فأراد قصى أن يلحق عبد الدار بأخيه فى الشرف والعزة والمنعة ، فتنازل له لذلك عن جميع سلطاته فى حياته ٠ فأعطاه الحجابة حتى لا يدخل أحد

من قريش الكعبة إلا بإذنه ، واللواء حتى لا يعقد لقريش لواء فى حربها إلا عبد الدار ، والسقاية حتى لا يشرب رجل بمكة إلا من سقايته ، والرفادة حتى لا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامه ، وسلمه كذلك دار الندوة حتى لا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا فى دار عبد الدار (١)٠

ولما توفى قصى بن كلاب ظل عبد الدار كما كان فى عهد والده قصى على رئاسة قريش ، ولم ينازعه فى هذا الشأن أخوه عبد مناف ، وذلك لاحترامه وصية أبيه ، ثم تولى الأمر بعد عبد الدار أولاده ٠

النزاع بين أولاد عبد مناف وبنى عبد الدار :

لم يكد عبد مناف أن مات حتى قام أولاده ـ عبد شمس ، وهاشم، والمطلب ، ونوفل ـ ينازعون أبناء عبد الدار فيما ورثوه عن أبيهم من زعامة مكة وولاية البيت ، على أساس أنهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم ، وقد تزعم عبد شمس أولاد عبد مناف ، لأنه كان أسن أخوته ، بينما تقلد أمر بنى عبد الدار زعيمهم عامر بن عبد الدار ٠

وقد أدى هذا النزاع بطبيعة الحال إلى انقسام القرشيين إلى فريقين، فريق منهم مال إلى بنى عبد مناف بن قصى ، وفريق آخر تمسك بموقف بنى عبد الدار بن قصى ٠

فانضم إلى بنى عبد مناف بنو الحارث بن فهر ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ٠

وانضم إلى جانب بنى عبد الدار بنو مخزوم بن يقظة ، وجمح ، وسهم وعدى بن كعب ٠٠ وعقد عندئذ كل فريق منهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ، وأتى بنو عبد مناف وحلفاؤهم جفنة مملوءة طيبا ، وغمسوا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠

أيديهم فيها وتعاهدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم لتأكيد تعدهم ، فسموا لذلك بالمطيبين .

وكذلك أتى بنو عبد الدار وحلفاؤهم بجفنة مملوءة دما — عند الكعبة — وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة ، وتعاهدوا على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا وسموا بالأحلاف .(١)

وكاد القتال أن يندلع بين الفريقين بعد عقد هذه المحالفات ، ولكنهم وقبل أن تشتعل نيران القتال تداعوا إلى الصلح ، وانتهوا أخيرا إلى اقتسام هذه المصالح ، فجعلوا لبنى عبد الدار الحجابة ، واللواء ودار الندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة .(٢).

مكة وهاشم بن عبد مناف :

لما تم الصلح بين بنى عبد مناف وبنى عبد الدار على أن تكون السقاية والرفادة من نصيب بنى عبد مناف ، وليها هاشم بن عبد مناف وذلك لأن أخاه الأكبر عبد شمس كان كثير السفر ، وقلما استقر فى مكة ، وهذا بخلاف قلة ماله ، وكثرة عياله ، بينما كان هاشم موسرا ذا مال وفير .

وكان هاشم بن عبد مناف هو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام ، وبذلك رفع من شأن مكة كمركز تجارى هام ، يربط بين تجارتى الشمال والجنوب ، وبالتالى بين تجارتى الشرق والغرب ، وكانت تجارة قريش لا تعدو مكة ، فكانوا فى ضيق حتى ركب هاشم إلى الشام فنزل بقيصر الروم ، فأعجب به قيصر

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ٢٠٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ١٣٠ — ١٣٢ ، وقيل إنما سموا بالأحلاف : لخلطهم نعالهم فى فناء الكعبة ولتحالفهم بالبيت ، الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ص ٨٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ١٣٢ .

يكتب لقريش كتابا يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه وفى طريق عودته من الشام إلى مكة جعل هاشم كلما مـــر بحى من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف — العهد والأمان — أن يــأمنوا عندهم وفى أرضهم فأخذوا الإيلاف بين مكة والشام ٠(١)

وكان هاشم بن عبد مناف بحكم وظيفته يقوم بإطعام الحجاج فـــى كل موسم ، بما يجمعه من قريش من الأموال ، ولما أصاب الناس — فـــى زمنه — بمكة جدب شديد سافر هاشم إلى بلاد الشام ، وأشترى بما لديه من أموال دقيقا ، ثم عاد إلى مكة ، وذبح الذبائح ، وصار يهشم الخبز لســكان مكة ، فسمى بذلك هاشما ، وكان اسمه الحقيقى قبل هذا الحـــدث عمـــرا ، وقال فى ذلك عبد الله بن الزبعرى الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه قوم بمكة مســـنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهمـــا سفر الشتاء ورحلة الأصياف(٢)

النزاع بين هاشم وابن أخيه أمية:

قلنا إن هاشما تولى السقاية والرفادة إثر صلح المطيبين والأحلاف، وذلك لما لديه من إمكانيات مالية واسعة ، ولم ينافسه فى ذلك أخوه الأكـبر عبد شمس بسبب قلة ماله ، وكثرة أولاده ، ودوام سفره ٠ ومن هنا علــت مكانة هاشم بين قريش ، لعنايته بإطعام الحجاج ، وتحمل أعباء نقل المـــاء إليهم ، فحسده فى ذلك ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، وحقد عليه — وكـــان من الموسرين — فأراد أن يفعل كما يفعل عمه هاشم فى إطعام الناس، لكن أمية لم يستطع أن يجارى عمه فى هذا الشأن ، ولما عيره بعض قومه فـــى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ١٣٦ ٠

هذا الصدد غضب أمية وازداد حقده على هاشم ، فتنازع مع عمه بشأن السقاية والرفادة ، ودعاه أن يحتكما — فى هذا الشأن — إلى أحد حكماء العرب ، ليحكم أيهما أكثر فضلا وأعز نفرا ، وذلك على شرط أن من ستكون عليه الغلبة كان عليه أن يخرج خمسين ناقة سود الحدق ، ويقوم ينحرها فى بطن مكة ، وأن يجلو عن مكة عشر سنين ، فحكم بينهما كاهن خزاعة ، وكان حكمه لصالح هاشم بن عبد مناف ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم أهل مكة ، وخرج أمية بن عبد شمس إلى الشام فأقام بها عشر سنين ٠

وكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية ، ثم امتدت فيما بعد بين بنى هاشم وبنى أمية ٠(١)

ومن الثابت أن هذه الخلافات التى حدثت بين أولاد وأحفاد قصى بن كلاب ، لم تصل يوما إلى حد اندلاع القتال بينهم ، لأن البيت القرشى كان يتمسك فى شدة باحترام البيت الحرام ، ومنع سيلان دم عنده أو قربه، لأن ذلك لو حدث لانحط مركزهم السامى الذى نالوه بفضل ولايتهم للبيت، وزعامتهم فى مكة ٠

وكانت مكة معروفة لدى كافة العرب بأنها حرم آمن ، ومن لجأ إليه فقد نجا من عدوه ، ثم إن أشهر الحج عندهم أشهر حرم ، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجوار هذا البيت العظيم ، وداخل حدود الحرم ، وكان الناس يسارعون إلى هذه الأسواق المعقودة من أنحاء الجزيرة العربية ، لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وبطبيعة الحال لو أخل ولاة البيت الحرام بهذا العهد الوثيق قل احترامهم بين كافة الناس وسقطت هيبتهم ، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان يأتيهم من كل فج عميق ٠

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ،جـ ١ ص ٣١٩ ٠

ولأن القرشيين كانوا يدركون تمام الإدراك الفائدة التى تعود عليهم بسبب حرمة هذا البيت وما حوله كانوا يؤكدون من حرمته ، ويزيدون فيه كلما وجدوا لذلك مناسبة ، وذلك توسعا فى تأمين الناس فى الحرم ، وتأكيدا فى حمايتهم ، وكان حلف الفضول من أهم المنجزات فى هذا الشأن قبيل ظهور الإسلام .

حلف الفضول :

كان هذا الحلف قبل عشرين سنة من البعثة النبوية ، وجاء هذا الحلف تأكيدا لحرص قريش على تأمين الحرم ، وكل من يأتى إليه ، ولذلك اتصف هذا الحلف بأنه أكرم حلف وأشرفه .

وكان السبب فى هذا الحلف هو أن رجلا من زبيد قدم بمكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، وكان ذا شرف وقدر بمكة ، ورفض أن يعطى له ثمن بضاعته فالتجأ الرجل إلى الأحلاف ـ عبد الدار ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وعدى بن كعب ـ لكنهم أبوا أن يعينوه على العاص ، ولما لم يجد الزبيدى فائدة صعد إلى جبل أبى قبيس (١) عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته

يا آل فهر وبين الحجر والحجر

---

(١) هو الجبل المشرف على مكة من غربيها ، وجهه إلى قعيقعان ـ جبل آخر مشوف على مكة من شرقيها ـ ومكة بينها ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ١ ص ٢٠ ، جـ ٣ ص ١١١٢ .

هل محضر من بنى سهم بحضرتهم

فعادل ، أم ضلال مال معتمر(١)

وعند ذلك قام الزبير بن عبد المطلب ، ودعا قبائل قريش إلى حلف فاجتمع بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وذلك لشرفه وسنه ، فتعاقدوا وتعاهدوا فى هذا الاجتماع على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ٠

وعلى أساس هذا الحلف أنصفوا الزبيدى من العاص ، وردوا إليه ثمن بضاعته ، وأصبح ما تم فى هذا الحلف قاعدة متبعة بين القرشيين فى مكة لانصاف المظلومين ، والأخذ على يد الظالم ، وذلك حرصا على تأكيد حرمة مدينتهم دون تمييز بين ساكنها وزائرها ٠

ويقال أن السبب فى تسمية هذا الحلف " بحلف الفضول " يرجع إلى أن جرهما قد سبقت قريشا إلى مثل هذا الحلف ، وقد تحالف منهم ثلاثة مع من تبعهم ، وكان أسماؤهم على النحو التالى :- الأول : الفضل بن فضالة ، والثانى : الفضل بن وداعة ، والثالث : فضيل بن الحارث ، وقيل: بل هم : الفضيل بن شراعة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة ٠ فلما أشبه هذا الحلف حلف هؤلاء الجرهميين سمى حلف الفضول ٠

وقيل بل سمى بحلف الفضول ، لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، وألا يغزو ظالم مظلوما ٠(١)

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ص ٩٩ ، ١٠٠ ٠

مكة فى عصر عبد المطلب بن هاشم :

لما مات هاشم بن عبد مناف تولى أمر السقاية والرفادة — من بعده— أخوه المطلب بن عبد مناف ، وكان ذا شرف وسماحة حتى اشتهر بين قومه بالفياض ٠(٢)

وكان هاشم بن عبد مناف لما قدم يثرب — فى إحدى سفرياته التجارية إلى بلاد الشام — قد تزوج سلمى بنت عمرو من بنى النجار ، فولدت له شيبة ، والذى عرف فيما بعد بعبد المطلب ، نسبة إلى عمه المطلب ٠

وعاش عبد المطلب — بعد موت أبيه — فى رعاية أمه فى بنى النجار بيثرب ، ولما بلغ السابعة من عمره قدم عمه المطلب إلى يثرب ، وأخذ ابن أخيه ورده إلى قومه فى مكة ، فنشأ بها ، ثم لما هلك عمه المطلب بردمان من أرض اليمن(٣) تولى من بعده أمر السقاية والرفادة ، وشرف فى قومه بمكة شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبوه غاية الحب ، وعظم خطره فيهم ٠

عبد المطلب وحفر زمزم سنة ٥٤٠ م:

كان من أهم الأعمال الجليلة التى اضطلع بها عبد المطلب هو إعادة بحفر بئر زمزم (بئر سيدنا إسماعيل) ، وكانت قد طمرت — كما ذكرنا سابقا — بفعل الجرهميين نكاية فى أعدائهم الخزاعيين ٠

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ١ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ٠
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ١١٦ ٠
(٣) ردمان : ناحية باليمن ، ودفن المطلب بها ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ص ٧٧٣ ٠

وقد أتى آت إلى عبد المطلب وهو نائم بجوار الكعبة المشــــرفة ، وأمره بحفر زمزم ، وقد تكررت هذه الرؤيا لعبد المطلب ثلاث مــــرات ، وحددت الرؤيا له فى المرة الثالثة مكان البئر ، وكانت بين الصنمين أساف ونائلة ، وفى الموضع الذى كانت تنحر فيه قريش ذبائحها ٠

وقد صدع عبد المطلب لهذه الرؤيا ، فخرج هو وابنه الحارث بــن عبد المطلب ــ وهو أكبر أولاده ولم يكن قد ولــد لــه غــيره ــ وقصــد الموضع الذى حدد له فى الرؤيا ، ثم شرع فى حفر البــــئر ، ولمــا رأت قريش اهتمام عبد المطلب ، ورأوه جادا فى الحفر ، قدم كبــار القرشــيين حيث يحفر ، قالوا له : والله لاندعك تحفر عند وثنينا هذين اللذيــن ننحــر عندهما ٠ فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذد عنى حتى أحفــر ، فــوالله لأمضين لما أمرت به ، فلما رأى القرشيون إصراره فى إنجاز الحفر خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه ٠

ولم يزل عبد المطلب يحفر يسيرا حتى ظهر الردم ، فكبر ،فعرف القرشيون أنه قد صدق ، فلما تمادى به الحفر وجد بها غزالين من ذهــب، وكانت جرهم قد دفنتهما فيها حين خرجت من مكة ، كما وجد فيها ســيوفا ودروعا ، وقالت له قريش عندئذ : لنا معك فى هذا شرك وحق ، فـــامتنع عبد المطلب وأبى ، وأمام اصرارهم فى الاقتسام أشار عليهم الاحتكام عند هبل ، فقال لهم : هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم : نضرب عليها بــالقداح (السهام) ، قالوا : وكيف تصنع ؟ قال : أجعــل للكعبــة قدحيــن ، ولــى قدحين،ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه على شيئ كان له ، ومن تخلــف قدحاه فلا شيئ له ، قالوا: أنصفت ٠

فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبــد المطلــب ، وقدحين أبيضين لقريش ، ثم أعطى القداح الذى يضرب بها عند هبل أعظم

أصنامهم ، وقام عبد المطلب عندئذ يدعو ربه ، فضرب صاحب القـــداح، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأســـياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش .

ولما تم أمر التحكيم ضرب عبد المطلب الأسياف بابـــا للكعبـــة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب ، فكان أول ذهب حليته الكعبة .ثم إن عبد المطلب أقام — بعد حفر بئر زمزم — سقاية زمزم للحجاج . (١)

العلاقة بين حفر زمزم ونذر عبد المطلب ذبح ولده:

كان وقوف قريش لعبد المطلب أثناء حفره لبئر زمزم ، ومحاولتهم منعه — تارة — من الحفر ، أو الاقتسام معه فيما وجده فى زمـــزم عنـــد حفرها — تارة أخرى — دفعه إلى التفكير فى ضرورة التمتع بالقوة .

وكانت تتمثل القوة فى هذا الزمان بكثرة الأبناء ، ويقال أن عبـــد المطلب نذر لئن ولد له عشرة بنين ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحـــرن أحدهم لله عند الكعبة .

فلما بلغ بنوه عشرة ، وعرف أنهم ســـيمنعونه ، جمعـــهم لديـــه ، وأخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعه بنوه فيمـــا طلـــب منهم، وقالوا كيف تصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ، ثم يكتب فيـــه اسمه، ثم ائتونى ، ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبـــة ، وقال عبد المطلب لصاحب القداح : - اضرب على بنـــى هؤلاءبقداحـــهم هذه، وأخبره بنذره الذى نذر .

---

(١) هناك روايات عديدة غير هذا الرواية فى شأن حفر زمزم وما حدث من خلاف بين عبد المطلب وبين قريش ، وانظر ، ابن هشام : الســـيرة النبويـــة ق ١ ص ١٤٢ —١٤٧ .

وعندما ضرب صاحب القداح ، خرج القدح على عبد الله ــ وكان أحب ولده ــ فأخذه عبد المطلب وهم بذبحه بين أساف ونائلة على عادتهم. لكن قريشا خافت أن تصبح هذه الفعلة الخطيرة قاعدة متبعة بين قومهم فيما بعد ، لذلك قامت قريش وأحالت بين عبد المطلب وبين تنفيذ غرضه ، وأشارت عليه بأن يذهب به إلى عرافة الحجاز ، فإذا أشارت بذبحه فليذبحه.(١).

واستراح عبد المطلب لنصيحة قريش ، فأخذ ولده مع نفر من قريش وذهبوا إلى المدينة باحثين عن العرافة ، فعلموا هناك أنها بخيبر ، فسافروا إليها فلما وجدوها ، وقصوا عليها القصة كاملة ، قالت لهم العرافة: كم الدية فيكم ؟، قالوا : عشرة من الإبل . فقالت : ارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشرة من الإبل ، ثم اضربوا القداح عليهما ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا فى الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فعاد عبد المطلب بابنه عبد الله وبمن معه من عشيرته ، وفعلوا ما أشارت به العرافة ، حتى بلغت الإبل مائة . فخرجت القداح عندئذ على الإبل . فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب، وقيل إن عبد المطلب أصر على ضرب القداح ثلاث مرات أخرى فخرجت القداح فى المرات الثلاثة على الإبل ، فاطمأن حينئذ على رضا ربه فنحرت الإبل : ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع .(٢)

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ص ٢٣٨ .
(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

زواج عبد الله ووفاته :

لما اتم عبد المطلب نحر الإبل انصرف آخذا بيد ابنه عبد الله، وقـد اضمر فى نفسه تزويجه ، ليعوضه بــالزواج بعــد هــذا العنــاء الشــديد والامتحان الصعب الذى تعرض له ٠

ومر عبد الله فى طريقه مع والده على امرأة من بنى أسد ، يقـــال لها أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى كلاب ٠ وهى أخت ورقة بن نوفل ، وكانت عند الكعبة ٠ فتعرضت له أم قتال وقالت له حيــن نظرت فى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ، قـــالت : لــك عندى مثل الإبل التى نحرت عنك ، وقع على الآن ، فقال لها عبــد الله إن معى أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ٠(١)

واستمر عبد المطلب فى طريقه ومعه ولده عبد الله حتى أتى بـــه وهب ابن عبد مناف بن زهرة ــ ووهب يومئذ ســيد بنــى زهــرة ســنا وشرفا ــ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وكانت فى ذلك الوقت أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ٠

ويقال إن عبد الله قد دخل على آمنة حيث عقــد عليــها فحملــت برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم خرج من عندها ، ومر بـــالمرأة التى عرضت ما عرضت ، ولكنها فى هذه المرة لم تعــرض عليــه ولــم تتعرض له ، فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنــت عرضــت على بالأمس ؟ فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لــى بك اليوم حاجة ٠

---

(١) وقيل إن المرأة التى تعرضت لعبد الله هى فاطمة بنت مر ــ كاهنة من خثعم وقيـل أنها كانت ليلى العدوية ، وقيل انها كانت أمرأة له مع آمنة ينت وهب ،ابن هشـام : السيرة النبوية ن ق ١ ص ١٥٥ ــ ١٥٧ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٢٤٣ ــ ٢٤٦ ٠

وقد كانت أم قتال ـ رقية بنت نوفل ـ تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ـ وكان قد تنصر واتبع الكتب ـ أنه كائن لهذه الأمة نبى من بنى إسماعيل ، وقد شعرت أم قتال بنور هذا النبى المنتظر فى غرة عبد الله فارادته لنفسها ، لكن عبد الله ذهب إلى آمنة ، وأودع لديها هذا النور العظيم ٠

ثم خرج عبد الله بعد زواجه فى عير لقريش إلى بلاد الشام ، وأثناء عودته من رحلة الشام مرض فى الطريق ، فنزل بالمدينة بعد أن عجز عن مواصلة الطريق إلى مكة ، فأقام بها حتى توفى ، ودفن فيها ٠ ولم تزل آمنة حامل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

البيت الحرام وأصحاب الفيل :

لما رأى أبرهة بن الصباح حاكم بلاد اليمن من قبل ملك الحبشة ، أن أهل اليمن يخرجون فى كل موسم من مواسم الحج إلى مكة ، للحج إلى بيت الله الحرام ، وفودا متتابعة ٠ أراد أن يصرف الناس عن البيت الحرام، فكتب أبرهة إلى قيصر الروم ـ فى ذلك الوقت ـ أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء ، وسأله العون ، فأرسل إليه الصناع ، وأمده بالفسيفساء والرخام٠

فلما تم بناؤها كتب أبرهة إلى النجاشى : أنه يريد أن يصرف إلى كنيسته حجاج العرب ، ويحول تجارة قريش إلى صنعاء ، فأثار ذلك حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ودخل الكنيسة وأحدث بها ليلا ولطخ قبلتها بالعذرة ٠(١)

وعندما علم أبرهة بما أحدثه أحد العرب فى كنيسته أقسم ليهدمن الكعبة انتقاما لانتهاك حرمة كنيسته ، وكتب إلى النجاشى يخبره بذلك ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٢٥ ٠

وسأله أن يبعث إليه بفيله ـــ وكان له فيل يقال له محمود ، لم يـــر مثلـــه عظما وجسما وقوة ـــ فبعث به إليه ٠

وسار أبرهة على رأس جيش كبير والفيل أمامه وسار إلى مكـــة والتقى فى طريقه بذى نفر ملك اليمن ـــ الذى كان قد خرج لمنع أبرهة من هدم بيتهم المقدس ـــ فانتصر عليه أبرهة ، ثم عفى عنه وسيره معه أسيرا، ثم التقى أبرهة بخثعم ومن معها من القبائل العربية ، وانتصـــر عليـــهم ، وعفى عن زعيمهم نوفل بن حبيب الخثعمى واستخدمه دليلا ٠

ثم مر أبرهة على الطائف واستسلم أهلها ، وبعثوا معه أبارغـــال يدله على الطريق إلى مكة فمات فى طريق فرجمت قبره العرب٠(١)

وعندما استقر أبرهة عند المغمس قرب مكة بعث بفرقـــة بقيـــادة الأسود بن مقصود الحبشى للإغارة على نعم الناس ، فاستولى الأسود على كثير من أموال أهل مكة ومنها مائتى بعير لعبد المطلب زعيـــم قريـــش ، فهمت عند ذلك قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ، إلا أنهم رأو قبل الإقدام على ذلك أن لا طاقة لهم به ٠

وأثناء ذلك بعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة رسولا لأهلـــها ، وقال له : أبلغ شريفها أننى لم آت لقتال ، بل جئت لأهدم البيت ٠ فـــانطلق حتى قابل عبد المطلب وبلغه رسالة أبرهة فقال له عبد المطلـــب : مالنـــا يدان٠ سنخلى بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيـــت الله ، وبيـــت خليلـــه إبراهيم٠ فإن يمنعه ، فإنه بيته وحرمته ٠ وإن يخلى بينه وبين ذلك فوا لله مالنا من قوة ٠

---

(١) وهو القبر الذى يرجمه الناس عند " المغمس" على بعد ثلثى فرسخ ـــ يعنى ميليـــن ـــ من مكة فى طريق الطائف ، ابن هشام : السيرة النبويـــة ، ق١ ص٤٧ ، ٤٨ ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـــ ٣ ص ١٢٩٣ ٠

ثم أخذ حناطة ـــ رسول أبرهة ـــ عبد المطلب لمقابلة سيده ومعـــه بعض بنيه حتى وصلوا إلى المعسكر ، فلما تقابل أبرهة بعبد المطلـــب ـــ وكان رجلا جسيما وسيما ـــ أعظمه وأكرمه ، وكره أن يجلس معه علـــى سريره ، أو أن يجلس تحته ٠ فهبط أبرهة إلى البســاط ودعـــاه وأجلســه بجواره ، ثم سأله عن حاجته ، فطلب منه عبد المطلب أن يرد عليه مـــائتى بعير التى استولى عليها من أمواله ٠

فقال أبرهة عند ذلك ـــ وقد فوجئ بطلب عبد المطلب ـــ قد كنــت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ٠٠ أتكلمنى فى مـــائتى بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتا هـــو دينـــك وديـــن آبـــائك ، وشـــرفكم وعصمتكم ، قد جئت لأهدمه فلا تكلمنى فيه ؟ فقال عبد المطلب :-إنى أنـــا رب الإبل ، والبيت له رب يمنعه منك ، قال : ما كان يمنعه منى ، قـــال أنت وذاك ، أردد لى إبلى ٠ فرد أبرهة إليه إبله ٠

وعندئذ خرج عبد المطلب من مجلس أبرهة وأخبر قريشا بالخبر ، وأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب ، ويجتمعوا برؤوس الجبال ، ففعلوا ٠ ثـــم أتى عبد المطلب البيت ، فأخذ بحلقة الباب ، وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا فامنعهمو أن يخربوا قراكا

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق مع قريش إلـــى رؤوس الجبال ٠

ولما أصبح أبرهة تهيأ للدخول إلى مكة لهدم البيت ، وجعل الفيـــل فى مقدمة جيشه ، ثم لما آن الأوان فى التحرك نحو الكعبة برك الفيـــل ، فبعثوه فأبى ، فوجهوه إلى اليمن ، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام فـــهرول

إليها أيضا ، ووجهوه إلى المشرق ففعل ذلك ، ثم وجهوه إلى الحرم فبرك وامتنع ٠

وفجأة وجيش أبرهة على هذا الحال مع فيلهم العظيم إذ يتسابق إليهم طيور من جهة البحر ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص والعدس ، فلما غشيت الطيور جيش أبرهة أرسلتها عليهم ، فلم تصب تلك الحجارة أحد إلا هلك ٠(١)

ولم ينج من هذا الجيش الكبير إلا نفر قليل ، وقد أصابهم الذعر والهلع حتى ماج بعضهم على بعض ، وهم يبحثون عن طريق العودة إلى اليمن ٠ وقد أصيب أبرهة اثناء رجوعه بداء عضال : تساقطت منها أنامله حتى وصل صنعاء ، وهو في غاية من الضعف وقد أشرف على الهلاك ٠ وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك ٠(٢)

كانت هذه الحادثة ، وانهزام هذا الجيش العرمرم أمام بيت الله الحرام فاتحة عصر جديد في تاريخ العرب على وجه العموم ، وفاتحة خير عظيم لقريش خاصة بحكم تواجدهم حول البيت العتيق وزاد احترام عامة العرب في أنحاء الجزيرة العربية لقريش بعد أن أذيع نبأ أصحاب الفيل والبيت الحرام ٠(٣)

وكان عام الفيل ، وهو الموافق لسنة ٥٧١ ميلادية عام خير وبركة على البشرية جمعاء ، ففيه ولد أعظم من أنجبته البشرية سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ٠

ومما سبق نجد أن الله تعالى قد أفاض على مكة وأهلها ، وبالأخص قريشا ــ آخر سكان مكة قبيل ظهور الإسلام ــ بأنعم كثيرة ، ومع ذلك

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ١ ص ٤٣ ــ ٥٣ ٠
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ٠
(٣) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ١ ص ٢٥٨ ٠

نجدهم قد جحدوا بأنعم الله ، وكفروا به عندما بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام .

ومن هذه النعم التى خص الله بها أهل مكة دون سائر الناس هى :

١ – بناء البيت الحرام — الكعبة الشريفة — فى مكة .

فقد بنى البيت الحرم بأمر من الله سبحانه وتعالى على يد سيدنا إبراهيم عليه السلام وبمعاونه ابنه إسماعيل عليه السلام . يقول الله تعالى فى هذا الشأن (**إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين**) (١).ويقول الله تعالى أيضا : (**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**) (٢).

وقد استتبع قيام البيت الحرام بمكة أن حباها الله بأمور وذلك لتكملة أهمية قيامه وقدسيته ، وهذه الأمور هى :

أ – الحج إلى البيت الحرام والطواف حوله.

فقد أمر الله رسوله إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة المشرفة أن يؤذن فى الناس للحج وزيارة بيته ، فأذن كما أمره الله ، فتوافد الناس إليه من كل أنحاء بلاد العرب ، مما أدى — فوق المثول لأمر الله لعبادته عند البيت — إلى منافع كثيرة لأهل مكة وغيرهم ، يقول الله تعالى فى هذا الشأن (**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**) (٣).

ب –حماية البيت الحرام

فالمعروف أن الله سبحانه وتعالى قد حمى بيته ممن أرادوا النيل منه من يوم قيامه ، ومن أبرز الأمثلة لحمايته تعالى للبيت العتيق منع

---

(١) آل عمران ، الآية ٩٦ .

(٢) البقرة ، الآية ١٢٧ .

(٣) سورة الحج ، الاية ٢٧ ، ٢٨ .

أصحاب الفيل بقيادة أبرهة الأشرم الحبشي من هدمه ، يقـــول الله تعـــالى :**(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ٠ألم يجعل كيدهم فـــى تضليـــل ٠ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ٠ ترميهم بحجارة من سجيل ٠ فجعلهم كعصف مأكول)** (١)

جـ – أمن أهل مكة٠

عاش أهل مكة فى أمن وسلام دون غيرهم من العرب فـــى بـــلاد الحجاز وغيرها ، وبالأخص منذ عصر زعامة قصى بن كلاب وأولاده من بعده ، فبينما كان القرشيون يعيشون فى أمـــن وســـلام بجـــوار حرمـــهم الشريف، بل وبينما كانت قوافلهم التجارية تروح وتغدو شمالا وجنوبـــا ، وشرقا وغربا فى أمان دونما خوف أو وجل ، كانت القبائل العربيـــة مـــن حولهم لا تعرف طعما للأمن والسلام؛ إذ كانت رحى الحروب دائرة بينـــهم دوما لا تتوقف ، والخطف والسرقة والجور على قوافلهم ديدن لا تترفق ٠

فحبى الله قريشا ومن ساكنوهم فى مكة بالأمن والأمـــان ، وجلـــب إليهم الرزق الوفير يقول الله تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرمـــا آمنـــا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمـــة الله يكفـــرون) (٢)، ويقول الله تعالى أيضا فى سورة القصص : (وقالوا إن نتبع الهدى معـــك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كـــل شـــيئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون)٠(٣)

٢ – دعاء سيدنا إبراهيم لأهل مكة بالأمن والرزق الوفير:فقد دعـــا إبراهيم عليه السلام لسكان مكة بالأمن والرزق الوفير ، وقد اســـتجاب الله

---

(١) الفيل الآيات من ١ ــ ٥
(٢) سورة العنكبوت ، الأية ٦٧ ٠
(٣) سورة القصص ، الأية ٥٧ ٠

لدعاء نبيه حتى أصبحت مكة وعلى الرغم من أنها بقعة صحراوية جرداء مركزا تجاريا هاما فى وسط الصحراء ، كما أصبح أكثر أهلها من أغنياء العرب ، ويقول الله تعالى فى هذا الشأن فى سورة إبراهيم : **(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)**(١)٠

كما أنعم الله على أهل مكة فى عهد قريش برحلتين تجاريتين عظيمتين ، هما رحلة الصيف إلى بلاد الشام ورحلة الشتاء إلى بلاد اليمن، وذلك على يد جد النبى صلى الله عليه وسلم هاشم بن عبد مناف بن قصى، فأصبح يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، ويقول الله تعالى فى سورة قريش : **(لإيلاف قريش ٠ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ٠ فليعبدوا رب هذا البيت ٠ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)** ٠

٣-ظهور زمزم فى مكة عند البيت

وكان ظهور الماء تحت أقدام سيدنا إسماعيل عليه السلام ، والذى عرف بزمزم من أعظم بركات الله من يوم ظهوره وإلى الآن لأهل مكة وكل حجاج البيت الحرام ، وهدية بالغة من الله لأحبائه المجاورين للكعبة الشريفة ولزواره من كل فج عميق ٠

وعلى الرغم من كل هذه الأنعم والبركات العظيمة التى أغدقها الله على أهل بيته وبالأخص قريشا من دون العرب جميعا إلا أننا سنرى كيف أن قريشا قد وقفت زمنا طويلا بصلابة وصلافة ضد الإسلام وضد نبى الإسلام سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) سورة إبراهيم ، الاية ٣٧ ٠

وكانت هـذه الوقفة الحـادة من جانب قـريش ضد النـبى ﷺ وضد الدعوة الإسلامية هى التى أدت إلى تأخر انتشار الإسلام بين العرب حتى كان صلح الحديبـية بين محمـد وبين قريش وذلـك فى السنة السادسة من الهجرة النبوية ثم من بعده كـان فتح مكة ورضوخ قريش للإسـلام وهو ما فتح الباب على مصراعيه لدخول الناس أفواجًا فى الإسلام .

(٣)

فجر الإسلام فى مكة

بينما كان العرب فى أنحاء الجزيرة العربية على هذا الوضع المهين – كما تقدم فى أحاديثنا السابقة – بلا وحدة سياسية تجمع بينهم ، وبـــلا وحدة روحية صحيحة تربط بينهم جميعا ، وبلا وحدة اجتماعية تشد أزر بعضهم ببعض،وبينما كان الفساد مستشريا بين القبائل العربية ، والفرقـة رائدهم ، والمعارك الطاحنة تدور بينهم كالرحى تأكلهم شـــيئا فشـيئا ، والعصبية العقيمة تزيدها اشتعالا . وبينما كـــانت الأصنـام والأوثـان وغيرهما من العبادات الفاسدة هى السائدة فى أنحاء الجزيرة العربيـــة . بين كل هذا الظلام الدامس الذى حط على العالم العربـــى ظـــهر فجـــر الإسلام على يد سيد الخلق أجمعين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١- مولد الرسول الكريم وحياته قبل البعثة

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، صلى الله عليـــه وسلم فى صبيحة يوم الأثنين الثانى عشر (١) من شهر ربيع الأول مـــن عام الفيل ، والموافق لسنة (٥٧١) من أعوام الميلاد ، وكـــان قـــدوم

---

(١) هذا التاريخ هو المعروف والمشهور عند المؤرخين العرب قديما وحديثا وقد ورد فى تاريخ الإسلام السياسى عن المرحوم محمود باشا الفلكى : أن ولادة الرسـول كانت فى صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م ، وهذا حسب التقويم الفلكى ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياســى ، جـــ١ ص٧٥ حاشية ١ .

أصحاب الفيل قبل ذلك للنصف من المحرم فكان بين الفيل وبين مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس وخمسون ليلة (١) ٠

وكان أبوه عبد الله قد مات قبل ميلاده – عليه الصلاة والسلام – بسبعة أشهر ، وكانت وفاته بيثرب أثناء عودته من رحلة تجارية فى بلاد الشام ومن هنا أصبح محمد – صلى الله عليه وسلم – يتيم الأب منذ ولادته بل وقبل ميلاده ، وقد ولد النبى عليه السلام بشعب بنى هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشرا ، واختار للمولود اسم محمد لكى يحمده الله فى السماء ، وأن يحمده الناس فى الأرض وقيل أن آمنة هى التى سمته محمدا كما أمرت بذلك فى منامها (٢) ٠

رضاعته فى بنى سعد : –

وكانت العادة المتبعة عند أهل المدن أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية لسببين :

أولا : ليبعدوا صغارهم الرضع عن أمراض الحواضر ، التى كانت كثيرا ما تصيب الأطفال ، وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم ، لما فى هواء البادية من الصفاء والنقاء ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص١٤٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص١٥٨ ، ١٥٩ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص١٥٥ ، ١٥٦ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ١ ص٤٠١ – ٤٠٨ ٠

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص١٥٩ ، ١٦٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٥٦ ، محمد بن يوسف : سبل الهدى والرشاده جـ١ ص٤٣٧ ، ٤٣٨ ٠

ثانيا : ليتقن صغارهم العربية الفصحى فى مهدهم عن البدو ، وهم بطبيعتهم أجهر صوتا ، وأسلس عبارة ، وأبعد عن الاختـــلاط الألســنة المختلفة كما يحدث فى المدن ٠

وكانت المراضع تأتين من البادية إلى مكة بحثا عن الأطفال الرضع لإرضاعهم . وكانت هناك قبائل مشهورة بهذا العمل ، ومنها قبيلة بنـــى سعد (١) وقد انتظرت آمنة قدوم المرضعات من بنـــى ســعد لــترضع إحداهن ولدها . وفى فترة الانتظار لمرضعات البادية دفعت آمنة بطفلــها الرضيع إلى ثويبة إحدى جوارى عمه أبى لهب . فأرضعته فترة ، كمــا شاركه فى الرضاعة منها عمه حمزة بن عبد المطلب (٢) ٠

وأخيرا أقبلت مرضعات بنى سعد إلى مكة . وكان من الطبيعــى أن تبحث المرضعات عن الأطفال ذوى اليسار طمعا فـــى كـــرم آبائـــهم ، والابتعاد عن الأطفال الفقراء اليتامى إذ لا أمل فى حصولهن على مـــال يرضيهن ٠

وبالفعل عزفت مرضعات بنى سعد عن رعاية محمد الطفل اليتيـــم والفقير أيضا ، وكانت بين هؤلاء المرضعات حليمة بنت أبـــى ذؤيـــب السعدية التى لم تظفر بطفل لإرضاعه ، فكرهت أن تعود إلـــى الباديـــة بغير طفل بينما عادت مرضعات بنى سعد بطفل أو أكثر ، فأخذت لذلــك محمدا بعد إذن زوجها الحرث بن عبد العزى ، المكنى بأبى كبشة ، آملة

---

(١) وهى من بنى بكر بن هوازن من قيسى علان ، سكان شرقى مكة ، ابن حـــزم : جمهرة أنساب العرب ، جـــ١ ص٢٦٤ ، ٢٦٥ ٠

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـــ١ ص١٥٣ ٠

أن يجعل لهما على يديه خيرا وبركة ، وحدث مالم يكن فى حسبانها من أمل بعد أن تسلمت هذا الطفل المبارك ، فما أن وضعته على حجرها حتى در ثدياها ، فروى وروى أخوه ، وكان أخوه لا ينام من الجوع ، وما أن طلبا هى وزوجها لبنا من ناقتهما الكبيرة المسنة لطعامهما حتى در ضرعها درا حافلا بعد أن كان يابسا لا ينتدى بقطرة لبن ، وما أن ركبت إتانها لتعود إلى البادية – وهى تحمل محمدا – حتى سبقت الركب، بينما كانت بالأمس فى مؤخرة الركب (١) .

وما أن عادوا إلى منازلهم فى البادية حتى أصبحت مترعة خضراء بعد أن كانت مجدبة قاحلة ، وإذا بغنمها تمتلئ شبعا ولبنا فتحلب ويشربون ، بينما كان لا يجد غيرها فى ضرع أغنامهم قطرة لبن ، حتى كانوا يقولون لرعيانهم : ويلكم . اسرحوا حيث يسرح راعى ابنة أبى ذؤيب (٢) .

وعلى هذا الحال من البركة التى حلت بحليمة وزوجها بقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سنتين حتى فطم ، فقدموا به على أمه زائرين لها ، ورجتها حليمة أن ترده معها فردته بعد إلحاح منها ، فبقى عندها حتى بلغ حوالى خمس سنوات ، ولما حدثت للرسول الكريم حادثة شق الصدر خافا عليه أبواه من الرضاعة فعادا به إلى أمه (٣) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص١٥٨ ، ١٥٩ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص١٦٢ – ١٦٤ .
(٣) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ١ ص٤٧٣ – ٤٧٦ .

وفاة أمـه وكفالتـه :

ولما صار عمره ست سنوات خرجت به أمه إلى أخواله من بنـى عدى بن النجار بالمدينة لتزورهم ومعها أم أيمن ، فبقيت عندهم شـهرا ، وعند عودتها به إلى مكة توفيت بالأبواء بين المدينة ومكة ، فعادت به أم أيمن إلى مكة ، وسلمته إلى جده عبد المطلب ٠

فكفله جده حتى توفى وهو فى الثامنة من عمره : ثم كفله أبو طالب عمه الشقيق ، وقام برعايته أحسن قيام ، وكان يحبه حبا جما فاق حبـه لأولاده ، ثم لما بلغ رسول الله حوالى الثالثة عشر من عمره خرج أبـو طالب إلى الشام تاجرا ، وأخذه معه لتعلقه به حتى وصـلا بصـرى – قصبة حوران – ، وكان فى هذا البلد راهب اسمه بحيرا فى صومعة له، فلما رأى محمدا ووجد به علامات النبوة بادية بجلاء ، أشار إلى عمـه أبى طالب أن يرجع به ، خوفا عليه من عدو يترصده ، وأخبره أن لـه شأنا ، فرجع به أبو طالب إلى مكة (١) ٠

اشتغاله بالرعى والتجارة

لما عاد محمد – رسول الله – مع عمه أبى طالب من الشام ، لـم يقبل أن يظل عالة على أبى طالب ، وخصوصا وأنه يعلم حقيقة أحـوال عمه المالية ،بالإضافة إلى أن رحلته التجارية هذه لم تكن ناجحة ، وأراد أن يكون له عمل يتكسب منه قوته ويعول نفسه ، ويساعد عمه إن أمكن ، فاشتغل فى بادئ حياته العملية بالرعى . وكان حرفة الأنبياء المفضلـة ، فكان عليه السلام يرعى الغنم لأهله ، ولبعض أهل مكة بالأجر ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص١٦٤ – ١٧١ ٠

واستمر النبى صلى الله عليه وسلم فى اشتغاله بالرعى حتى بلغ مرتبة الشباب ، ولم تعد حرفة الرعى تناسب سنة ، فاشتغل بالتجارة كشباب عصره . فكانت أول رحلة تجارية يقوم بها مع قوافل قريش الذاهبة إلى الشام فى مال السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكانت امرأة مؤسرة تبعث الرجال فى تجارتها .

فقد سمعت السيدة خديجة عن صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه **فبعثت** إليه ، وعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام مع غلامها ميسرة . فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخرج فى مالها مع قوافل قريش ومعه ميسرة . فكانت رحلة تجارية موفقه مباركه حتى ربح لها أضعاف ما كانت تربحه قبل ذلك (١) .

زواجه من خديجة بنت خويلد

لما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الرحلة الموفقة ، حكى ميسرة لسيدته خديجة دقائق ما رآه وشاهده فى محمد عليه الصلاة والسلام ، وعظيم مع سمعه عنه ، فرغبت خديجة فى الزواج منه .

وكانت خديجة فى الأربعين (٢) من عمرها فى ذلك الحين . وكانت امرأة حازمة شريفة النفس ، من أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمن شرفا، وأكثرهن مالا .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) وقيل أنها كانت فى الخامسة والأربعين ، وقيل فى الثلاثين ، وقيل أنها كانت فى الثامنة والعشرين ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٢ ص٢٢٥ .

وقد تقدم للزواج منها كثير من أشراف قومها بعد مــوت زوجــها الثانى (١) . ولكنها أبت أن تتزوج أحدا حتى سمعت ما سمعت عن محمد رسول الله ٠

فعندئذ عرضت خديجة عليه الزواج منها ، فوافق النبى الكريــم ، فخطبها له عمه . وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين عامــا . وعاشا على أتم وفاق حتى توفيت رضى الله تعالى عنـــها فـــى الســنة العاشرة من البعثة النبوية ، ولم يفكر رسول الله فى الزواج بغيرها حتـى توفيت وفاء لها لطيب عشرتها ، وحسن خلاقها ، مع أنه عليــه الســلام كان فى الخامسة والعشرين فى بداية زواجه منها (٢) ٠

أخلاقه ، ودينه :

اتفق جمع المؤرخين : بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم كـــان فى قومه مميزا عن أقرانه بالأخلاق الحميدة وصدق حديثه وأمانته بيـــن قومه ، حتى سموه الصادق الأمين . يقول الله تعالى فى شأن أخلاقه عليه الصلاة والسلام : " **وإنك لعلى خلق عظيم** " (٣) ٠

وكان النبى الكريم أحلم الناس ، وأشجع الناس ، وأعدل النـــاس ، وأعف الناس ، واسخى الناس . وكان عليه السلام أشد النـــاس حيــاء ،

---

(١) تزوجت خديجة أولا : عتيق بن خالد المخزومى ، ثم أبو هالة زراره بن نبـــاش الأسدى التميمى ، وقيل العكس ، وكان له أولاد منهما ، ابن قتيبه : المعــارف ، ص١٣٢ ، ١٣٣ ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ، باب " الخاء " ٠

(٢) محمد بن شاكر الكتبى : عبون التواريخ ، جـــ١ ص٣٧ – ٣٩ ٠

(٣) سورة القلم ، الآية ٤ ٠

وأقربهم تواضعا ، فكان كما قال : "أدبنى ربى فأحسن تأديبا" (١) وكـــان الناس يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم ، ولم يعرف أنه شرب خمرا ، أو أكل من ذبح على النصب ، ولم يحضر فى حياته للأصنـــام أو الأوثـــان عيدا ، ولا احتفالا . بل أنه عليه الصلاة والسلام منذ نعومة أظافره نافرا من هذه المعبودات الباطلة (٢) .

اختلاؤه فى غار حراء :

ولما أخذت سنه عليه السلام تدنو نحو الأربعين ، نشأ لديـــه حــب العزلة بين الفينة والفينة ، وحبب الله إليه الاختلاء فى غار حراء ، فكـان يخلو فيه ، ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارة يتعبد عشر ليال ، وتارة أكثر من ذلك ، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلا حتى يتزود مـن جديد لخلوة أخرى ، ويعود مرة ثانية إلى غار حراء (٣) .

وهكذا استمرت أيامه ولياليه إلى أن جاءه الوحى فى إحـــدى هـــذه الخلوات .

٢- البعثة النبوية

حبب للنبى الكريم العزلة بغار حراء ، يتعبد فيه . ويتأمل عجـــائب الكون وذلك قبل أن يبلغ الأربعين من عمره ، ولما بلغه وهو على هـــذه الحال ، وبينما كان يتعبد بغار حراء إذ جاءه جبريل عليه السلام ، وذلـك فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من الســـنة الحاديـــة

---

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص٣٢ - ٣٦ .
(٢) محمد الخضرى بك : نور اليقين ، ص ١٤ ، ١٥ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص٥ .

والأربعين من ميلاد رسول الله ، والموافق (٦ أغسطس سنة ٦١٠م)(١) وبادره الوحى قائلا : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، فأخذه وغطه بقوة حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارئ ، فأخذه وغطه مرة أخرى بشدة ، ثم أرسله وقال له الملك فى الثالثة : "**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**" (٢) .

وسرعان ما عاد الرسول إلى زوجه خديجة ، وهو يرتجف مما أصابه دون أن يعى حقيقة ما رآه وما سمعه فى غار حراء ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه . ولما ذهب عنه الروع ، أخبر زوجه بما حدث ، وقال لها : قد خشيت على نفسى فهدأت من روعه ، وقالت : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر (٣) .

ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا كبيرا يحفظ الإنجيل ، فقالت له : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فأخبره عليه الصلاة والسلام بما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس – الوحى – الذى نزل على موسى ، ثم قال : ياليتنى فيها جزع – أى شابا قويا – إذ يخرجك قوم . فقال الرسول : أومخرجى هم ؟ فقال ورقة : لم يأتى رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن مات (٤) .

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ص٢٢ ، ٢٣ ، محمد الخضرى بك : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص٢٠ .
(٢) سورة العلق ، الآية ١ – ٥ .
(٣) محمد يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٢ ص٣١٥ ، ٣١٦ .
(٤) ابن عبد البر : الدرر فى أختصار المغازى والسير ، ص٣٤ ، ٣٥ .

٣- مراحل الدعوة الإسلامية

• الدعوة سرا

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يصدع لأمر الله ، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأصنام ، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرا ، حذرا من وقع المفاجأة على قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها ، لذا لم يكن يدعو إلا من كانت تشده إليه صلة قرابة ، أو معرفة سابقة ، وكان أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء زوجه خديجة رضى الله عنها ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ، وأبو بكر بن أبى قحافة ، ثم تم على يدى أبى بكر إسلام عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وتلا هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، والأرقم ابن أبى الأرقم بن عبد مناف .

واتخذ الرسول دار الأرقم (١) مكانا يستخفى فيه من قريش ، ومركزا للدعوة الإسلامية . وقد تم فيه إسلام عدد كبير من القرشيين ، وغيرهم من الموالى والفقراء ، وقد سميت هذه الدعوة دعوة الأفراد ، لأن الرسول كان يدعو كلا من هؤلاء على انفراد ، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفى فيها من أنظار قريش (٢) .

---

(١) دار الأرقم : هى الدار المعروفة بدار الخيرزانه عند الصفا ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد جـ٢ ص٤٣٠ .

(٢) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١ ص٥٢ ، ٥٣ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٢ ص٤٢٨ .

* الجهر بالدعوة الإسلامية

ظل الرسول يدعو الناس إلى الإسلام سرا لمدة ثلاث سنوات ، وكان يصلى هو وأتباعه خفية فى شعاب مكة ، إلـــى أن أمـــره الله بالجـــهر وإظهار دينه ، بقوله تعالى : "**فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشـوكين إنا كفيناك المستهزئين**" (١) وقال تعالى : "**وأنذر عشـــيرتك الأقربيـــن واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برئ ممـا تعملون**" (٢) .

جهر الرسول بأمر ربه بعد نزول هذه الآيات ، وأعلن الدعوة إلـــى وحدانية الله ، ولجأ فى ذلك إلى النداء الذى كان متبعا عند قريش فصعـد إلى جبل الصفا بظاهر مكة ، ثم نادى كل بطن من بطون قريش باسمها، ولما اجتمعوا إليه قال لهم أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريـــد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا . فقـــال : " إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " فقال عمه أبو لهب : تبا لـــك ألـــهذا جمعتنا . فأنزل الله فى أبى لهب وزوجه "**تبت يدا أبى لهب وتب . مـــا أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأتـــه حمالـــة الحطب . فى جيدها حبل من مسد**" (٣) .

٤- موقف قريش من الدين الجديد

واصل الرسول بعد ذلك الدعوة رغم ما لقى فى بداية الأمـــر مـــن معارضة كبار القرشيين له ، الذين آثروا البقاء على دين آبائهم خشية أن يفقدوا مكانتهم بين العرب إذا ما أيدوا الدعوة الإســـلامية ، ولـــم ينكـــر

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩٤ - ٦٤ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ - ٢١٦ .
(٣) سورة المسد ، الآية ١ - ٥

القرشيون عليه شيئا من دعوته حتى عاب آلهتهم وسفه أحلامهم ، فاستاؤوا عند ذلك من جهره بالدعوة إلى وحدانية الله ، خشية القضاء على عبادة الأوثان التى كان وجودها فى الكعبة مصدرا هاما لثرائهم ، ومكانتهم العالية بين العرب ٠

فبدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهورا جليا بعد أن أجمعوا على خلافه ، والوقوف فى سبيل دعوته ، وإيذاء أتباعه ليفتنوهم عن دينهم ، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا ، ولقد لقى نفر من المستضعفين من أتباع الرسول التعذيب والتنكيل الشديد ، ومن هذا النفر عمار بن ياسر وأمه ، وبلال بن رباح ، وخباب بن الأرت ، ولبينة جارية بنى مؤمل ، فمات ياسر من شدة العذاب ، وقتلت سمية أم عمار بيد أبى جهل ، وكانت أول شهيدة فى الإسلام (١) ٠

ولم تفعل قريش بالرسول أول الأمر ما فعلت بالمستضعفين من أتباعه ، وذلك لمكانة عمه أبى طالب وشرفه وجاهه فيهم ، وقد عطف أبو طالب على الرسول ومنعه وحماه ، فاستمر النبى فى الجهر بدعوته لا يرده عن ذلك شئ ٠

ولما رأت قريش أن أبا طالب لم يتعرض لدعوة ابن أخيه بخلاف عطفه عليه وصد الأذى عنه ، سار إليه بعض أشرافهم يسألونه أن يكف عنهم محمدا ، وقالوا له : " إن ابن أخيك قد سب ألهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص٥٧ – ٦٠ ٠

فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه (١)

ثم مضى رسول الله فى دعوته للإسلام حتى اشتد الأمر بينه وبين القرشيين ، فتباعد الرجال ، ودبت الفرقة بين أفراد الأسرة الواحدة ، فمشى القرشيون مرة أخرى إلى أبى طالب ، وقالوا له : (يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله) ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، وبعث إلى الرسول وحدثه فى هذا الشأن ، فظن أنه قد ضعف عن نصرته ومؤازرته ، وقال له : (يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) (٢) .

ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى ، فأقبل رسول الله فقال : اذهب يا ابن أخى فقل ما احببت فوالله ما أسلمك إليهم أبدا .

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه ، مشوا إليه بعمارة ابن الوليد ، وقالوا له : إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ٢ ص٢٦٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ٢ ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

فإنما هو رجل برجل . فقال لهم أبو طـــالب : لبئـس مـــا تسـوموننى أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ! (١) .

ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه ، قام فى أهل بيته بنى هاشـم وبنى المطلب ولدى عبد مناف ، ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابـــن أخيه ، والقيام دونه ، فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حميـــة للجـوار العربى إلا ما كان من أخيه أبى لهب فإنه فارقهم وكان مع قريش (٢).

على أن قبيلة قريش لم تعدل عن موقفها إزاء سيدنا محمد رغبـــــة منها فى المحافظة على نظامها وكيانها ، وتحقيقا لهذه الغاية منوه بتوليـه الملك عليهم إذا كف عن دعوته ، ومهاجمته لأوثانهم ، ولكنه رد عليـــهم بقوله : "إن الله بعثنى رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكـم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى مـــا جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله بينى وبينكم" (٣) .

قريش تستعين بأحبار اليهود

لما رأت قريش أن الجدال الدائر بينهم وبين محمد لم يجد نفعا ، ولم يضعف من نشاط الدعوة الإسلامية ، أخذت تبحث عن وسيلة أخرى لهدم هذا الدين الجديد ، فاتصلت بأحبار اليهود فى يثرب ، وطلبوا منهم رأيهم فى هذا الأمر ، فقال اليهود لوفد قريش : سلوه عن ثلاثة فـــإن أخـــبركم

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـــ١ ص٥٤ ، ٥٥ .

(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـــ٢ ص٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـــ٢ ص٢٩٣ ، ٢٩٤ .

بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يجب فهو متقول . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وعن رجل طواف ، وعن الروح .

فلما ألقيت هذه الأسئلة الثلاث على رسول الله لم يجب عليها من فوره ، ففرحت قريش ، ثم بعد مهلة نزل قوله تعالى فى أمر هذه الأسئلة الثلاثة ، فكان جوابه أن الفتية الذين ذهبوا هم أصحاب الكهف ، والرجل الطواف هو ذو القرنين ، وقال فى الروح : "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (١) .

أثر الإجابة على أسئلة اليهود لدى القرشيين

أنهار القرشيون إثر إجابة الرسول على أسئلة أحبار اليهود ، وأحسوا بلطمة على وجوههم ، بعد أن أعياهم كل السبل فى هدم دين محمد ، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يصبوا شديد غضبهم على أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقبل سفهاء أهل مكة فى تشديد إيذائهم على من تبع دين الإسلام ، ولم يفرقوا فى هذه المرحلة بين المستضعفين وغيرهم، فقد ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا عن دين الله كل من تبعه من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، حتى افتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء ، فلما وقع ما وقع على المسلمين جميعا من إيذاء واضطهاد وتنكيل أمرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالهجرة إلى الحبشة .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ ، وانظر القرطبى : الجامع لإحكام القرآن جـ٥ ص ٤٠٥٣ .

هجرة المسلمين إلى الحبشة

لما رأى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما أصاب أصحابه من البلاء وما هو فيه من الأمن بسبب حماية عمه أبى طالب له ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجروا فى رجب من السنة الخامسة من البعثة النبوية .

وكان المهاجرون فى أول أمرهم إثنى عشر رجلا وأربع نسوة ، وكان على رأسهم الصحابى الجليل عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

ثم تبع هؤلاء أعداد كثيرة أخرى من المسلمين فى الهجرة إلى الحبشة ، وكان على رأسهم فى هذه المرة الصحابى الكبير جعفر بن أبى طالب وابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما وصل المهاجرون إلى أرض الحبشة أكرمهم ملك الحبشة ، وأمنهم وتركهم يعلنون عن ديانتهم ويقومون بشعائر دينهم دون أن يخشوا شرا .

على أن بعض المهاجرين ما لبثوا أن أزمعوا العودة إلى مكة ، وذلك حين شاع بينهم نبأ دخول قريش فى الإسلام ، فلما قدموا إليها تبين لهم عدم حقيقة ما وصلهم من أخبار فى شأن إسلام قريش ، وعندما تكشف لهم حقيقة الأمر وأن قريشا مازالت فى غيها وضلالها وشركها ، وهم على مشارف مكة المكرمة ، دخل بعضهم مكة خفية ، وبعضهم

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص٢٨٦ – ٢٨٨ ، عبد الرحمن أمين صادق أبوراس : الهجرات وأثرها فى مسيرة الدعوة الإسلامية – بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد السادس ، ص٢٩٢ ، ٣٩٣ .

دخلها فى جوار أحد كبار أقربائه ، عدا عبد الله بن مسعود فإنـــه مكـــث قليلا ، ثم عاد إلى الحبشة .

ثم لما اشتدت قريش فى تعذيبها وتنكيلها بالمسلمين ، وبطشت قبائل قريش بذويها من المسلمين ، أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فـــى الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية ، فتتابع المسلمون مـــهاجرين إلـــى أرض الحبشة ، فأكرمهم ملكها على عادته وأمنهم على حياتهم (١) .

وكان عدد من هاجر من المسلمين إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمـانين رجلا وثمان عشرة امرأة ، وذلك سوى من هاجر من أولادهم أو الذيـــن ولدوا بالحبشة (٢) .

رأى مخالف فى أسباب الهجرة إلى الحبشة : -

أجمع المؤرخون المسلمون القدماء على أن هجرة المســـلمين إلـــى أرض الحبشة كان بسبب البلاء الذى نزل على كافة المســلمين عامـــة ، وعلى المستضعفين خاصة ، وعلى الرغم من وضوح السبب كما رأينـــا فى أمر الهجرة إلى الحبشة ، إلا أن بعض المفسرين المحدثين (٣) قـــد خالف هذا الإجماع ، إذ ذهبوا إلى أن الهجرة كانت لإحداث هـــزة فـــى المجتمع المكى ، أو بحثا لقاعدة جديدة للدعوة الإســـلامية ، وقـــد علـــل هؤلاء البعض على رأيهم بأن المستضعفين الذين عذبوا فـــى الله عذابـــا

(١) أنظر فى أمر الهجرة إلى الحبشة ، ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغـــازى والسير ، ص٥٠ – ٥٥ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـــ١ ص٢٩٠ .

(٣) منهم العلامة المرحوم سيد قطب فى كتابه الكبير الجليل " فى ظـــلال القـــرآن ، انظر ، جـــ١ ص٢٩ .

شديدا من أمثال بلال وخباب بن الأرت وعامر بن فهيرة ولبينة جارية بنى مؤمل وزنيرة والنهدية وغيرهم ، لم يكونوا ضمن المهاجرين إلى الحبشة (١) .

والحق أن الرأى قد جانبه الصواب ، ذلك لأن هذا البلاء الذى نزل على المسلمين لم ينج منه سيد ولا مسود ممن تبعوا دين محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ وثبت كل قبيلة من قبائل قريش على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويمنعون من كان تاجرا منهم من التجارة ، ثم فوق ذلك كانوا يعذبون من استضعفوا منهم برمضاء مكة إذا اشتد الحر ، فلم ينج إذاً بعض ذوى العصبيات من المسلمين من أمثال مصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله والوليد بن الوليد بن المغيرة والمقداد بن الأسود وسعد بن أبى وقاص(٢) بل ولا حتى أبى بكر الصديق فى بعض الأحيان حتى كاد أن يهاجر من مكة (٣) .

وقد ذهب مهاجروا الحبشة فيما ذهبنا إليه فى أمر هجرتهم . وقد وضحوا ذلك جليا فى كثير من المناسبات فهذا جعفر بن أبى طالب يوضح أسباب هجرتهم لملك الحبشة بعد أن ذكر له ما كانوا فيه من ضلال ، وما أصبحوا عليه ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

---

(١) ذلك لأن أبا بكر الصديق كان قد اشتراهم من أصحابهم وأعتقهم ، وأصبحوا فى حمايته ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص٧١ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٢ ص٦٨٧ - ٦٨٩ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص٣٢٨ ، ابن عبد البر : اختصار المغازى والسير ، ص٤٣-٤٩ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٣٧٢ - ٣٧٤

"فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادكم " (١) ٠

وهذا – أيضا– عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى السهمى – أحد مهاجرى الحبشة والمنتمى لبيت من أشرف بيوتات قريش ، وكان من الشعراء المجيدين (٢) – يوضح ما لقاه من أذى فى مكة ٠

أيا راكبا بلغن عنى مغلغـــة

من كان يرجوا الله والديـــن

كل امرئ من عباد الله مضطهد

ببطن مكة مقهور ومفتـــون

أنا وجدنا بلاد الله واسعـــة

تنجى من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخزى

فى الممات وعيب غير مأمـــون(٣)

ثم لماذا نذهب بعيد والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه قد ناله البلاء على يد شياطين مكة ، من أمثال أبى جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحرث وغيرهم ، وذلك مع ما كان يظفر به دون سواه من حماية عمه أبى طالب ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٣٣٦ ٠

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٤ ص٢٣٦ ، ٢٣٧ ٠

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، جـ٥ ص١٢٨ ترجمة رقم ١٥٠٧ ٠

ولا ننس فى معرض حديثنا هذا فى أن كثيرا من المستضعفين قــد اشتراهم أبو بكر الصديق واعتقهم ، فنجاهم بذلك عما كـانوا فيــه مــن البلاء٠

وكما أن الهجرة إلى الحبشة لم تكن بسبب إحداث هزة فى المجتمـع المكى ، كذلك لم تكن للبحث عن قاعدة جديدة للدعوة الإسلامية، إذ لــو كان الأمر كذلك لكان أحرى بصاحب الدعوة أن يتقــدم أصحابــه فــى الهجرة إلى الحبشة ، كما أنه كان من المستحيل أن يبحــث رســول الله صلى الله عليه وسلم عن قاعدة جديدة للدعوة الإسلامية خارج الجزيــرة العربية بل وربما خارج بلاد الحجاز ٠

فالدعوة الإسلامية وإن كانت لعموم البشر ولكافة الناس أجمعيــن ، إلا أن مركز إشعاعها كان ولابد كما أراد الله سبحانه وتعالى مــن أرض عربية ، وبين أولئك الناطقين بلغة الضاد ، وكثير من النصوص القرآنية قد أيد ما ذهبنا إليه إثباتا وتأكيدا ، فيقول الله سبحانه وتعالى فــى كتابــه العزيز محددا مركز الدعوة الإسلامية ولغتها وفيمن أرسل إليهم بــداءة : "**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يــوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير**" (١) ويقــول الله تعالى أيضا : "**فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر بــه قومــا لدا**"(٢) ويقول سبحانه : "**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمــة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**" (٣) ٠

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٧ ٠

(٢) سورة مريم ، الآية ٩٧ ٠

(٣) سورة القصص ، الآية ٤٦ ٠

هذه النصوص القرآنية وكثير غيرها لم نذكرها دلت فى وضـــوح على مراكز الدعوة الإسلامية وبدائلها ، وحددت لغة هذه الدعوة والقـــوم الذين يؤمنون بها بداءة ، ثم يحملونها على عاتقهم أمانة إيصالها للبشـــر أجمعين خلفا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا نستطيع أن نقـــول إن الهجرة إلى الحبشة كانت فى ظاهر أمرها وباطنها نتيجـــة صارخـــة للتعذيب والتنكيل والاضطهاد الذى نزل على المسلمين جميعا دون تفريق

أسباب اختيار الحبشة

لم يكن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشـــة دار هجـــرة لأصحابه المعذبين فى الله دون غيرها من المواطن فى الجزيرة العربيـــة أو خارجها عملا عشوائيا بلا تدبر وإمعان نظر ، بـــل إنـــه كـــان مـــن الواضح أن الاختيار جاء بعد ثاقب نظر وعميق معرفة بدقائق الأمور من جانب النبى عليه الصلاة والسلام ، ذلك أنه لم يكن من الممكن أن يبعـــث الرسول الكريم أصحابه المسلمين إلى مواطن بعض القبـــائل العربيـــة ، وهذه القبائل ترفض دعوته بداءة ، إما تمســـكا بشـــركها وكفرهـــا ، أو مجاملة لقريش التى كانت تعتبر منذ عصر قصى بن كلاب زعيمة للقبائل العربية ، وذلك لما لها من فضل وجودها عند البيت الحرام ، وبفضـــــل حمايتها لهذا البيت وإكرامها لكل من يفد إليه منهم فى مواسم الحج .

كذلك كان من المستحيل أن يبعـــث الرســـول الكريـــم أصحابـــه المهاجرين إلى مواطن أهل الكتاب بالجزيرة العربية سواء كـــانوا مـــن اليهود أو النصارى ، وذلك لما بين الجاليتين من تنافس ونزاع حاد ، ولا يمكن لهما وهما على هذا الحال أن يقبلا منافسا ثالثا ، وكان من المستبعد أيضا أن يهاجر المسلمون إلى الحيرة أو الشام أو اليمن ، لما فـــى هـــذه البلاد من التعصب المقيت فيما يعتقد أهلها من أديان ، أو ما ينتحلونـــه

... مذاهب ، وذلك بخلاف أن هذه البلاد كانت أسواقا هامة لتجارة قريش، ومع ما كان بينهما من صلات وثيقة ومصالح متبادلة . لكل هذا استبعد الرسول صلى الله عليه وسلم أيا من هذه البلاد أو الممالك أو البوادى من أن تكون دار هجرة للمسلمين ، حيث لا أمان فيها ولا استقرار ،(١) ومن هنا كان اختيار الرسول الكريم لبلاد الحبشة مكانا لهجرة المسلمين إليها ، وكانت هناك بطبيعة الحال أسبابها الوجيهة فى الاختيار ومن ذلك :

١-بعد الحبشة نسبيا برا وبحرا عن مكة مما جعل المسلمين بعيدين عن متناول يد قريش وبطشهم ·

٢- ما عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ملكها من العدل والصلاح والتسامح ، وقد قال النبى عليه السلام فى هذا الشأن للمسلمين "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق" (٢)·

٣-إذا كنا قد استقصينا فى هذا الشأن أسباب البشر فى المعرفة فلا يمكن أن ننسى أسباب السماء ، وعلى هذا فليس من المستبعد أن الله سبحانه وتعالى قد أوصى إلى نبيه بهجرة المعذبين فى الله من مكة إلى الحبشة ، لعلمه تعالى أحوال بلاد الحبشة وملكها المؤمن المتسامح والعادل ·

سفارة قريش إلى الحبشة لرد المسلمين

اضطربت قريش غاية الاضطراب حين علمت بأمر هذه الهجرة ، إذ رأت أن الإسلام قد بلغ فى نفوس أهله مبلغا كبيرا ، وأن كثيرا من

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ١ ص٨٥ ، ٨٦ ·

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٣٢١ ·

الناس سيسارعون إلى الدخول فيه حين يـــرون أن وجودهـــم بالحبشـــة سينجيهم من عدوان قريش ، فسارعت قريش فى عقد مؤتمر انتهى فيـــه قرارهم إلى إيفاد سفارة من رجلين جلدين إلى النجاشى ليخرجـــهم مـــن بلاده . فاستقر رأيهم على عبد الله بن أبى ربيعه وعمرو بن العـــاص ، ومعهما هدايا وتحف إلى ملك الحبشة (١) ٠

ولما بلغت السفارة أرض الحبشة اتصلت بنجاشى الحبشة ، وطلبت منه رد المسلمين إلى بلادهم ، لكن ملك الحبشة لم يجبها فى طلبها ، فمـا كان من وفد قريش إلا أن وشوا إلى النجاشى أن المسلمين يقولون فـــى عيسى قولا عظيما ، فاستدعى المسلمين إلى مجلسه وزعيمهم جعفر بـــن أبى طالب ، فقال : ما تقولون فى عيسى ؟ ، فتلا عليه جعفر بعض آيات من سورة مريم ، فبكى النجاشى وقال : أن هذا والذى جاء بـــه عيســـى ليخرج من مشكاة واحدة ، ثم التفت إلى سفيرى قريش وقال لهما : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما أبدا – فرجع وفد قريش خائبا (٢) ٠

وظل هؤلاء المهاجرون من المسلمين فى الحبشة إلـــى أن بـــدأت هجرة المسلمين إلى المدينة ، فعاد عندئذ بعضهم لمشاركة إخوانـــه فـــى الهجرة ، وظل الباقون حتى السنة السابعة من الهجرة النبوية ، فعـــادوا فيها وذلك بعد صلح الحديبية الذى تم بين الرسول صلى الله عليه وســـلم وبين قريش وانتشر السلام فى أنحاء الجزيرة العربية (٣) ٠

---

(١) هناك خلاف فى الرجل الثانى الذى سافر مع عمرو بن العاص ، هل هو عبد الله بن أبى ربيعه أم عمارة بن الوليد ، أنظر فى هذا الخلاف ، عبد الرحمن أبوراس : الهجرات وأثرها فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، ص٣١٨ – ٣٢٠ ٠

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص٣٣٥ ، ابن هشام السيرة النبويـــة ، جـ١ ص٣٣٣ ٠

(٣) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشـــاد ، جـــ٢ ص٤٨٨ – ٤٩٢ حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص٩٠ ٠

الرسول يواصل الدعوة فى مكة

دخول حمزة وعمر فى الإسلام :

بينما كان فريق من المسلمين مهاجرا بالحبشة ظل الرسول مقيمـــا بمكة يدعو إلى الله معرضا نفسه لعداوة قريش وخصومتها . وقد أثمـوت دعوته فى هذه الآونة إلى دخول رجلين – عرفا بشجاعتهما وشدة بأسهما – فى الإسلام ، ألا وهما حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطـــاب . وكان لدخولهما أبلغ الأثر فى نفوس المسلمين وبدأ بهما مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية .

فبدخول حمزة الإسلام – وكان إسلامه سابقا لإسلام عمر – كـــف القرشيون عن بعض ما كانوا ينالون من الرسول ، لاعتقادهم أن حمـــزة سيصدهم عنه إذا ما حاولوا التعرض له . كذلك كان لإسلام عمـــر فـــى ذلك الحين أثر كبير فى تقوية شأن المسلمين فى مكة ، إذ كـــانوا قبـــل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، فلما أسلم عمر قـــاتل قريشـــا حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وأصبح مـــن اليســـير علـــى المسلمين الجهر بتلاوة القرآن ، ولم يكونوا قبل ذلك يستطيعون الجـــهر به. وكان بخلاف ذلك لهما أبلغ الأثر فى دخول عدد كبير من أهل مكـــة فى الإسلام اقتداء بهما (١) .

مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب

لما رأت قريش أن مكائدهم التى دبروها للرســـول قـــد أخفقـــت ، أجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، لعلهم يثنون بذلك

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص٣٣٥ .

محمدا من مواصلة دعوته ، فعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملون مع هذين البيتين ، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم من أنفسهم ولا يتجرون معهم حتى يسلموا إليهم محمدا ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة ، فانحاز أثر ذلك بنو هاشم وبنوا المطلب إلى شعب أبى طالب ، فقاموا على ذلك ثلاث سنوات من هلال سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشر منها ، وقيل أن مقامهم بها كانت سنتين حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شئ إلا سرا ، مستخفيا ممن أراد صلتهم من قريش (١) ٠

ولكن نفرا من القرشيين رثوا لما وصل إليه حال بنى هاشم وبنى المطلب فتعاقدوا على نقض الصحيفة ، وإخراجهم من شعب أبى طالب . وكان من هؤلاء النفر زهير بن أبى أمية بن عاتكة عمة الرسول ، وهشام بن عمرو بن ربيعه بن الحارث، وكان ابن أخى نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، ومطعم بن عدى وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف ، وأبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى ، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فاستطاع هؤلاء النفر من نقض الصحيفة بعد أن وقفوا بشدة ضد أبى جهل ومن معه ، وأعادوهم إلى مساكنهم (٢) ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص٢٩١ – ٢٩٤ ٠

(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ٥١ ، ٥٢ ٠

(٤)

بدء فكرة الخروج بالدعوة من مكة

لم يكد يمضى وقت قليل على نقض صحيفة المقاطعة ، وعودة بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين من شعب أبى طالب إلى دورهم ، حتى توفى أبو طالب بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل وقبل أن تهدأ أحزانه عليه الصلاة والسلام لفقد عمه ماتت زوجته خديجة رضى الله تعالى عنها ٠

فلحقت بالنبى الكريم بموتهما مصيبتان ، وفقد بعدهما الأمن والأمان، والراحة والسكن . إذ اغتنمت قريش فرصة موت عمه ، واشتدت فى إيذائها للنبى صلى الله عليه وسلم ، ونالت منه ما لم تكن تطمح من قبل ، فنثر سفهاؤهم على رأسه الكريمة التراب ، وطرحوا على ظهره رحم الشاة وهو يصلى للواحد الأحد ، كما سبوه بأقذع السباب، وغير ذلك من الإيذاء البدنى والنفسى ، مما جعله يلزم بيته ، ويقلل الخروج من داره ٠

يقول رسول الله فى هذا الصدد : "ما نالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب" ، ذلك أنه لم يكن فى عشيرته وأعمامه حاميا له ، ولا مدافعا عنه غيره (١) ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٤١٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص٢٩٤ ٠

ولم يكن موت خديجة رضى الله عنها أقل خطرا علـــى الرســول الكريم من موت عمه ، بل كان لموتها فقد للراحة والسكن ، والوزيـــرة المعاونة ، واليد الحانية التى تزيل عنه عليه الصـــلاة والســـلام آلامـــه وأحزانه ، والبلسم الشافى لكل ما علق به من أسقام ، ويقول النبى الكريم فى شأن زوجته ، ودورها فى حياته : "آمنت بى إذ كفر بـــى النـــاس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وآستنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنـــى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء (١) ٠

ولم تكن آلام الرسول صلى الله عليه وسلم وأحزانه وهمومه فـــى هذه المرحلة بسبب موت كل من عمه وزوجته فقط ، بل كان هناك أمـــر يعد أكثر إلحاحا ، وأعظم خطرا من فقد النبى الأمن والأمان بموت عمه، والراحة والسكينة بوفاة زوجته ٠

وقد تمثل هذا الأمر الخطير فى توقف حركة المد الإســـلامى فـــى مكة، وذلك بعد الحصار الاقتصادى والاجتماعى والدينى التى فرضتـــها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب والمسلمين ، ومن الواضح أن هـــذه المقاطعة العنيفة قد زرعت الخوف فى قلوب المترددين فى الدخول فـــى الإسلام ، وقد سمى الرسول الكريم عامه هذا بعام الحزن ٠

كل هذا البلاء الذى نزل على رسولنا الكريم عقب المقاطعة القرشية فى السنة العاشرة من البعثة النبوية ، من موت كل مـــن أبـــى طـــالب و خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فضلا عن انصراف أهل مكة عن الإسلام وزهدهم فيه ، وسد القرشيون فى وجه النبى كل سبيل للدعـــوة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص١٢٧ ، ١٢٨ ٠

الإسلامية فى مكة ، كل هذا جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر جديا فى ترك مكة ومن فيها ، والبحث عن أرض جديدة ، وقوم آخرين أكثر إقبالا وترحيبا للدعوة الإسلامية ٠

وقرر النبى الكريم بعد هذا التفكير الجدى الهجرة إلى الطائف ٠

الهجرة إلى الطائف

كانت الطائف مدينة عظيمة ، لا تقل شهرة عن مكة ، وتقع قريبة منها على بعد خمسين ميلا [حوالى ١٢٠ كيلو متر] (١) من جنوب شرقيها ، وعلى مرتفع من الأرض فى جبل غزوان ، وامتازت بخصوبة تربتها ، حتى قيل بأنها قطعة من بلاد الشام انتقلت إلى بلاد الحجاز ، وبسبب جوها اللطيف كانت الطائف مصيفا لأهل مكة ، كذلك كانت الطائف مركزا تجاريا هاما ، إذ كان يمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها ، ومن اليمن إلى العراق ٠

وبطبيعة الحال كانت هناك علاقات وطيدة بين قريش وثقيف – سكان الطائف – فأثرياء مكة كانت لهم عقارات بها ، كما أنهم كانوا يقرضون أهلها ما يحتاجون إليه من مال . ونتيجة لما بلغته الطائف من مكانة وأهمية وشهرة كانت تقرن بمكة ، فيقال : المكتين ، والقريتين . وقد وردت هذه التسمية فى قوله تعالى : "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" (٢) ٠

---

(١) محمد رضا : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ص١١٣ وحاشية ١ من نفس الصفحة ٠

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٤٣ ٠

أسباب اختيار الطائف :

لم يكن اختيار مدينة الطائف من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم لنقل مركز الدعوة الإسلامية اختيارا عشوائيا ، بل كان ولابد أن يكون لهذا الاختيار منطقه وأسبابه الوجيهة . وهى :

١- كان النبى عليه الصلاة والسلام مأمورا من قبل الله سبحانه وتعالى بتبليغ الدعوة – فى بداية الأمر – فى مكة ، وما حولها من القرى . يقول الله تعالى فى هذا الشأن : "**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها** " (١) ولما كانت الطائف أقرب المدن إلى مكة – كما رأينا – أصبحت أولى من غيرها من المدن فى دعوة أهلها للإسلام ٠

٢- كانت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ثقيف – سكان الطائف – صلات رحم لأنهم كانوا بمثابة أخواله ، إذ أنهم كانوا أولاد عم لبنى سعد بن بكر من هوازن (٢) ، الذى رضع فيه النبى الكريم فى طفولته . وكان النبى عليه الصلاة والسلام يأمل أن تكون هذه الصلة عاملا فى تقبل دعوته ، وحمايته من قريش ونصرتهم له ٠

وإذا قال قائل : لماذا لم يهاجر الرسول إلى يثرب وبها أخواله من بنى النجار من الخزرج ؟ نقول : إن يثرب كانت بعيدة جدا بالنسبة للطائف حيث أنها تقع فى شمال مكة على بعد حوالى

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٢ ٠

(٢) وكان ثقيف من بنى منبه بن بكر بن هوازن ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، جـ١ ص٢٦٤ – ٢٦٦ ٠

٥٠٠ كيلو مترا . وذلك بخلاف أن يثرب كانت تسكنها عدد من القبائل اليهودية الحاقدة على الإسلام ، وبالإضافة إلى أن العداء كان مستحكما فى يثرب بين الأوس والخزرج منذ زمن بعيد ٠

٣- كانت مدينة الطائف تمثل المركز الثانى للقوة والسيادة فى بلاد الحجاز ، بعد مكة المكرمة ، ومن الطبيعى أن يتجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن ترك أولى مدن الحجاز وأقواها ، حتى يستفيد من قوتها وسيادتها فى أرض الحجاز ٠

٤- كان التنافس الدينى قويا بين كل من أهل مكة والطائف ، فإذا كانت قريش تقدس – هبل والعزى – فلثقيف أيضا إلههم الذى يقدسونه وهو – اللات – وإذا كان لقريش بيت وحرم فالثقفيون أيضا قد أقاموا بيتا وحرما حول اللات ، وأحاطوه بنفس مظاهر التقديس التى اختصت بها الكعبة الشريفة (١) ، وكان أمل النبى أن يكون هذا التنافس عاملا لدخولهم فى الإسلام

٥- ويمكن أن نضيف إلى ما تقدم بأن هذه الهجرة ربما كانت من النبى صلى الله عليه وسلم عملا بقوله تعالى : "يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون "(٢) فإذا ضاقت أرض مكة بهذه الدعوة المباركة ، وضاقت برسولها ، فإن أرض الله واسعة لا يحدها حدود ٠

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الأصنام ، ص١٦ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ص٤ ٠

(٢) سورة : العنكبوت ، الآية ٥٦ ٠

الهجرة وأحداثها :

لما استقر رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فـــى الـــهجرة إلـــى الطائف، اختار مولاه زيد بن حارثة لمصاحبته ، ولم يأخذ أحدا غــيره ، ومن الواضح أن الرسول الكريم أراد بذلك أن يجنب المسلمين أخطارا لا يعلمها إلا الله ، فهو مقدم إلى مجهول لا يعرف كنهه ، وإلى هــدف لــم تزل سبله غائبة ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يتجشم أخطار الطريـق بنفسه دون أن يعرض أصحابه لهذا المجهول ٠

وانطلق الرسول ومعه زيد بن حارثة فى أواخر شوال من الســـنة العاشرة من البعثة النبوية إلى الطائف ، ووصل إليها ، ويحدوه أمل كبير فى تحقيق مبتغاة . لذلك لم يتوان عند وصوله عن هدفه ، فسارع إلـــى مقابلة نفر من سادة ثقيف وأشرافهم وعلى رأسهم أخوة ثــلاث ، وهــم عبدياليل ، ومسعود ، وحبيب ، بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفى ٠

ولما جلس إليهم النبى دعاهم للإسلام ، ونصرته فى الله ، والقيـــام معه على من خالفه من قومه ، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يلق منـــهم آذانا صاغية ولا قلوبا واعية ، ولم يجد منهم غير السخرية والاســتهزاء به ، وبما يدعوهم إليه ، فمن قائل : أنه يرمط ثياب الكعبة ، إن كــان الله بعثك بشئ قط ، ومن قائل : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟ ومن قائل : لا أكلمك بعد مجلسك هذا ، لأن كنت رسول الله لأنت أعظم حقـــا مـــن أن أكلمك ، ولان كنت تكذب على الله ؛ لأنت شر من أن أكلمك (١) ٠

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ، ص٦٥ ، ٦٦ ٠

ومع ذلك تحمل الرسول الكريم فوق ما يطيقه بشر ، ومكث بينهم صابرا على الأذى يدعوهم إلى ربه مدة عشرة أيام ، فلما يأس الثقفيون من ذهاب محمد من حيث أتى ، أغروا به سفهاءهم وصبيانهم وعبيدهم يسبونه ، ويصيحون فيه ، حتى اجتمع عليه الناس وأخذوا في رميه بالحجارة من كل صوب ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى تكاثرت الجراحات فيهما، وظلوا يلاحقونه على هذا المنوال إلى أن ألجأوه إلى حائط بستان يملكه قرشيان – عتبة وشيبة ابنى ربيعه – وهما فيه فرجع عندئذ عنه من كان يتبعه (١) فعمد عليه الصلاة والسلام – وقد أنهكه التعب والجراح – إلى ظل شجرة عنب ، فجلس عندها ، وعتبة وشيبة ينظران إليه فتحركت الشفقة فى قلبيهما ، فأرسلا له قطفا من العنب فى طبق مع مولى لهما اسمه عداس ، الذى أسلم بمجرد أن جلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما عرف من الحق . وكان عداس من أهل نينوى بالعراق ، وهو بلد يونس عليه السلام (٢) ٠

ثم انصرف النبى من الطائف بعد يأسه من أهلها ، ومعه مولاه زيد بن حارثة إلى مكة . وعند نخله القريبة من مكة توقف الرسول ، وذلك ليدبر أمر دخوله مكة ، إذ لم تكن عودته عليه السلام سهلا ميسورا ، بعد أن خرج من مكة مغاضبا أهلها ، وملتمسا النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قريش ٠

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١ ص٨٥ ٠

(٢) ابن عبد البر : الدرر ، ص٦٦ ، ٦٧ ٠

ولما اهتدى النبى إلى رأى تحرك من نخلة وتوقف عند (حـــراء) وبعث منها إلى الأخنس بن شريق ، ملتمسا منه الدخول فـــى جـــواره ، فأبى . ثم بعث فى مثل ذلك لسهيل بن عمرو فكان مثل سابقه فى رفضه، وأخيرا بعث أحد الخزاعيين إلى مطعم بن عدى ، فسارع مطعـــم فـــى الإجابة إلى طلبه ، فتسلح بسلاحه ثم أمر أهـــل بيتـــه بحمـــل الســـلاح والوقوف عند أركان البيت ، ودخل الرسول الكريم مكة ، ثم الحرم حيث طاف به ، ولم يستطع عندئذ أحد أن يتعرض له (١) .

ملحوظة :

كثير من كتاب السيرة النبوية من القدماء والمحدثين أطلقوا علـــى هذه الهجرة الخروج ، وتارة السفر ، وتارة رحلة ، وتارة أخرى الذهـاب إلى الطائف (٢) ، ومن الواضح أن هذه المسميات ما كانت ســـتطلق إلا لأن الهجرة لم تكتمل ولم تستمر إلا عشرة أيام أو شهرا على رأى آخر .

ولم يكن إطلاقنا لهذا الحدث بالهجرة إلى الطائف مع مـــن أطلـــق مثلنا(٣) قديما أو حديثا أيضا إلا لأسباب واضحة استندنا عليها ، وهى :

أولا : كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فقد الأمــــن والأمـــان والراحة والسكينة فى مكة المكرمة بعد موت كل من عمه أبـــى طـــالب

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص١٣٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، الطـــبرى : تـــاريخ الرسل والملوك ، ابن سيد الناس: عيون الأثر ، ابن هشام : السيرة النبويـــة ، الندوى : السيرة النبوية وغيرهم .

(٣) رفاعة رافع الطهطاوى : نهاية الإيجاز فى ســـيرة ســـاكن الحجـــاز ، محمـــد الخضرى بك : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين وغيرهما .

وزوجته خديجة بنت خويلد ، وقد رأينا كيف أنه عليه الصلاة والسلام قد أوذى إيذانا بالغا بعدهما ، بعد أن أصر أهل مكة من القضاء على هـــذا الدين وصاحبه ، وأصموا آذانهم ، وأغلقوا عقولهم وبصيرتـــهم ؛ فكـــان على رسولنا الكريم عندئذ أن يبحث عن بلد آخر غير مكة تكـــون ألـيــن وأحن للدعوة الإسلامية ٠

ثانيا : من الواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هاجر إلـــى الطائف لأغراض ثلاثة ، وهى :

أ – دعوة ثقيف للإسلام

ب – التماس النصرة من ثقيف على قريش ٠

جـ – طلب المنعة بهم من قومه ٠

فإذا كانت هجرة الرسول الكريم من مكة إلـــى الطـــائف لالتمـــاس النصرة من ثقيف والمنعة من قريش ، أيعقل بعد ذلك أن يعود إلى مكـــة بالسهولة التى خرج بها منها كمن خرج لسفر أو رحلة ٠

ثالثا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا شك أنه كان يدرك من أول وهلة أن خروجه من مكة كان خروجا بلا عودة . وقد ظـــهر ذلـــك جليا أثناء عودته عليه الصلاة والسلام من الطائف إلى مكة ؛ إذ شرع فى البحث عمن يجيره ويمكنه من دخول مكة ، ولو لم يكن الرسول مدركـــا صعوبة عودته إلى مكة منذ خروجه منها ، لدخل مباشرة فى مكـــة دون انتظار لمن يجيره من قومه ، ويحميه من عشيرته ٠

رابعا : لم تكن عودة النبى عليه الصلاة والسلام عوده اختياريـــة ، بل كان مرغما للعودة إليها ؛ وذلك بعد الأحداث المؤلمة التى لقيها فـــى الطائف من ثقيف ، ولم يكن لديه اختيار آخر . ولو كانت ثقيف استجابت لدعوة محمد عليه السلام ، ووافقت على نصرته ، ومنعته من قريش لمـا عاد النبى إلى مكة ، ولأصبحت الطائف دار هجرته بدلا من يثرب لـولا قضاء الله وقدره .

وأعتقد بعد سردنا لهذه الأسباب أن نية الهجرة من مكـــة وتركـــها كانت معقودة فى أعماق رسولنا الكريم منـــذ أن نـــوى مغـــادره مكـــة المكرمة .

نتائج هجرة الرسول للطائف

لم تكن محنة الطائف هجرة بلا ثمار البتة بل تولدت من أعماق هذه المحنة الأليمة التى نزلت برسول الله ثمار عظيمة ، سواء كانت معنوية ، أو مادية وهى :

١- **إسلام عداس :**

مولى عتبة بن ربيعه على يد رسول الله . وهو الغريب ، المولى ، العجمى ، وذلك لما عرف من الحق ما لم يعرفه أولئك العرب من الثقفيين . حتى ولو كان إسلامه عملا من قبل الله تعالى لرفع الروح المعنوية للرسول ، إلا أنها تعد مع ذلك ثمرة من الثمار الطيبة .

٢- **إسلام الجن :**

فقد اتفق المؤرخون على أن الرسول الكريم قد التقى بنفر من الجن عند وقوفه بنخلة أثناء عودته من الطائف ، يقول الله تعالى : "**قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا**" (١) .

ومن الواضح أن إسلام الجن فى هذا التوقيت ، وبعد محنة الطائف الأليمة كان عملا معنويا من قبل الله لرسوله ، وذلك لتعويضه عما قاساه

---

(١) سورة الجن ، الأية ١، ٢ ، وانظر ، ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ١ ص٤٢١ ، ٤٢٢ .

من إعراض الإنس عن دعوته فألان له قلوب الجـن ، فاستمعوا لـه واستجابوا لدعوته ، وفى كل هذا عظة واعتبار لقوم يتفكرون (١) .

٣- الإسراء والمعراج :

لم يتوان رسول الله – بعد رجوعه من الطائف واستقراره بمكـة – لحظة فى القيام بمهامه فى الدعوة إلى الإسلام ، على الرغم مما تعـرض له هو وأصحابه من أذى القرشيين . ولم يمض غير قليل حتى أسرى الله برسوله الكريم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من الصخرة المقدسة إلى سدرة المنتهى ، وفرضت عليه فـى تلـك الليلـة الصلوات الخمسة (٢) .

ودون شك كان الإسراء والمعراج تكريما مـن الله تعـالى لـه ، وتجديدا لعزيمته ، وثباته بعد الذى عاناه من قومه ، وخصوصا بعد وفـاة زوجه وعمه ، ثم كان دليلا على أن هذا الذى لاقاه ويلاقيه رسول الله من قومه ، ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه ، أو أنه قد غضب منه ، وإنمـا هى سنة الله مع محبيه ومحبوبيه . وهى سنة الدعوة إلى وحدانيـة الله ، ونبذ الشرك فى كل عصر وزمن (٣) .

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطى، فقه السيرة ، ص١١٢ .

(٢) هناك خلاف فى ضبط تاريخ هذه المعجزة ، هل كان فى العام العاشر من بعثتـه عليه السلام ، أم بعد ذلك ، البوطى : فقه السيرة ص١١٥

(٣) البوطى : المصدر السابق ، ص١١٥ – ١٢٢ .

٤- **دعوى المواسم** :

فكر الرسول – بعد أن يئس من القرشيين – فى التحول بدعواه عن مكة وعن أهلها . فجرب – كما رأينا – الهجرة إلى الطـــائف ، فوجـد أهلها أكثر صلفا ، وأشد عداوة ، وأعظم خطرا ، فعاد إلى مكـــة ليجـد نفسه غريبا بين قومه وأهله وعشيرته ، حتى دخلها تحت ظـــل جــوار مطعم بن عدى ، ومع ذلك لم يدخل اليأس فى قلب نبى الله عليه الصـــلاة والسلام ، فإذا كان قد يئس من المكيين ، وفقد الأمل فى الطائفيين ، فلـــم تنته الدنيا عند حد قريش وثقيف ، وخصوصا وأن البيت الحرام محـــط توافد القبائل العربية إليه فى مواسم الحج ، ومن هذا المنطلق بدأ يعمـــل الرسول على الاجتماع بالقبائل العربية المختلفة والأفراد فى مواسم الحج، فكان يقدم نفسه إليهم ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويقول لهم : من رجـــل يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإن قريشا قد منعونـــى أن أبلغ رسالة ربى .

وكان عمه أبو لهب يسير خلفه ويقول لمن يلتقى بـــهم الرســول ، ليصرفهم عنه : يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تســـلخوا الـــلات والعزى من أعناقكم بخلاف ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه (١) .

وقد التقى رسول الله فى هذه المرحلة من دعوته بكنـــدة فدعـــاهم للإسلام وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه ، ثم أتى بنى كلب ، فلم يقبلـــوا منه ما عرض عليهم ، ثم عرض نفسه على بنى حنيفة ، فلم يكن أحد من

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق١ ص٤٢٣ .

العرب أقبح عليه ردا منهم . ثم أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعـــاهم إلى الإسلام ، فقال رجل منهم : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريــش لأكلت به العرب ، ثم قال لرسول الله : أرأيت إن نحن بايعنـــاك علـــى أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر مـــن بعــدك ؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنهدف نحورنا للعــوب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك ، فـــأبوا عليه (١) .

---

(١) ابن هشام : المصدر السابق ، ق١ ص٤٢٤ ، ٤٢٥ .

الهجرة الكبرى

مقدمات الهجرة :

١– لقاء الآمال :

ووسط هذه اللقاءات التى تمت بين رسول الله ، وبين وفود القبائل العربية ، وبعض أفرادها ، والتى لم تبشر فى رمتها بخير ، تلاقت الآمال بلقاء رسول الله مع عرب يثرب (الأوس ، والخزرج) .

وكان الأوس والخزرج – وهم سادات يثرب – يسمعون من حلفائهم يهود يثرب أن نبيا سيبعث فيهم ، ويتوعدونهم به إذا حاربوهم . وكان أول من تقابل معهم الرسول وفد الأوس ، وفيهم إياس بن معاذ ، وذلك قبل يوم بعاث الذى تم بين الأوس والخزرج ، وقد حضر الوفد لعقد حلف مع قريش ضد الخزرج . ولما قابلهم رسول الله دعاهم إلى الإسلام . فقال إياس بن معاذ ، وكان أحدثهم سنا : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . لكن الوفد لم يهتموا بدعوة الرسول قدر اهتمامهم بالحلف مع قريش ، إلا أنهم عادوا إلى يثرب دون أن ينجحوا فى مسعاهم (١) .

وفى موسم الحج الذى تلى يوم بعاث فى السنة الحادية عشرة من البعثة خرج الرسول الكريم كعادته فى كل موسم يعرض نفسه على قبائل العرب وبينما كان عند العقبة بمنى لقى ستة نفر من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم آيات القرآن الكريم فنظر بعضهم إلى بعض ، وقالوا : تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم يهود فلا يسبقنكم إليه . وكان

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١ ص٨٩ .

اليهود كما قلنا إذا وقع بينهم وبين عرب يثرب نفرة أو قتال قالوا لـــهم : إن نبيا مبعوث الآن قد أطل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فأجاب هؤلاء النفر من الخزرج إلى ما دعاهم رسول الله إليه مـــن الإسلام وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل مـــا بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلـــى أمـــرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليـــه فلا رجل أعز منك (١) .

ثم انصرف هؤلاء النفر عائدين إلى بلادهم بعد أن آمنوا وصدقـــوا ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم أمر رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم ، فلم يبق دار مـــن دور عرب يثرب إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

٢ – بيعة العقبة الأولى:

فى الموعد المحدد للموسم التالى وقبل الهجرة النبوية بسنة وحوالى ثلاثة أشهر وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وتقابلوا مع الرسول عند العقبـــة بمنـــى ، وبايعوه على الإسلام ، وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، كمـــا عرفت كذلك ببيعة النساء (أى على نمط البنود التى يبايع عليها النساء)، أى أنه لم يبايعهم على الحرب والجهاد .

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص١٣٠ .

(٢) الذهبى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٣٠ .

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ليعلمهم القرآن ، ولم يمض عام حتى أصبح كل أسرة من عرب يثرب تضم فريقا ممن دخل فى الإسلام على يد مصعب بن عمير (١) .

٣- بيعة العقبة الثانية

فى موسم الحج الموافق للسنة الثالثة عشر من البعثة وفد إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من يثرب ، من المسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثا ، وعلى رأسهم شيخهم مصعب بن عمير ، وبرفقتهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك .

ولما استقر وفد مسلمى يثرب بمكة أرسلوا سرا إلى رسول الله يواعدونه المقابلة عند العقبة ، فلما انتهى أمر الحج ومشاعره ، وحان الموعد للعودة ، خرج المسلمون من رحالهم متسللين ، بعد انقضاء ثلث الليل حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة ، فوافاهم رسول الله عندها ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له .

فلما جلسوا كان أول المتكلمين العباس بن عبد المطلب ، فأثنى على ابن أخيه ، وذكر أنه فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، على أنه أبى إلا الانحياز إليكم ، وطلب منهم أن يتدبروا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له ، وحمايته ممن يخالفونه ، واختتم حديثه قائلا : وإن كنتم ترون

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١ ص٨٩ - ٩٢ .

أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فــي عز ومنعة فى قومه وبلده (١) .

وعند ذلك قال أهل يثرب لرسول الله : خذ منا لنفسك ولربـك مــا أحببت فتكلم رسول الله : فبدأ بتلاوة القرآن ، ثم دعا إلى الله ، ورغـــب فى الإسلام ، ثم قال : "أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نســاءكم وأبناءكم . فأخذ البراء بن معرور – أحد سادة الخزرج – بيد رسول الله، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منـــه أزرنــا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة (السلاح)، ورثناه كابرا عن كابر ، فاعترضه أبو الهيثم بن التيهان ، وقال لرســول الله : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال – أى اليهود – حبـــالا وإنــا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلـــى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول ، ثم قال : الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنــا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

وحينئذ سارع البراء بن معرور وضرب على يده عليـــه الصــلاة والسلام مبايعا ، ثم بايعه الحاضرون جميعا بعد ذلك .

ثم طلب الرسول منهم أن ينتخبوا من بينهم اثنـــى عشــر نقيبــا ، ليكونوا كفلاء على قومهم ، فانتخبوا تسعة من الخزرج ، وثلاثـــة مــن الأوس (٢) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٣ ص١٥٨ .

(٢) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١ ص٩٣ ، ٩٤ .

ولما تمت المبايعة بينهم وبين رسول الله ن وتم انتخاب الرؤساء عادوا إلى رحالهم بين قومهم من الأوس والخزرج سرا ، لكن قريشا قد علمت بأمر هذه المعاهدة ، فأتت إليهم في الصباح جلة قريش ، وقالوا : يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث مشركوا الخزرج يحلفون بالله : ما كان من هذا شئ وما علمناه . وقد صدقوا فى قسمهم لأنهم لم يعلموا شيئا مما حدث ، وسكت المسلمون وهم ينظرون بعضهم إلى بعض ، وقال عبد الله بن أبى بن سلول وكان فى صفوف مشركى الخزرج : هذا باطل ، ما كان هذا ، وما كان قومى ليفتاتوا على بمثل هذا ، لو كنت بيثرب ما صنع قومى هذا حتى يؤامرونى (١) ٠

فلما انفصلت قافلة أهل يثرب عن مكة فى اتجاههم إلى يثرب تحقق القرشيون من هذا الأمر ، فخرجوا فى طلبهم ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر ابن عمرو ، فأعجزهم المنذر ومضى ، وعندما لحقوا بسعد قالوا له : أنت على دين محمد ؟ قال : نعم ، فربطوا يديه إلى عنقه ، وجعلوا يسحبونه من شعره ويضربونه ، حتى أدخلوه إلى مكة وعندئذ استغاث سعد بن عبادة بمطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، وكان يجير لهما تجارتهما ، ويمنع ممن أراد ظلمهما فى بلاده ، فجاء مطعم والحارث فخلصاه من أيدى قريش ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص٣١٢ ٠

ولم يكد يتشاور اليثربيون فى الكرة على مكة حتى ظهر سعد بن عبادة ، فرحلوا إلى يثرب (١) .

٤ – هجرة المسلمين إلى يثرب :

لما تيقن القرشيون من أمر المبايعة التى تمت بين رسول الله ، وبين مسلمى أهل يثرب من الأوس والخزرج ، اضطربوا لذلك اضطرابا شديدا ، وهلعوا لهذا الأمر الجلل هلعا بالغا ، ولم تجد قريش أمام ما أصابها من اضطراب وهلع وغضب عارم سوى أن تصب شديد آذاها على المسلمين فى مكة دون تمييز ، أو تدبير .

وإزاء هذه الشدة التى واجهت بها قريش أصحاب رسول الله ، أذن رسول الله لهم بالهجرة إلى يثرب ، وقال لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ، ودارا تأمنون بها .

فهاجر المسلمون من مكة إلى يثرب أرسالا ، رجالا ونساء حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب وبعض أقرباء الرسول ، ثم من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين .

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله إلا متخفيا غير عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فإنه لمّا هم بالهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وأمسك فى يده أسهما ، وفى الأخرى عصاه ، ثم مضى قبل

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق١ ص٤٤٨ – ٤٥٠ .

الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا مطمئنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف وقال : شاهت وجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يثكل أمه ، أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته ، فيلقنى وراء هذا الوادى ومضى فى سبيله فلم يستطع أحد من مشركى قريش أن يتبعه ، بل تبعه بعض المستضعفين من المسلمين محتمين به(١) .

وبعد أن هاجر المسلمون ، أعد رسول الله جهازه منتظرا أمر السماء بالخروج إلى يثرب ، كما أعد أبو بكر جهازه أيضا منتظرا أمر رسول الله .

٥- المؤامرة والهجرة النبوية :

ولما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ، ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وتأهبه أيضا للهجرة اجتمع أشرافهم وذوو السن منهم بدار الندوة يتشاورون فى أمر محمد ، فاتفق رأيهم على قتله قبل أن يفر بدينه إلى يثرب ، ويلحق بأصحابه ، فأعلمه الله بخبرهم ، فذهب إلى صديقه أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة ، فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ، ثم هيأ ما يلزم لهذا السفر .

وفى الليلة التى اتفقت فيها قريش لقتله أمر الرسول على بن أبى طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد فى وجوده ، ثم خرج

---

(١) الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٣ ص٣١٥ ، ٣١٦ .

وفتيان قريش حول بابه دون أن يشعروا به ، وقابل أبا بكر ومضى بــه إلى غار بجبل ثور على ثلاثة أميال من مكة (١) ، ومكثا فى الغار ثلاثة أيام، حتى يئست قريش من وجودهما فــى مكــة أو حولــها ، فخرجــا مسرعين إلى يثرب مع دليلهما عبد الله بن أريقط ، الــذى ســلك بــهما طريقا غير مألوف لقريش حتى وصلا قباء بجوار يثرب ، فنزل الرسول على بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم أربعة أيــام ، وأســس بقبــاء مسجدا، فكان أول مسجد أقيم فى الإسلام .

ثم خرج رسول الله من قباء فى يوم الجمعة ١٢ ربيــع الأول مــن السنة الأولى للهجرة النبوية (والموافق ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢م) شــطر يثرب ، فلما أدركته الصلاة فى الطريق صلى بالناس الجمعة لأول مــرة فى بنى سالم ، وكان الرسول قد أذن بالجمعة قبل أن يــهاجر فصلاهــا الصحابة من قبل بالمدينة ولم يتمكن رسول الله أن يصليها بمكة (٢) .

ثم ركب رسول الله على راحلته بعد صلاة الجمعة متوجــها إلــى يثرب ، وكان كلما مر على دور من دور الأنصار يدعونه إلــى المقــام عندهم ، فيقول : خلو سبيلها (يعنى ناقته) فإنها مأمورة ، ولم تزل ناقته سائرة به حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت فى مربد لغلاميــن يتيمين من بنى النجار (٣) ، ثم نزل رسول الله عنها ، ونزل ضيفا علــى

---

(١) وغار الثور تقع جنوبى مكة ، صفى الدين بن عبد الحق : مراصــد الإطــلاع جــ١ ص٣٠٢ ، حسن إبراهيم تاريخ الإسلام ، جــ١ ص٩٩ .

(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جــ٣ ص٤٧٧ - ٤٨٤ .

(٣) هما سهل وسهيل ابنا رافع بن عمرو من بنى النجار ، وقيل عن **المسجد** ووالد سهيل وسهيل غير ذلك ، ابن هشام : السيرة النبويــة ، ق١ ص٤٩٥ ، ٤٩٦ ، الصالحى : المصدر السابق ، جــ٣ ص٤٨٥ ، ٤٨٦ .

أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، واشترى الرسول المربد بعشرة دنانير ، وأمر أن يبنى فى مكانه مسجدا للمسلمين ، وبنى إلى جانبه مساكنه التى انتقل إليها بعد سبعة أشهر قضاها ضيفا على أبى أيوب الأنصارى .

ولما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم بشر كثير ممن أراد الله هدايتهم ، كما انضاف إلى اليهود أناس من الأوس والخزرج(١)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق١ ص ٥٠٠ ، ٥١٣ .

الباب الثانى

قيام المجتمع الإسلامى
فى المدينة
وموقف الرسول من أعداء الإسلام

(١)

المدينة المنورة وسكانها

يثرب قبل ظهور الإسلام

كانت المدينة المنورة تسمى حتى الهجرة النبوية الشريفة بيـــثرب ، وقد سميت باسم أول من سكنها ، وهو يثرب بن قانية ، من ولـــد نــوح عليه السلام وتقع مدينة يثرب شمال مدينة مكة على بعد حوالـــى (٥٠٠ كيلو متر) ويحدها شمالا جبل أحد ، ويمتاز معظم أراضيها بخصوبـــة التربة ، وكان لذلك أثره فى الازدهار الزراعى بها (١) ٠

وسكن يثرب فى أول أمرها العماليق ، ثم تغلب عليهم بعض القبائل اليهودية ، واستوطنوا بها ، وكان منهم قبيلـــة بنـــى قينقـــاع (٢) كمـــا استوطنها بعض العرب أيضا ٠

وفى القرنين الأول والثانى الميلاديين نزح إلى يثرب أيضا عدد من القبائل اليهودية الذين فروا من سوريا ، وذلك أثر اضطهاد الرومان لهم، وطردهم منها . ومن هذه القبائل اليهودية التى نزلت يـــثرب فـــى هـــذه الآونة ، واستقرت بها كانت قبائل بنى قريظة ، وبنى النضير ،

وقد اختلط اليهود بالعرب المقيمين بيـــثرب ، وتـــأثروا بنظمـــهم الاجتماعية ، فعاشوا معيشة قبلية ، واستحالت أسماؤهم – لشدة تـــأثرهم

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، باب يثرب ٠

(٢) بدر رشاد الدوبى : المدينة المنورة عبر التاريخ ، مقال فى مجلة الحـــج بمكـــة المكرمة السنة الثالثة والخمسون ، الجزء التاســـع ربيـــع الأول ١٤١٩هـــ / ١٩٩٨م.

بالعرب – إلى أسماء عربية ، حتى أنهم قرضوا الشعر بالعربية بل ونبغ منهم بعض الشعراء كالسموئل بن عادية ، وكعب بن الأشرف .

وكان لليهود أثر بعيد المدى فى الحياة الاقتصادية بيثرب كما هـو عادتهم فى النبوغ فى المعاملات المالية أينما حلوا ، فقبضوا بأيديهم على ناصية المال بيثرب عن طريق اشتغالهم بالتجارة وعنايتـهم بمرافقـها ، واهتمامهم بالزراعة فى ضياعهم الخاصة ، كما برعوا إلى جانب ذلـك فى صياغة الذهب ، وصناعة الأسلحة والآلات الزراعية ، وقد اشـتهرت قبيلة بنى قينقاع اليهودية بالصياغة حتى أن أحد أسواق يـثرب عـرف باسمهم (١) .

وبعد سيل العرم الذى خرب بلاد اليمن نزح منها ضمن من نـزح قبيلتا الأوس والخزرج ، ونزلوا بيثرب وسكنوها مع من يسـكنها مـن العرب والقبائل اليهودية .

وكانت العلاقة بين اليهود وقبيلتى الأوس والخزرج طيبة فى بـادئ الأمر ، وعقد الطرفان بينهما جوارا ، وحلفا ، يأمن بـه بعضـهم مـن بعض، واشترك الأوس والخزرج مع اليهود فى قوافلهم التجارية ، كمـا اشتغلوا بالزراعة فى ضياعهم .

ولكن عندما لاحظ اليهود ازدياد المال فى يـد الأوس والخـزرج وتكاثرهم فى العدد ، خافوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ؛ فقطعـوا الحلف الذى كان بينهم ، واستبدوا بالأوس والخزرج ، وإثر ذلك اسـتنجد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٢٩٤ ، جمال الدين سرور قيـام الدولـة العربية ، ص٤٩

الأوس والخزرج بالغساسنة أبناء عمومتهم ، فأنجدوهم وتم بذلك انتصار العرب على اليهود ، فآثر اليهود السلامة ، فتركوا للأوس والخزرج حرية الحركة والنشاط (١)٠

كذلك كان الأوس والخزرج على وفاق معا فى بداية عهدهم ثم وقعت بينهما حروب طويلة ، انتصر فى غالبها الخزرج على الأوس ، وكان آخر المعارك التى نشبت بين الطائفتين حرب يوم بعاث قبيل دخولهما فى الإسلام ، وعرفت هذه الحرب بحرب فجار يثرب ، أو فجار الأوس والخزرج ، وقد انضمت فيها القبائل اليهودية إلى جانب الأوس ، بسبب قتل الخزرج رهائن من غلمان اليهود ، وقد انتهت المعركة بانتصار الأوس على الخزرج (٢) ٠

ثم اتفق الفريقان على الصلح ، كما اتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور فى يثرب ، وقد وقع الاتفاق على اختيار عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى لتتويجه ملكا عليهم ٠

وبينما كان الأوس والخزرج يتأهبان لتحقيق ما اتفقا عليه هاجر الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى يثرب ، فدخل عامة الأوس والخزرج فى الإسلام ، ليكونا فريقا واحدا أطلق عليهم : الأنصار ، وعدلوا عن تولية ابن سلول ملكا عليهم ، واضطر بدوره الدخول فى

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٣ ص٤١١ ، ٤١٢ ٠

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى : أيام العرب فى الجاهلية ، ص٧٣ – ٨٤ ٠

الإسلام بعد أن اعتنقه قومه ، وصار على رأس المنافقين فى المدينـــة ، حتى توفى فى السنة التاسعة من الهجرة (١) .

يثرب بعد الهجرة النبوية

أصبحت يثرب بعد هجرة النبى – صلى الله عليه وســلم – إليــها معقل الإسلام ، وأطلق عليه اسم "مدينة النبى" وقد تألف المجتمع الجديـد بالمدينة إثر الهجرة من ثلاث طوائف :

١-المهاجرون : وهم الذين هاجروا إليها من مكة فرارا بدينهم بعد أن سامهم مشركوا قريش سوء العذاب لـــيرتدوا عــن دينــهم الجديد، وليعودوا إلى دين آبائهم القديم .

٢-الأنصار : وهم الذين اعتنقوا الإســـلام مــن قبيلتــى الأوس والخزرج – سكان المدينة الأصليون – وسموا بذلـــك لأنــهم نصروا النبى ووقفوا بجانبه أمام أعداء الإسلام من القرشـــيين وغيرهم .

٣-اليهود : وهم الذين كانوا يسكنون يثرب قبل الهجرة مع الأوس والخزرج وآثروا البقاء على دينهم ، ولم يعتنق الإسلام منـــهم إلا عدد قليل كعبد الله بن ســـلام وإخوانـــه ممــن شــرح الله صدورهم للإسلام .

سياسة الرسول فى المدينة

لم يكتف الرسول – صلى الله عليه وسلم – منذ قدم إلى المدينـــة بنشــر الدعوة الإسلامية فى ربوع المدينة ،وتبليغ ما ينزل به الوحى من الأمور التشريعية ، لكنه اهتم منذ أول وهلة فى وضع الأســس لقيــام مجتمــع

---

(١) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـــ١ ص١٠ .

إسلامى قوى فى المدينة ، وذلك لحمايته من أعداء الدين ، ولتكـون ملاذا حصينا لأتباعه .

فبدأ الرسول أول ما بدأ بتنظيم صفـــوف المـــهاجرين والأنصـــار بالمدينة ، وتوكيد وحدتهم عن طريق تآلفهم حتى لا تثور العداوة القديمـــة بين الأوس والخزرج ، ثم آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة ، وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثا مقدما على القرابة فظل الناس على هذا الإرث إلى أن انقطعت المؤاخاة بعد غـــزوة بـــدر وكـــان الرسول يروم من وراء المؤاخاة ، أن يذهب عن المهاجرين وحشة الغربـة ويؤانسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض (١) .

ثم لما استقر الرسول فى المدينة رأى أن يضع نظاما للحياة العامـة فيها ، يكون أساسا لتحقيق الوحدة بين أهلها فكتب كتابا بيـــن المـــهاجرين والأنصار ، كما عاهد اليهود واشترط عليهم وشرط لهم ، ويتضمن هـــذا الكتاب الأمور الآتية :

١-إن جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم أمة واحدة .
٢-التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية .
٣-تقرير حرية العقيدة " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم " .
٤-فتح الطريق للراغبين من اليهود فى الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق .
٥-وإن ما كان بين أهل هذا الكتاب من حدث ، وإشتجار يخـــاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٣ ص٥٢٧ – ٥٣٣ .

٦-وإنه لا يجير أحد من أهل المدينة قريشا ومن نصرهـــا ، وإن بينهم النصر على من دهم المدينة.

٧-وعند قيام حرب كان على المسلمين نفقتهم ، وعلــى اليــهود نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة(١).

ويظهر لنا من هذه النصوص المستقاة من نصوص الكتـــاب أنــها اتفقت مع الظروف المحيطة بالمدينة ، فسكانها المسلمون من المــهاجرين والأنصار كانوا بحاجة إلى نظام يجمع شملهم ، ويحدد علاقـــة بعضــهم ببعض ، كذلك كان وجود اليهود فى هذا المجتمع يحتاج إلى وضع أســس تضمن العلاقة الطيبة بين كلا الطرفين ، وشعور كـــل طــرف بــالأمن والأمان من الطرف الآخر .

وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد فى تحديد العلاقــات بين الحكومة والرعية من جهة ، ثم بين أفراد الشعب من جهة أخرى .

ولما فرغ الرسول من توحيد كلمة العرب ، وأمن جانب اليهود فــى المدينة حول همه الأكبر نحو قريش فى بداية الأمـــر ، وذلــك لأهميــة القضاء على أهم المناوئين للإسلام ، وأكبر المعارضين لظهور هذا الديــن الحنيف .

تشريع الجهاد وموقف الرسول من أعداء الاسلام :

أقام النبى — صلى الله عليه وسلم — بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل المخالفين له بالتى هى أحسن ،وقد وقفت قريش من هذه الدعوة موقف العناد والمكابرة ، وأذاقـوا المسلمين من الأذى والعذاب ما تقشعر منه الأبدان ، ونال النبـــى عليــه السلام من سخريتهم واستهزائهم ما يوغر النفس ويستنفد الصبر ، ولكنــه

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

صبر وحث أتباعه على الصبر حتى ضربوا أروع الأمثـال فـى سـعة الصدر وقوة النفس ٠

ولما أمعنت قريش فى أذى المسلمين ، ولم ترع فى معاملتـهم أى حق من حقوق القرابة أو الجوار ، وتجردت عـن الإنسـانية والرحمـة واستعملت أشنع ضروب الوحشية فى معاملة هؤلاء الذين استجابوا لربهم، ولبوا داعى الحق والخير ٠

ولما لم يعد هناك أمل فى أن تثوب قريش إلى رشدها ، وتكف أذاها عن هؤلاء الوادعين المسالمين ، اضطر المسلمون إلى الفرار بدينهم إلـى يثرب حيث وجدوا الأمن والأمان بها ، وحيث وجدوا إخوانا لهم فى الدين يرحبون بهم فى مدينتهم ٠

وهذه المواقف السابقة التى جابهت بها قريش المسـلمين ، حتـى اضطرتهم إلى الفرار من مكة دون بلدهم ، وأهلهم ، ومالهم أيضا ، كانت تستدعى استخدام القوة لردع هؤلاء القرشيين الذين بلغـوا حـد التجـبر والصلف والعناد ٠ ومن هنا نزل التشريع السماوى للمسلمين بالجـهاد ، وذلك لأمور أهمها :

١- **الدفاع عن النفس :** وقد نزل فى هذا المعنى كثير من الآيـات نكتفى منها بهذه الآية ، وهى أول آية نزلت فى تشريع الجـهاد فى القرآن :" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـوا وإن الله علـى نصرهم لقدير ٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حـق إلا أن يقولوا ربنا الله "(١)

---

(١) سورة الحج ، الآية ٢٢ ٠

٢- **الدفاع عن الدعوة :** بتأمين طريقها وحماية معتنقيها من الاضطهاد والظلم والإكراه على الرجوع فى الشرك ، كما حدث لعمار بن ياسر وأسرته ، وبلال بن رباح ، وغيرهم قبل الهجرة وما حدث للمستضعفين الذين حالت قريش بينهم وبين الهجرة وبالغت فى تعذيبهم ، لتفتنهم عن دينهم حتى تضرعوا إلى الله طالبين الخلاص مما هم فيه من محنة

وفى هذا المعنى نزل قوله تعالى :" **ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا**"(١) .

وفى هذا أبلغ رد على أولئك المضللين الذين يزعمون أن النبى عليه السلام أكره الناس على الدخول فى الإسلام ، وحملهم على قبول دعوته بحد السيف ، ولو كان الأمر كذلك لما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم دينا آخر غير الإسلام على هذا النحو فى أمن وسلام فى المدينة المنورة وذلك فى بدء قيام الدولة الإسلامية الناشئة ، فى وقت يتحتم فيه على أية دولة ناشئة أن تستخدم لتأمين نشأتها والحفاظ على مبادئها وأفكارها الجديدة كل الطرق بما فيها القوة والعنف حتى تردع منذ البداية كل من تسول له إعاقة قيامها والخروج عن مبادئها وأهدافها المرسومة .

وكان أمر القتال فى بادئ الأمر قاصرا على قريش ومن يمالئها فلما اتحدت معهم القبائل العربية واليهودية فى أنحاء الجزيرة ضد الإسلام نزل التشريع عندئذ ، بقتال كافة المشركين الذين وقفوا صفا واحدا فى سبيل الدعوة ، وقال تعالى فى هذا المعنى :" **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين** "(٢) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٦ .

بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش

أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بعد استقراره بالمدينة المنورة ونزول آيات الجهاد - كما ذكرنا آنفا - ، يعد العدة لحماية دينه من أعدائه المتربصين به من كل جانب ، وردع من تسول له نفسه الاعتداء على أرواح معتنقيه ، وكانت الأولوية لهذا الإعداد من قبل رسول الله ضد قريش بطبيعة الحال، لما لها من سابق عداء وعظيم جرم ، وصدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وإخراج أهله من المهاجرين والتآمر ضد رسول الله ، للقضاء عليه ، حتى أخرجوه من بلده ووطنه وعشيرته وقومه ٠

وقد مرت الأحداث بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش في ثلاث مراحل ، وهى :

١- الوقوف أمام تجارة قريش :

بدأت هذه المرحلة بخروج الرسول بنفسه ، أو بإيفاد سراياه لاعتراض قوافل قريش التجارية المارة إلى بلاد الشام ، أو تلك التى تمر إلى بلاد العراق ٠ وكان ذلك لاغتنام تجارتهم حتى يعوض المهاجرين أموالهم التى نهبتها قريش ، ومصادرتها عندما أجبرتهم للهجرة من مكة ، أو لقطع طريق الكسب عن قريش ، وفى هذا وذلك ما يجبر القرشيين إلى اصطدام بالمسلمين ، وهو بطبيعة الحال كان عين ما يريده الرسول عليه

الصلاة والسلام ٠ وذلك بخلاف الرد العملى لتهديدات قريش الكتابية التى وصلت لكل من أهل المدينة والمهاجرين للقضاء عليهم بالمدينة(١)٠

ومن هذا المنطق أرسل الرسول عيونه لاستجلاء أنباء قوافل قريش التجارية ، ثم بعث سراياه ، أو خرج هو بنفسه فـــى غــزوات صغــيرة خاطفة على طريق قوافل قريش التجارية ، وقد أدى ذلك إلى عقد بعــض الأحلاف والعهود بين الرسول وبين القبائل الضاربة على هذا الطريق ٠

وأهم هذه الغزوات والسرايا هى :

أ – سرية حمزة (رمضان سنة ١ هـ) :

كانت أولى السرايا التى بعثها الرسول لاعتراض عير قريش سرية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك فى شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، وقد أمره الرسول أن يعترض عيرا لقريش آتية بتجارتها من الشام تريـــد مكة ، وفيها أبو جهل وثلاثمائة راكب من المشركين ، فخرج حمزة فـــى ثلاثين راكبا من المهاجرين ، وسار حتى بلغ سيف البحـــر مـــن ناحيـــة العيص ، فالتقوا هناك بقريش واصطف الفريقان للقتال ، فتدخل مجدى بن عمرو الجهنى ، وكان موادعا للفريقين ، فمشى بينهما وحال دون قتالــهما وعاد حمزة بمن معه إلى المدينة(٢)٠

ب– سرية عبيدة بن الحارث (شوال سنة ١ هـ) :

وفى شوال بعد ثمانية أشهر من الهجرة بعث النبى عليـــه الســلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فـــى ســتين أو ثمـــانين راكبـــا مـــن المهاجرين ، فلقى عيرا لقريش على رأسها أبو سفيان عند ماء يقال لــه "

---

(١) سنن أبى داود ، باب بنى النضير ٠

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٤ ، ٥ ٠

أحياء " من بطن رابغ فى دار قرب البحر ، فتناوش الفريقـان بالنبـال ، وكان سعد بن أبى وقاص أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، ثـم خـاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين ففروا بعيرهم ، ولجـأ منـهم إلـى المسلمين المقداد بن الأسود الكندى ، وعتبة بن غزوان ، وكانا قد أسـلما سرا وانتهزا الفرصة ولحقا بالمسلمين ورجعوا جميعا إلى المدينة ٠(١)

جـ ـ غزوة ودان (٢) (صفر سنة ٢ هـ) :

وفى صفر من السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله ـ صلـى الله عليه وسلم ـ يعترض عيرا لقريش بعد أن استخلف على المدينة سعد بـن عبادة من الخزرج ، فسار حتى بلغ ودان ـ وهو جبل بين مكة والمدينة ، وبينه وبين الأبواء ست أميال ـ لكن العير سبقته إلى قريش فاتجه إلـى بنى ضمرة ، وكتب مع سيدهم مخشى بن عمرو عهدا على ألا يكـثروا عليه ولا يعينوا عليه أحدا ، وأنهم آمنون على أنفسهم ، ولهم النصر على من رامهم ، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا ٠

وكانت هذه أول غزوة غزاها رسول الله بنفسه ، ورجع إلى المدينة بعد غيبة خمس عشرة ليلة دون قتال ٠

د ـ غزوة بواط (ربيع الأول سنة ٢ هـ) :

وفى ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة علم رسول الله أن عـيرا لقريش آتية من الشام فيها أمية بن خلف ، ومائة من قريش علـى ألفيـن

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص٥٩١ ، ٥٩٢ ، ابن سعد : الطبقات الكـبرى ، جـ ٢ ص ٦،٥

(٢) وتسمى غزوة الأبواء أيضا ، أنظر ، ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦ ، ٧ ٠

وخمسمائة بعير ، فخرج إليها فى مائتين من أصحابه ، واستخلف علـــى المدينة سعد بن معاذ من الأوس ، وسار حتى وصل بواطا — جبل مـــن جبال جهينة — القريبة من ينبع .

ولما علم أمية بن خلف بخبر خروج الرسول مع أصحابه أســـرع بالعير ، ففاتت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقـــد رجـــع ولـــم يلـــق كيدا(١) .

هـ — غزوة العشيرة (جمادى الأولى سنة ٢هـ) :

وفى جمادى الأولى جاء الخبر أن عيرا خرجت من مكة تريد الشام وقد جمعت قريش أموالها فى تلك العير ، حتى لم يبق بمكـــة قرشـــى ولا قرشية إلا كان له مثقال على الأقل فيها ، وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا مسلحا ، فخرج لها رســـول الله واســـتخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وسار حتى بلغ ذا العشـــيرة ببطـــن ينبع، فلم يلحق بالعير فأقام بقية الشهر وبعض ليالى من جمادى الآخـــرة ، وصالح بنى مدلج وحلفاءهم ، ووادعهم(٢) .

وفى مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهط مـــن المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ، ثم رجع(٣) .

و — غزوة صفوان (سنة ٢هـ) :

ولم يمض على رجوع الرسول ومن معه من العشيرة إلى المدينـــة غير قليل حتى بلغه أن كرز بن جابر الفهرى قد أغار على بعض مراعـــى المدينة ، وأخذ ما وصلت إليه يده من الأنعام ، فخرج رســـول الله يتعقبـــه

---

(١) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٢ ص٧ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ .
(٣) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ٧٨ .

حتى بلغ واديا يقال له صفوان من ناحية بدر ، فلم يدرك كرزا لفراره بعد أن خلف وراءه الماشية(١).

ز ـ سرية عبد الله بن جحش (رجب سنة ٢ هـ) :

وفى رجب من السنة الثانية للهجرة بعث الرسول عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين إلى ناحية النجدية وسلمه كتابا ، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين .

فانطلق عبد الله بأفراد جماعته كل اثنين يتعاقبان بعيرا ، وفى أثناء الطريق تخلف سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان ، وكانا زميلين إذ هرب بعيرهما الذى كانا يتعاقبانه ، فأقاما يومين يبحثان عنه حتى عثرا عليه ، وحاولا اللحاق بأصحابهما لكنهما ضلا الطريق .

أما عبد الله بن جحش فقد فض الكتاب بعد يومين كتعليمات الرسول فإذا فيه :" سر حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش ، وتعلم لنا أخبارهم ، ولا تكرهن أحدا من أصحابك على السير معك " .

ولما قرأ عبد الله الكتاب على رفاقه ، قالوا جميعا : سمعا وطاعة . فسار بهم حتى نزلوا بطن نخلة .

وفى أثناء إقامتهم بنخلة مرت بهم عير قريش قادمة من العراق تريد مكة ، وفيها عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخيه نوفل بن عبد الله ، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة ، وقد وافق مرور العير آخر أيام رجب ، فتشاور المسلمون فيما بينهم ، وقالوا أن

---

(١) وتسمى أيضا غزوة بدر الأولى ،أنظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٦٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

حملنا عليهم وأصبناهم فى الشهر الحرام عيرتنا قريش بالقتال فيـــه ، وأن تأخرنا عنهم هذا اليوم دخلوا الحرم فامتنعوا منا ٠

وتغلب رأى القائل بالقتال ، وقام واقد بن عبد الله فرمى عمرو بـــن الحضرى بسهم فقتله ، ثم هجموا عليهم فأسروا عثمان بن عبـــد الله بـــن المغيرة ، والحكم بن كيسان ، واستاقوا العير ، وكانت محملة خمرا وأدمـــا وزبيبا ، وأفلت منهم نوفل بن عبد الله بن المغيرة وهرب فلم يدركوه ٠

فلما قدم عبد الله بن جحش ومن معه المدينة ، وعرف أهلـــها أنـــه قاتل فى الشهر الحرام عابهم اليهود والمنافقون ، وعنفهم المسلمون ، وأنكر رسول الله ما فعلوه ، وفى مكة شنعت عليهم قريش ، فقالت قد أحل محمـــد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدماء ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ، فاشتد ذلك على المسلمين حتى أنزل الله تعالى على نبيه الكريـــم :"**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن ســـبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل** " (١) ٠

ففرح عند ذلك عبد الله بن جحش وجماعتـــه ، وســـرى عنـــهم ، وقسمت الغنيمة ، فأخذ الرسول خمسها لبيت المال ووزع الباقى عليـــهم ٠ ثم أرسلت قريش تطلب فداء أسيريها ، فرفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يرجع سعد بن أبى وقاص ، وعتبة بن غزوان ، اللذان ضلا فى الطريق خوفا أن ينالهما أذى ٠ فلما رجعا قبل النبى الفدية ٠

فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وبقى بالمدينـــة ، وأمـــا عثمان بن عبد الله بن المغيرة فعاد إلى مكة كافرا حتى قتل يوم أحد(٢) ٠

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ ٠

(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ٧٩ ، ٨٠ ٠

وفى هذه السرية سمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين ، فكان أول من سمى أمير المؤمنين فى الإسلام ، كما كان فى هذه السرية أول غنيمة وأول خمس فى الإسلام ، وأول قتل فى الإسلام ، وأول أسير فى الإسلام(١) ٠

وبسرية عبد الله بن جحش تنتهى هذه المرحلة التى تمثلت فى خروج بعض السرايا والغزوات الصغيرة ، والتى انتهت فى غالب أحوالها دون لقاء جدى بين المسلمين وبين أعدائهم من مشركى قريش ، وإن تركت آثارا طيبة فى صالح المسلمين ٠

٢-المسلمون والصمود

أيقنت قريش — أمام هذه المناوشات المتكررة من جانب المسلمين ضد قوافلها التجارية — من خطورة وجود المسلمين فى المدينة ، لأنها رأت فى ذلك خطرا على تجارتها الخارجية ٠ كما رأت أيضا فى انتشار الإسلام خطرا على ديانتها الوثنية ، وعلى سيادتها للكعبة التى كانوا يجنون من ورائها فوائد مادية ومعنوية ٠

ولم تجد قريش بعد تيقنها سبيلا غير سبيل الحرب ضد المسلمين ، أملا فى القضاء على هذه الخطورة البالغة التى لاحت فى الأفق عند المدينة٠

وقامت لتحقيق هدفها بعدة هجمات على المسلمين فى المدينة وقد اشتركت معها فى بعض هذه الهجمات عدد من القبائل العربية مثل ثقيف وغطفان ، وكذلك عدد من القبائل اليهودية وقد بدأت هذه المرحلة بغزوة بدر الكبرى ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٠ ، أبو هلال العسكرى : الأوائل ، ص ٨٤ ، ٨٥ ٠

أولا — غزوة بدر[١] الكبرى — يوم الفرقان — (رمضان سنة ٢هـ)

كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد خـــرج فـــى غــزوة العشير، ليعترض عير قريش الذاهبة إلى الشام ، وعلى رأسها أبو سـفيان ، ولكنه لم يتمكن من اللحاق بها . ثم إن هذا العير وصلت إلى الشام وباعت وابتاعت ، وبدأت فى رحلة العودة إلى مكة فى رمضان ، فعلم رســول الله بخبرها عن طريق عيونه . فانتدب المسلمين فى الخروج إليـــها ، فخـف بعضهم ، وتثاقل آخرون ، لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حربـا. وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلا ٨٣ من المهاجرين ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج[٢] ولم يكن معه من الخيل إلا فرسان[٣] : فرس للزبـير بن العوام ، وفرس للمقداد بن الأسود ، وكان معهم سبعون بعيرا يتعاقبونها

واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبـــا لبابة واستعمله على المدينة .

ويلاحظ أن الأنصار قد خرجوا فى هذه الغزوة ، وذلك على غـير ما حدث فى الغزوات والسرايا السابقة .

ثم بلغ أبو سفيان خروج رسول الله فاستأجر ضمضم بـــن عمــرو الغفارى ، وبعثه إلى مكة مستصرخا قريشا بالنفير إلى عيرهم ، واتخذ هـو طريقا مغايرا عن الطريق المعهود وأفلت بالعير .

---

(١) قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة المنورة ، محمـــد بـــن يوســف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ١٢٠ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص٧٠٦ ، ابن حنبل:السيرة النبوية ، ص ٤٢ .
(٣) وقيل إنه كان لمرثد بن أبى مرثد فرس أيضا ، ابن هشام : السيرة النبوية ق١ ص ٦٦٦ .

ولما سمعت قريش بخروج الرسول لاعتراض تجارتهم هبوا فى الخروج مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبى لهب ، فإنه عوض عنه العاص بن هشام بن المغيرة بجعل ، وكان عددهم يتراوح بين التسعمائة والألف ، فلما نجا أبو سفيان بالعير ، وسمع بخبر خروج قريش أرسل يطلب إليها أن تعود إلى مكة ، لكن قريشا تغلبت عليها الروح الحربية ، فصممت على السير إلى بدر لتظهر قوتها للمسلمين ، ولغيرهم من قبائل العرب [١]. وقد زاد من حميتهم ما حدث لهم فى سرية عبد الله بن جحش فى نخلة من قتل وأسر ودفع فدية ، وكان ذلك بتأثير من أبى جهل عمرو بن هشام[٢] .

وبينما كان الرسول بمن معه فى طريقه إلى بدر أتاه الخبر بسير قريش ، فرأى أن الفرصة سانحة للتنكيل بالمشركين ، فاستشار أصحابه فى الأمر ، فأعلن كبار المهاجرين موافقتهم على الخروج لمهاجمة قريش ، أما الأنصار فكان الاتفاق بينهم وبين الرسول فى بيعة العقبة الثانية أن يدافعوا عنه وعن المهاجرين إذا تعرضوا للأذى لا أن يساعدوه فى الهجوم . فلما شاورهم فى أمر قتال قريش أظهروا له طاعتهم فى كل ما يطلب منهم ، وقال سعد بن معاذ :" امض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك فوا الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد " فسر الرسول بقول سعد وقال :" سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين — العير ، أو النفير — والله لكأنى انظر إلى مصارع القوم "[٣].

---

(١) لم يشترك فى غزوة بدر بنو زهرة وبنو عدى ، فبنو زهرة رجعوا من الجحفة بإشارة حليفهم الأخنس بن شريق ورجع بنو عدى بعد بلوغهم ثنى اللفت محتجين بأن أبا سفيان طلب عودة الجيش ، ابن سعد: الطبقات الكبر ، جـ ٢ ص ١٥،١٤ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق١ ص ٤٢١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ص ٢٧٦ .

فتابع المسلمون سيرهم حتى إذا ما وصلوا إلى أدنى ماء من بـدر ، رأى الرسول أن يستقر فى هذا المكان ، فسأله الحباب بن المنذر : أرأيـت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنـه ؟ أم هـو الرأى والحرب والمكيدة ، قال :" بل هو الرأى والحرب والمكيدة " ، قـال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، وأشار له أن يمضى بالناس عن هـذا المنزل حتى ينزل بهم أدنى ماء من قريش لمنعهم من الشرب ، فاستحسـن هذا الرأى ونزل بالمسلمين فى الجهة الشرقية من الوادى ـ والذى تقع فيـه بدر ـ فى ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان ، على حين نزلت قريـش فى ثنايا التلال الغربية لبدر .

ونام المسلمون جميعا فى هذه الليلة نوما هادئا بينما بـاتت قريـش ساهرة ، كذلك أمطرت السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا فى الجهة التـى كانت تعسكر فيها قريش ، على حين نزل قليل من المطر فى الجهة التـى عسكر فيها المسلمون ، ولما كانت القوة الرئيسية للمسلمين من الإبل فقـد ساعد المطر الخفيف على تلبيد الأرض مما أعان على سير الإبل ، وأمـا قريش فكانت عدتها الرئيسية من الخيل وغزارة المطر من جهتها قد بللـت الأرض فعاقب مسير خيلها وإبلها(١).

وتراءى الجيشان فى صبيحة يوم الجمعة ١٧ رمضان من السـنة الثانية للهجرة (١٣ مارس ٦٢٤ م) ، فلم يعد هناك مفر من لقاء الفريقين، وابتدأت الحرب بالمبارزة ـ حسب القواعد العربية ـ فخرج من صفـوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شـيبة بـن ربيعـة ، فطلبوا من يخرج إليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار ، فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم ، نطلب أكفاءنا من بنى عمنا فخرج لهم حمـزة بـن عبـد

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ، ص ١١٣ .

المطلب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلى بن أبـــى طـــالب ٠ فقتل حمزة شيبة ، وقتل على الوليد ــ وأما عبيدة وعتبة فتلقى كل منـــهما ضربة من صاحبه ، فكر حمزة وعلى على عتبة فقتلاه ، واحتملا عبيـــدة وهو جريح(١)٠

ثم بدأت المعركة إثر ذلك ، ولم تطل الحرب كثيرا إذ حلت الهزيمة فى صفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتنة كلها ، وبلغت عدتهم سبعين رجلا ، كما أسر منهم سـبعون من رجالاتها ، أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشـــر ، ســت مـــن المهاجرين وثمانية من الأنصار ٠

ثم عاد الرسول إلى المدينة مظفرا ، قد أعلى الله كلمته ونصر نبيه، وكان لهذا النصر نتائج بعيدة الأثر لكلا الطرفين ، فالمسلمون قد اســتفادوا من وراء انتصارهم فى واقعة بدر فائدتين إحداهما معنوية ، وتمثلت فـــى وثوقهم بأنهم على الحق وأن خصمهم على باطل ٠ والثانية مادية ، وهـــى الغنائم التى اكتسبوها ، وكانت كثيرة ، ومن بينـــها إبـــل ومتـــاع وثيـــاب وأسلحة٠ وقد قسمها الرسول بعد إخراج الخمس بيـــن المســـلمين الذيـــن اشتركوا فى هذه الواقعة ، والذين تخلفوا بإذن منه ٠

أما من جهة أعداء الإسلام ، فقد أصبحوا بعد غزوة بدر الكـــبرى على ثلاث فئات :

١. فئة إرتأت ــ بعد أن هداها الله ــ إلى الإسلام خيرا ، بدليل هذا النصر المؤزر لعباده ، فاعتنقته عن حب وطواعية ، فصارت قوة جديدة فى صفوف المسلمين (٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٦٢٥ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـــ ١ ص ٢٨٨ ٠

(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ١١٩ ٠

٢. وفئة نشأت ــ عقب انتصار المسلمين على قريش فى بدر على نحو صارخ ــ فى ميلاد جديد ، وهى طائفة المنافقين ، الذين أسلموا بلسانهم خوفا وطمعا ، وإن ظل الشرك سائدا فى بواطنهم.

وكان على رأس هذه الفئة الظالمة كبيرهم عبد الله بن أُبى بن سلول، الذى كاد أن يتوج ملكا على يثرب عقب يوم بعاث ، لولا هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وقد قضت مجئ رسول الله إلى المدينة على أحلامه وآماله ، وأصبحت أمانيه الكبيرة ككرة من الثلج ألقيت فى وهج من النار . فصار ابن أبى بن سلول حاقدا على الإسلام ، وجاحدا لله ، وحاسدا لرسوله ، وساعيا بين الناس كمدا وكيدا كلما وجد لذلك سبيلا(١).

٣ . وفئة قد ملأها هذا الانتصار المذهل حقدا وحسدا ، وكرها وبغضا للمسلمين ورسولهم ، بل وللإسلام أيضا ، وكانت هذه الفئة هى فئة يهود المدينة الذين تمنوا هزيمة المسلمين فى بدر ، وخابت أمانيهم .

وقد أظهر يهود بنى قينقاع دون باقى اليهود فى المدينة ما امتلأت بها نفوسهم المريضة من أحقاد وضغائن فى صورة سافرة ، كشفت عما فى أعماق نفوسهم ولم يستطيعوا ستر نياتهم ، فكان أن أخرجهم ما أظهروه من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان جزاؤهم الطرد من المدينة، ليكون لبنى قينقاع السبق فى الجلاء عنها ، كما سنتبين ذلك عند الحديث عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود(٢) .

---

(١) منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، جـ ١ ص ٢١٩ ، ٢٢٠، ٢٤٧، ٢٤٨ .

(٢) أنظر ما يأتى ص (٢٢٧ ــ ٢٤١) .

أما أمر الأسرى : فبعضهم قتل بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء عودتهم إلى المدينة ، مثل النضر بن الحرث من بنى عبد الدار ، وعقبة بن أبى معيط الأموى (١) ، وذلك لأنهما كانا شديدى الأذى لرسول الله وأكثرهم كفرا وعنادا ، وبغيا وحسدا وهجاء للإسلام وأهله(٢)٠

وفئة ثانية قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفدية منهم ما عدا عمرو بن أبى سفيان الذى رده الرسول الكريم إلى مكة فى مقابل سعد بن النعمان بن أكال ؛ الذى عدا عليه أبو سفيان بن حرب بغيا وأسره أثناء قيامه بالعمرة ، وذلك على غير عهد قريش بعدم التعرض لمن جاء حاجا أو معتمرا إلا بخير(٣)٠

ثم فئة ثالثة من عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بغير فداء لعدم وجود مال لديهم بخلاف أنهم كانوا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ومنهم أبو عزة الجمحى الشاعر بعد أن تعهد ألا يكون ضد المسلمين بشعره ٠

وكان فداء الرجل ما بين ألف درهم وأربعة الآف درهم ٠ ثم كان فى الأسرى من يجيد الكتابة ويعجز عن دفع الفداء لفقره على حين لم يكن فى الأنصار من يعرف الكتابة ، فجعل الرسول فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، وكان كل أسير يعلم عشرة من الغلمان الكتابة يخلى سبيله(٤)٠

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ، ق ١ ص ٦٤٤ ، ابن حزم الأندلسى : جوامع السيرة النبوية ، ص ٨٧ ٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ٠

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق١ ص ٦٥٠ ، ٦٥١ ٠

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ١ ص ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ٠

ولا شك فى أن ما انتهت إليه واقعة بدر من انتصار المسلمين على ثلاثة أمثالهم من القرشيين يحملنا على اعتبارها إحدى معجزات الرسول — صلى الله عليه وسلم — وفى آيات القرآن الكريم ما يشعرنا بذلك ، يقول الله تعالى فى هذا الشأن :" **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين**"([1]) ونزول الملائكة بين صفوف المسلمين لقتال المشركين عمل إعجازى واضح .

وقد سميت غزوة بدر بيوم الفرقان ، لأنه تعالى فرق بهذا اليوم العظيم بين الحق والباطل([2]) .

بين بدر وأحد

سرية زيد بن حارثة إلى القرده([3]) جمادى الآخرة سنة ٣ هـ وأثرها فى غزوة أحد

لم يتوان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انتصاره على قريش فى غزوة بدر ، عن الوقوف فى وجه تجارتها الصفية فى الشمال ، ولم يفتره هذا الانتصار الباهر ولا فرحة المسلمين الغامرة بكسر شوكة قريش فى غزوة الفرقان ، من العمل الجاد والمستمر ضد قريش وقوافلها ، ومصدر حياتها .

لكن الرسول الكريم ظل مترصدا القوافل المكية ، باثا عيونه عليه الصلاة والسلام ، فى كل الطرق المحتملة وغيرها ، بين مكة والشام من جهة ، وبين مكة والعراق من جهة أخرى .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٩ .
(٢) محمد بن يوسف الصالحى : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٣٠ .
(٣) القردة بالمثناه ، وقيل الفردة بالفاء الموحده : ماء من مياه نجد أسفل مياه الثلبوت فى الرقة ، صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ص ١٠٧٧ .

كان هذا من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما من جـــانب قريش ، فقد فزعت فزعا شديدا على تجارتها الشـــمالية ، وذلـــك بعـــد أن زلزلت هزيمة بدر كيانها ، وهدت أركان عظمتها · واستشعرت منذئذ بأن حياتها بات فى خطر عظيم ، خصوصا وقد مضى صيف العـــام الثـــالث الهجرى بلا طائل ، حتى أصبحت قريش مهددة بأكل رءوس أموالها ؛ لعدم خروج قوافلها الصيفية إلى بلاد الشام ؛ ذلك لأن الطرق القديمة الموصلـــة إلى أسواق بلاد الشام ، والمعروفة منذ زمن بعيد أصبحت مرصودة مـــن جانب محمد وأتباعه ، بخلاف ما تم من عهود ومواثيق بين محمد ، وبيـــن القبائل الضاربة حول هذه الطرق (١)·

وظلت قريش فى حيرة من أمرها فى هذا الشأن إلى أن أرشـــدهم الأسود بن المطلب – أبو زمعة – إلى دليل ماهر – هو فرات بن حيان ، من بنى عجل(٢) – حليف بنى سهم – إحدى القبائل القرشية الهامة ·

وكان هذا الطريق عبارة عن طريق شرقى طويل يخترق نجدا فـــى اتجاه العراق ، وصولا منها إلى بلاد الشام(٣) ·

ولما كان لزاما لقريش أن تخرج إلى رحلة الشام التجارية لتعويض ما فاتها فى الصيف ، خرجت على غير عادتها فى الشتاء(٤) إلـــى بـــلاد الشام فى قافلة كبيرة ، محملة بالأوانى والفضة ، تقدر بمائة ألف دينـــار – وهى عظم تجارة قريش ، وفيها أبو سفيان بن حرب(٥) · ومعهم دليلـــهم فرات بن حيان ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة النبوية ·

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤٠ ·
(٢) قيل من بنى بكر بن وائل ، الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٩٢ ·
(٣) المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٢٢١ ·
(٤) ربما كان هذا الخروج فى هذا التوقيت من قبيل التمويه على المسلمين ·
(٥) قيل إن قائدها كان صفوان بن أمية ، المباركفورى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ·

وعلى الرغم من هذا الاحتياط الكبير ، والسرية التامة إلا أن خبر هذه القافلة قد وصل إلى رسول الله من جهة عيونه ، فلم يلبث الرسول أن بعث لوقته زيد بن حارثة فى سرية قوامها مائة رجل للقبض على هذه القافلة .

فأسرع زيد بمن معه حتى دهم القافلة بغتة — على غرة — عند ماء بنجد ، يقالها " قرده " فاستولى زيد على القافلة بأكملها ، وأسر رجلين منها بينهما فرات بن حيان الذى أسلم على يد رسول الله ، أما قادة القافلة وحرسها من قريش فقد فروا فرقا حين باغتهم زيد بن حارثة دون أية مقاومة بعد أن عمهم الرعب (١).

وكانت مأساة شديدة ، ونكبة كبيرة ، أصابت قريشا بعد بدر ، وزادتها هما وحزنا ، واضطرابا بالغا ، ولم يبق أمامها إلا طريقان؛ فإما أن تمتنع عن صلفها وجبروتها وتهادن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو تقوم بمعركة جامعة للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وتعيد مجدها التليد ، وعزها القديم ، وأمان قوافلها .

وقد اختارت قريش وحلفاؤها الخيار الثانى ، وصممت على حرب المسلمين فى عقر دارهم ، وألحت فى طلب ثأرها وتعويض خسائرها(٢).

ثانيا — غزوة أحد (شوال سنة ٣ هـ)

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ، رأت قريش أن تثأر لشرفها وسمعتها، ولمن قتل من رجالاتها . فأخذت فى الاستعداد لذلك ، وبدأت أول ما بدأت بتخصيص أموال القافلة التى حاول المسلمون اعتراض

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٠ ،٥١ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٢) المباركفورى : المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

طريقها ، والتى كانت السبب فى واقعة بدر للإنفاق منها على حربهم القادمة ، وقد طابت أنفس أشرافها أن يجهزوا من تلك الأموال جيشا ، وقد بلغت هذه الأموال خمسون ألف دينار ، فباعوها وربحوا فى الدينار دينارا، فأخذوا رؤوس أموالهم ، وقد زدها غيظا وحنقا على المسلمين تلك القافلة الغنية التى استولى عليها زيد بن حارثه قبيل غزوة أحد مما جعلها تتمسك بشدة فى طلب ثأرها — كما قلنا آنفا —

ودعت قريش حلفاءها من ثقيف وتهامة وكنانة للاشتراك معها فى محاربة المسلمين ، كما استعانت أيضا بالأحابيش(١).

ولما تم استعدادها الذى ظل سنة كاملة ، خرجت بحلفائها إلى المدينة فى شوال من السنة الثالثة من الهجرة بقيادة أبى سفيان بن حرب.

ولما بلغ النبى قدوم قريش على المدينة ، استشار أصحابه كعادته فى مثل هذه المواقف ، فمنهم من أشار بالاكتفاء بالدفاع داخل المدينة ، ومنهم من أشار بالخروج من المدينة ولقاء العدو خارجها ، وكان الرسول يرى الرأى الأول فقال لأصحابه : امكثوا فى المدينة واجعلوا النساء والذرارى فى الآطام ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم فى الأزقة ، وقد أيده فى ذلك أكابر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، كما وافقه عبد الله بن أبى(٢).

وكان أغلب أنصار الرأى الثانى من الشبان الذين لم يشهدوا بدرا ، ومن المسلمين المتحمسين للقاء العدو ، وهؤلاء قالوا للرسول : اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .

---

(١) هم بنو الحارث بن عبد مناة — فرع من بنى كنانة ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٨٨ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣١٤ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٣ .

ولما كان أنصار هذا الفريق الأخير يمثلون غالبية المسلمين أخـــذ الرسول برأيهم ، وخرج من المدينة فى ألف من المسلمين ولم يكـد يبلـغ الشوط ـــ بين المدينة وأحد ـــ تخلى عنه عبد الله بن أبى مع فريـــق مـــن المنافقين ، بحجة أن النبى لم يأخذ برأيه فى مسألة الخروج إلـــى العـدو ، وكان عدد المنافقين الذين عادوا مع ابن أبى ثلاثمائـــة ٠ وأدى هـذا إلـــى تناقص عدد المسلمين إلى الســبعمائة ، وبالتـالى أحـدث هـذا الإنقســام الإضطراب والارتباك فى صفوف المسلمين (١)٠

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعبأ بتخلف عبد الله بن أبـــى ورفاقه ، وواصل السير حتى نزل بالمسلمين بعدة الوادى ، فاستقبل المدينة وترك جبل أحد خلف ظهره ، حتى لا تهاجمه قريش من خلفـه ، ورتـب عليها خمسين راميا وولى عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : احموا لنـــا ظهورنا ، والزموا مكانكم ولا تبرحوه سواء كان النصر فـــى جانبنـــا ، أو كانت الكرة علينا ، حتى لا يأتى العدو من وراء ظـــهورنا ، وأمرهـم أن يرمو خيل الأعداء بالنبل لأن الخيل لا تقدم على النبل (٢)٠

ثم نظم الرسول جيشه ووزع القادة ، فجعل الزبير بن العوام علـــى الميمنة ، والمنذر بن عمرو على الميسرة ، وبقى هو فى القلب ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ٠

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ٠
(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ٠

وأما قريش وحلفاؤها فنزلوا ببطن الوادى من قبـــل أحـــد مقـــابل المدينة، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ٠ وقد عبأت قريش لهذه الحرب ثلاثة آلاف رجل ومائتى فرس ٠

وفى يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثـــة للـــهجرة النبوية التقى الفريقان ، ودارت رحى الحرب ٠ فأبلى المسلمون بلاء حسـنا فأنزل الله عليهم نصره ، وصدقهم وعده ، حتى ولى أعداؤهـــم منـــهزمين فتبعهم المسلمون ، وأخذوا يجمعون ما وجدوه فى طريقهم من الغنائم(١)٠

وعندما شاهد الرماة هزيمة المشركين ، وتقدم المسلمين فى جـــوف عسكر المشركين وجمعهم الغنائم ، ترك أكثرهم الجبل وهرعوا إلى جمـــع الغنائم ولم يبق بالجبل إلا قائدهم عبد الله بن جبير وعشرة من المســلمين ٠ مما أدى إلى كشف ظهور المسلمين (٢)٠

ولما رأى خالد بن الوليد قائد الفرسان انكشاف هذه الثغرة من خلف خطوط المسلمين استغلها أحسن الاستغلال ، فالتف بجنده وكر على بـــاقى الرماة بالجبل وقتل قائدهم ومن معه ، ثم أتى المسلمين من وراء ظـــهورهم فأعمل فيهم السيوف والرماح ، وعاد المشركون المنـــهزمون عنـــد ذلـــك للقتال، فوقع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى حصار من جميـــع الجهات ، فاختلت صفوف المســلمين ، واضطربـــت جموعـــهم ، وولـــوا مصعدين فى الجبل ، وكاد المشركون أن يصلوا لرسول الله لولا نفر قليـــل

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ١٥٦ـ١٥٩ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٧٧، ٧٨ ٠

من المسلمين ظلوا حول الرسول يذودون عنه بشجاعة نادرة ، إلا أنه مع ذلك قد كسرت رباعيته ، وأصيب بعدد من الجروح فى وجهه ٠

ومما زاد من ضعف عزائم المسلمين أن رجلا من المشركين قتل مصعب بن عمير حامل راية المسلمين ، وكان شديد الشبه برسول الله ، وأذاع إثر ذلك أن محمدا قد قتل ، غير أنهم استعادوا قوتهم وانشرحت صدورهم بعد أن عرفوا أن الرسول على قيد الحياة ، وأخذوا فى الرجوع إلى الرسول والالتفاق حوله(١)٠

وعلى الرغم من أن خبر مقتل الرسول قد أدى إلى إنخذال المسلمين، واستيلاء اليأس عليهم ، إلا أنه قد أدى فى نفس الوقت إلى نجاته، ونجاة المسلمين من أيدى المشركين ، ولا غرو فقد انخدعت قريش بخبر مقتل الرسول ، واكتفت من الحرب بتلك النتيجة التى عملوا لها طوال ستة عشر عاما ٠

ثم انحاز رسول الله بمن معه من المسلمين إلى الشعب بعيدا عن المشركين ، وأسند ظهره إلى الشعب ، ولم يصدق نفر من القرشيين خبر وفاة الرسول ، وكان منهم أبى بن خلف الذى أقبل إلى المسلمين ليتأكد بنفسه من هذا الخبر ، وصرخ فى المسلمين : أين محمد لانجوت إن نجا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قدتوعده بالقتل على يده فى مكة ، فتناول عليه السلام حربة أحد المسلمين ، ثم استقبل أبى بن خلف فطعنه فى عنقه طعنة شديدة ، وعاد به فرسه إلى صفوف المشركين وهو يكاد أن

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩ ٠

ينكفئ عن فرسه عدة مرات . وكانت هذه الطعنة سببا لموته وهو عائد إلى مكة .

وكان أبى بن خلف الرجل الوحيد الذى قتل بيده عليه السلام ، ولقد تحقق بذلك ما توعد به الرسول صلى الله عليه وسلم أبى بن خلف منذ زمن بعيد ، وصدق الرسول الكريم ، وكان أبى بن خلف قد اعتقد اعتقادا جازما بأنه لا نجاة له من الموت من هذه الطعنة ، لذلك قال عندما هونـــت إليـــه قريش أمر هذه الطعنة : والله لو بصق على محمد لقتلنى (١)

ويظهر أن قريشا رأت — على الرغم من تأكدها فى نهاية الأمـــر من حياة الرسول — أنها قد شفت غليلها من عار يوم بـــدر ، وخصوصـــا وأنها قد قتلت من المسلمين عدد قتلاها فى بدر ، فلم تفكر فى كرة أخرى ، بل أزمعت على العودة إلى مكة بعد أن وعد أبو سفيان المسلمين فى بـــدر من العام المقبل ، ويبدو أيضا أن قريشا خافت من إهدار هذا النصر العزيز الذى أحرزته على محمد وأتباعه إن هى فكرت فى كـــرة أخـــرى علـــى المسلمين فى الشعب ، أو فى مهاجمة المدينة ، وخصوصا وأنـــهم كـــانوا يعلمون أن كثيرا من الأنصار قد تخلفوا بالمدينة ، وربما يسرعون لنجـــدة إخوانهم فيكون ما تكره قريش(٢).

ثم فرغ الرسول ومن معه بعد رجوع القرشيين إلى قتلاهم فدفنوهم، وكانوا سبعين شهيدا ، منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى الحبشـــى ، ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وذلك انتقاما لما حدث لأبيـــها

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٢٩ .
(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـــ ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦ ، محمد الخضرى بك : نور اليقين ، ص ٩٩ .

وعمها وأخيها يوم بدر على يد حمزة وعلى ـ رضى الله تعالى عنهما ـ ، ثم انصرف عليه السلام راجعا إلى المدينة ٠

ثم خرج فى اليوم الثانى خلف قريش حتى وصل إلى حمراء الأسد وأقام بها ثلاثة أيام ، وذلك إرهابا للعدو [١] ٠

وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله عز وجل به المؤمنين، وأظهر به المنافقين ، وأكرم فيه من أراد كرامته بالشهادة ، وأكد به أن طاعة الرسول ملزمة ولا ينبغى لأحد أن يخرج عن أوامره ، وإلا كان نكالا عليه وعلى المسلمين ٠

هذا وقد أطمعت ـ هزيمة المسلمين يوم أحد ـ قريشا وغيرها من القبائل فى جماعة المسلمين حتى استهانوا بهم ، وظنوا أنه من اليسير القضاء عليهم[٢] ، ومن أهم نتائج هذه الظاهرة ما يأتى :

١- ذكر يوم الرجيع :

كان أول من تجرأ على المسلمين ـ بعد هزيمتهم فى أحد ـ قبيلتى عضل والقارة[٣] اللتين أرادتا التقرب لقريش بالقيام بعملية ضد المسلمين ٠

فوفد على رسول الله وفد من عضل والقارة ، واجتمعوا به وقالوا له : إن فينا إسلاما وخيرا ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ـ فبعث رسول الله ستة من أصحابه ، وهم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق ٠

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ، ص ١٦٧ ٠

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١١٤ ٠

(٣) عضل والقارة قبيلتان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ١٩٠

فلما أتوا على الرجيع ــ ماء لهذيل[١] بين مكة والطائف ــ غــدر الوفد برسل رسول الله ، واستصرخوا عليهم هذيلا ، فغشيهم مائــة رجــل منهم • فلما أخذ صحابة رسول الله سيوفهم لقتالهم طلبوا منهم تسليم أنفسهم لبيعهم لأهل مكة ، فلم يقبل ذلك مرثد ، وخالد ، وعاصم فحــاربوا حتــى قتلوا، وأما الثلاثة الأخر فوافقوا حتى يجدوا فرصة للخلاص منهم[٢]•

وفى طريقهم إلى مكة غافلهم عبد الله بن طارق ، وفــك قيــوده ، وأراد الفرار إلا أن القوم لحقوا به وقتلوه بالحجارة • فلم يبق غير خبيــب وزيد ، فوصلوا بهما مكة وباعوهما ، فلم تتوان قريش فى قتليما[٣]•

٢- حديث بئر معونة[٤] :

وهذه فجيعة مثل السابقة وسببها أن عامر بن مالك ــ أبــا بــراء ملاعب الأسنة ــ العامرى من بنى عامر بن صعصعة وفد على المدينة فى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فعرض عليه النبى صلــى الله عليــه وسلم الإسلام فلم يسلم • وقال : يا محمد ، إنى أرى أمرك حسنا شــريفا ، فلو أنك بعثت نفرا من أصحابك معى إلى قومى لرجوت أن يستجيبوا لك ، ويتبعوا دعوتك • فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أخاف عليهم أهل نجد • فقال عامر : لا تخف عليهم فأنا لهم جار •

---

(١) هذيل بن مدركة بن إلياس المضرى ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ١١ •

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ١٦٩ ، ١٧٠ •

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جــ ١ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ •

(٤) بئر بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ، صفــى الديــن البغــدادى : مراصــد الإطلاع ، جــ ٣ ص ١٢٩٢

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو ، أخا بني ساعدة ومعه سبعين رجلا ([1])من أصحابه من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة — وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم — .

وحينئذ بعث وفد رسول الله حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل أحد كبار بنى عامر فلم ينظر فيه وعدا على المبعوث وقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه رعاية لجوار أبى براء عامر بن مالك لهم ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه ، وخرجوا حتى غشوا أصحاب رسول الله وأحاطوا بهم ، فلما رأى أصحاب رسول الله الشر فى أعينهم ، أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا جميعا ما عدا الرجلين اللذين كانا فى الرحال ، وكعب بن زيد الذى ترك فى المعركة جريحا وقد ظن موته .

وكان الرجلان هما عمرو بن أمية الضمرى ، ورجل من الأنصار([2])، ولما أقبلا بالسرح ، وجدا أصحابهما قد قتلوا جميعا ، فقاتل الأنصارى حتى قتل ، أما عمرو بن أمية فقد أخذوه أسيرا ، فلما أخبر أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل ، بعد أن جز ناصيته زاعما أنه أعتقه عن رقبة كانت على أمه .

وعاد عمرو بن أميه إلى المدينة [3]، وفى طريق عودته تقابل عند صدر وادى قناة مع رجلين من بنى عامر ، ونزلوا جميعا بالظل ، ولما عرف أنهما من بنى عامر أمهلهما ، حتى إذا ناما قتلهما انتقاما وثأرا، ولم

---

(١) أنظر المصادر السابقة .

(٢) انظر عنه ، الصالحى : سبل الهدى ، جـ ٦ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) إحدى أودية المدينة الثلاثة ، ياقوت : معجم البلدان ، باب الواو .

يكن يعلم أنهما قادمان من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عقـــد معهما عهدا([1]) ٠

ولما قدم عمرو بن أمية على رسول الله أخبره الخبر ، وأنه لقـــى إثنين فقتلهما ، وجاء رسول الله فى نفس الليلة خبر مصاب خبيب ومرثد ،

وعلى الرغم من الحزن الشديد الذى أصاب رسول الله حتـــى أنـــه مكث يدعو على قتلتهم أربعين يوما فى صلاة الصبح بعد الركوع ، إلا أنــه غضب أيضا من فعل عمرو بن أمية وقال له : بئس ما صنعـــت ! أقتلــت رجلين قد كان لهما منى أمان وجوار ، ثم أراد النبى صلى الله عليه وســـلم أن يخرج ديتهما ، دية حرين مسلمين ٠ فذهب إلى يهود بنى النضير فـــى حيهم ليستعين بهم فى دفع دية هذين الرجلين وقد انتهز يهود بنى النضـــير حضور الرسول الكريم إلى ديارهم فأرادوا الخلاص منه والقضاء عليـــه ، ووجدوه فرصة لا يمكن أن تتكرر بهذه السهولة ، فتآمروا على قتله ، وذلك بعد أن طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجلس ليطعموه حتى يتشـــاوروا فى أمر الديه ٠

ولكن الله تعالى نجا رسوله من مكيدة بنى النضير ، ثم كان ذلـــك سببا فى طردهم من المدينة إلى خيبر ، فكانت ثانى قبيلة يهودية تجلوا عـن المدينة ، ولم يعد بها بعدئذ إلا يهود بنى قريظة([2]) ٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٥٤٥ ــ ٥٤٧ ٠

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، وأنظر ما يلى فـــى البـــاب الخاص عن اليهود ٠

ثالثا – غزوة بدر الآخرة ([١]) (شعبان سنة ٤ هـ) :

ذكرنا أن أبا سفيان قد وعد المسلمين – قبيل تحركه من أحد – بلقاء آخر ببدر من العام القادم .

فلما جاء شعبان من السنة الرابعة للهجرة النبوية ، وفيه سوق بدر ، وهو موعد أبى سفيان ، خرج عليه السلام بأصحابه حتى نزل بدرا ، وأقام ينتظر أبا سفيان ، ومعه من أصحابه ألف وخمسمائة فيهم عشرة فرسان .

أما أبو سفيان الذى هدد وأنذر – وهو فى قمة النشوة والزهو والخيلاء – عند جبل أحد ، عندما دنا الموعد كره الخروج وتخوف من الموعد ، ولكنه مع ذلك تظاهر بأنه يريد الغزو ، فخرج من مكة فى ألفين وفيهم خمسون فارسا ، ولما بلغ بهم مجنة أو عسفان أظهر ما كان يكمن فى نفسه فقال : أيها الناس إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا ، فرجعت قريش ، وكان ذلك مما أخذه الناس على أبى سفيان لعدم وفائه ، وسموا هذا الجيش جيش السويق . يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان لميعاده ، ولما انتهت السوق دون أن تحضرها قريش عاد رسول الله إلى المدينة بمن معه([٢]) .

---

(١) لهذه الغزوة مسميات متعددة مثل : غزوة بدر الثالثة ، وغزوة بدر الموعد .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

رابعا — غزوة الأحزاب — الخندق — شوال سنة ٥ هـ :

فشلت قريش وحلفاؤها — كما رأينا — فى القضاء على محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه منفردة • فقد منيت أولا فى بدر الكبرى بهزيمة ساحقه مفاجئة من المسلمين ، كما أنها لم تتمكن من أن تجنى ثمار انتصارها الهزيل على المسلمين فى أحد كما كانت تبغى ، وذلك لسرعة تماسك المسلمين بعد هزيمتهم ، والقيام من كبوتهم التى لحقت بهم فى وقت قصير •

وكان طرد المسلمين ليهود بنى النضير من المدينة فى السن الرابعة من الهجرة النبوية بعد غزوة أحد دليلا قاطعا على زوال أثر هذه الهزيمة من نفوس المسلمين ، وبرهانا واضحا على عودة القوة الإسلامية الفتية إلى ميدان الجهاد بعد هنيهة قصيرة ، وتخاذل المنافقون عن الجهر يكيدهم(١) •

وقد دلت التمثيلية التى قام بها أبو سفيان بن حرب — زعيم قريش — ومن معه ، فى غزوة بدر الآخرة وخوفه من لقاء المسلمين فيها مرة ثانية كما توعدهم مزهوا بنصره عند جبل أحد — على اليأس الشديد الذى تسرب فى نفوس مشركى قريش ، فى النيل من المسلمين منفردين •

هذا وإذا أضفنا إلى ما سبق ما منيته قريش من خسائر مالية فادحة فى بدر من غنائم استولى عليها المسلمون أثناء المعركة ، ومن أموال دفعوها للمسلمين لتحرير أسراهم ، ومن أموال قافلة قوامها مائة ألف دينار وقعت فى قبضة المسلمين كاملة فى سرية زيد بن حارثة قبيل غزوة أحد ، وكذلك الأموال الطائلة التى خسرتها قريش فى إعداد جيش أحد • وذلك بخلاف استمرار وقوف المسلمين عقبة فى طريق قوافل تجارتهم الشمالية•

---

(١) المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٢٦٨ •

فلا شك إذا أن كل هذا وذاك قد عاقت قريشا من إعداد جيوش جديدة لحرب محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلتها عاجزة تماما عن مواجهة المسلمين منفردة ٠

كذلك لم تكن فى استطاعت القبائل العربية الضاربة من حول المدينة ، من قبائل غطفان وغيرها ، وذلك على الرغم من كثرتهم من الوقوف أمام جيوش الإسلام منفردة(١) ، بدليل أنهم كانوا يفرون أمامهم كلما خرجت جيوش الإسلام لتأديب هذه القبائل ، اللهم إلا ما وقع من غدر وخيانة وخسة من البعض القبائل ، كما حدث عند بئر الرجيع ، وبئر معونة لبعض صحابة لرسول الله ٠

أما اليهود ؛ فبحكم ما جبلوا عليه من التشرذم والتفرق ، فلم يكن أمامهم غير الخنوع والاستسلام والجلاء من المدينة ، وذلك على الرغم من قوتهم وإمكاناتهم لو اجتمعوا على رأى واحد ٠ فخرجت بنو قينقاع فى ذل عقب غزوة بدر ، ثم خرجت جموع بنى النضير القوية فى خنوع عقب غزوة أحد ، دون أى مساس بالمسلمين ونبيهم الكريم ؛ لذلك كله لم يعد لأعداء الإسلام من مشركى العرب والمتمثلين فى قريش وحلفائها ، وغطفان ومن والاها ومن اليهود المتمثلين فى يهود بنى النضير ومن والاهم من يهود خيبر ووادى القرى ، وفدك ، وتيماء(٢) غير أن يتحزبوا

---

(١) أنظر فى هذا الشأن غزوة بنى سليم ، وغزوة ذى أمر ، ذات الرقاع وغيرها ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٢٠، ١٢١، ١٤٥ ٠

(٢) قرى تقع فى شمالى المدينة على أبعاد متفاوته بين المدينة وأطراف الشام ، انظر ، صفى الدين البغدادى: مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٢٨٦ ، ٤٩٤ ، جـ ٣ ص ١٠٢٠ ، ١٤١٧ ٠

جميعا لحرب المسلمين والقضاء عليهم بالمدينة ؛ ومن هنا كـــانت غــزوة الأحزاب ٠

أحداث الغزوة:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أجلى يهود بنى النضير مـــن المدينة عقب أحد لأسباب سنذكرها فى حينها([1]) ،فلما خـــرج يـــهود بنـــى النضير عن ديارهم بالمدينة رحلوا إلى خيبر ، وتولوا القيادة على من فيـــها من اليهود ، وأجمعوا أمرهم على تأليب العرب قاطبة ، وحشد الألوف مـــن جميع الأحزاب لقتال محمد وأصحابه ٠

وبدأ اليهود لتحقيق أغراضهم بقريش ، فسار نفر منهم إلـــى مكـــة وعلى رأسهم حيى بن أخطب النضرى ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وأخذوا يحرضون القرشـــيين ، ويدفعونـــهم إلـــى محاربة محمد وأصحابه ، كما أغروهم بمساعدات مالية وإمدادات حربيـــة ، ولما اطمأن هؤلاء النفر لموافقة قريش للخروج ضد المسلمين ذهبوا إلـــى غطفان ، ودعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشا ، وأخبروهم أنهم ســيكونون معهم ، وأن قريشا قد تابعتهم على ذلك ، ووعدوهم بمنحهم غلة خيبر فـــى سنة إذا ما نصروهم ، فأجابوا طلبهم([2]) ٠

ولما تأهبت قريش لقتال المسلمين بعثت تدعو العرب إلى معاونتها، كما ألبوا أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة ، وبذلك تكون حلـــف قـــوى قوامه قريش وغطفان ببطونهما المختلفة واليهود المقيمون بخيبر وغيرها ــ ولذلك سموا جميعا بالأحزاب ــ وكان لكل جماعة قائدها ، فأبو سفيان قائد

---

(١) وسبق ذكرنا لها فى إيجاز ٠

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ٠

قريش وحلفائها من الأحابيش وبنى كنانة وتهامة ، وعيينـــة بـــن حصـــن الفزارى قائد غطفان ، وحيى بن أخطب قائد اليهود ، وبلغ تعـــداد هـــؤلاء الأحزاب عشرة آلاف .

وعندما سمع الرسول بما اجتمعت عليه قريش وأحزابـــها ، دعـــا المسلمين وأخبرهم بما تم من أمر العدو ، وشاورهم فى الأمر ، فأشار عليه سلمان الفارسى(١) بحفر خندق حول المدينة ، وكان سلمان من بلاد الفرس، ولديه خبرة من كثرة الحروب التى خاضتها بلاده .

أعجب الرسول برأى سلمان الفارسى فركب مع بعـــض أصحابـــه ليختار موضعا ينزله ، فرأى أن ينزل بسفح سلع — وهو جبـــل بالشـــمال الغربى من المدينة — لأن الجهات الأخرى للمدينة كانت محصنة بالجبـــال والنخيل والبيوت ، ثم دعا المسلمين ، وأخبرهم على الموضع الذى اختـــاره لهم لحفر الخندق . ثم عين لكل قبيلة حدا يحفرون إليه ، وعمل الرســـول معهم بنفسه فى الحفر ، وجعل للخندق أبوابا ، وعهد بحراستها إلى نفر من المسلمين ، فاختار من كل قبيلة رجلا ، وولى الزبير بن العـــوام الرئاســـة عليهم .

ولما تم حفر الخندق — بعد جهد جهيد ، ونصب شديد — عســـكر الرسول بأصحابه — الذين بلغوا حوالى ثلاثة آلاف رجل — جاعلا الخنـدق أمامه ، وجبل سلع خلف ظهره ، وجعل النساء والأولاد فى الآطام(٢) .

---

(١) فارسى خرج من بلاده باحثا عن الدين الحق ، وقصته معروفة فى طلب الديـــن ، أنظر عنه ، ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة فى سلمان الفارسى .

(٢) مفردها أطم وهى : الحصن ، ابن منظور : لسان العرب مادة أطم ، والآطام هى : حصون المدينة .

وفي هذه الأثناء أقبل القرشيون وحلفاؤهم لمهاجمة المدينة ونزلـــوا فى شمالها بمكان بمجتمع الأسيال ، وهى بين الجرف التى تقع على بعـــد ثلاثة أميال من المدينة وزغابة ، وفوجئ الأحزاب بالخندق الذى حال بينهم وبين المسلمين ، والذى لم يتعودوه ولا شاهدوا مثيله فى حروبهم السابقة .

وأخذ الأحزاب منذ وصولهم يحاولون بشتى الطرق فـــى إجتيـــاز الخندق ، ويطوفون به جادين فى البحث عن ثغرة تؤدى بهم إلى العبـــور ، فحاول أبو سفيان فلم يفلح ، ثم فرسان قريش أمثال خـــالد بـــن الوليـــد ، وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وغيرهم ، لكنهم لم يفلحوا أيضا، وكان رماة المسلمين لهم بالمرصاد فى كل محاولاتهم يرمونهم بالسهام كلما اقتربوا من الخندق .

وظل المشركون فى محاولاتهم الدائبة حتى وجدوا مكانـــا ضيقـــا بالخندق ، وأجمعوا على الإقتحام من هذه الثغرة ، واستطاع بـــالفعل عـــدد منهم من العبور بخيلهم فيهم عكرمة بن أبى جهل ونوفـــل بـــن عبـــد الله المخزومى ، وضرار بن الخطاب بن مرداس ، وهبيرة بن أبـــى وهـــب ، وعمرو بن عبد ود ، فتصدى لهم المسلمون ، ونازل على بن أبى طـــالب عمرو بن عبد ود ، وكان من مشاهير الفرسان فأرداه قتيلا ، فلاذ البـــاقون إلى الفرار ، فدقت عندئذ عنق نوفل بن عبـــد الله المخزومـــى بـــالخندق ، ورمى بالحجارة حتى قتل ، وسقط درع هبيرة بن أبى وهب ، فأخذه الزبير بن العوام(١) .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٦ ، محمد بن يوسف الصـــالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـــ ٤ ص ٥٣٢ ــ ٥٣٦ .

ولما أعيى المشركين أمر هذا الخندق عمد أبو سفيان إلى استمالة يهود بنى قريظة ، حتى يجد ثغرة أخرى بعيدا عن الخندق فى اقتحام المدينة ، فانتدب لذلك حيى بن أخطب النضرى ، فنزل حيى على كعب بن أسد سيد بنى قريظة ، وما زال به يقنعه بنقض عهده مع محمد حتى أجابه بعد تمنع شديد ، وبذلك نقضت بنو قريظة حلفهم مع الرسول (١) ٠

وعندما انتهى الخبر إلى رسول الله بعث سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج إلى بنى قريظة للتأكد من هذا الخبر الخطير ، فعاد السعدان إلى رسول الله مؤكدين له خيانة بنى قريظة ، فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين ، واشتد الخوف ، إذ أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المسلمون كل ظن ، وساعدت على ذلك الإشاعات التى أخذ فى ترويجها المنافقون ، يقول الله تعالى فى هذا الشأن :" **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا* وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروا * وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ٠(٢)**

وكان الرسول فى ذلك الوقت يدأب على مصابرة المسلمين الذين اشتد بهم البلاء ، وزاد تأثير الجوع والبرد فيهم ، وحاول مفاوضة غطفان بثلث غلة المدينة لصرفهم عن قريش ، وليفت ذلك فى عضدهم فيرجعوا هم

---

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٤٨ ٠
(٢) سورة الأحزاب ، الأية ١٠ — ١٣ ٠

أيضا ، إلا أن الأنصار لم يقبلوا هذا العرض ، وفضلوا القتال على الدنيــــة فى دينهم(١) .

أما قريش ومن معها فقد ثقل عليهم الحصار وملوا الانتظـــار فـــى البرد القارس والمطر الذى لم تغن عنهم خيامهم شيئا .

ظهور نعيم بن مسعود :

وفى هذه الآونة ظهر رجل إسمه نعيم بن مسعود الأشجعى أتى من صفوف المشركين إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه ، ثم قـــال له: إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، فوجد رســـول الله فـــى إسلام نعيم بن مسعود الأشجعى ــ الذى كان مشهودا له بالثقة لدى جميـــع الأحزاب المشتركة فى هذه الحرب ــ فرصة طيبة فى زعزعـــة نفــوس الأحزاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعيم : إنما أنت فينا رجـل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديما فـــى الجاهلية ، فقال : يا بنى قريظة ، قد علمتم ودى إياكم وخاصة مـــا بينـــى وبينكم ، وإن قريشا ليسوا مثلكم ، البلد بلدكــم ، فيـــه أموالكــم وأبنـــاؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا عنه إلى غيره ، وإن قريشا وغطفان قـــد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهر تموهم عليه ، وبلدهــم وأهلـــهم ونساؤهم بغيره ــ فليسوا كأنتم ــ فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غـير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم بـــه إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهنا مـــن أشـــرافهم يكونـــون

---

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٤٩ .

بأيديكم ثقة لكم ، على أن يقاتلوا محمدا حتى يناجزوه فقالوا : لقد أشـــــرت بالرأى [١] .

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حـــــرب — زعيـــم قريش — ومن معه من رجال قريش : قد عرفتـــم ودى لكـــم ، وفراقـــى محمدا، وأنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحـــا لكـــم ، فاكتموا عنى ، فقالوا : نفعل ، قال نعيم : تعلمون أن معشر يهود قد ندمـــوا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه قائلين : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفـــان رجالا من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ، فإن طلب منكم اليهود أحـــدا من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم ترك نعيم قريشا وأتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى ، وأحب الناس إلى ، ولا أراكم تتهموننى ، قالوا : صدقت ، مـــا أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموه عنى . قالوا نفعل فما أمرك ؟ فقال لـــهم ما قاله لقريش وحذرهم ما حذرهم[٢].فلما كان ليلة السبت من شوال فـــى السنة الخامسة من الهجرة أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة عكرمـــة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقـــام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا فقالوا لـــهم : إن غدا السبت وهو يوم لا نفعل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمـــدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمـــدا ،

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ،جـ ٢ ص ٥٧٨ .
(٢) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٢٠٣ .

فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن ترحلوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجع عكرمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود ــ فأرسلوا إلى بنى قريظة قائلين : إنا والله لا ندفـــع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقـــاتلوا ، فتأكدت قريظة أيضا مما قال لهم نعيم ، وامتنعوا من القتال حتى يـــأخذوا الرهائن ، فأبوا عليهم ، فدب بذلك الخلاف بينهم ، وخذل الله بينهم [١] .

وحدث إثر ذلك أن بعث الله على المشركين ريحا فى ليلـــة شـــاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح آنيتـــهم ، وتـــنزع خيامـــهم ، فاضطرب معسكر الأحزاب حينـــذاك ، وأخـــذ الرعـــب بمجـــامع قلـــوب المشركين ، فانطلقوا لا يلوى أحد على أحد ، وكان أولهم أبو سفيان الـــذى نادى حين هم بالفرار : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقـــام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكـــره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نـــار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم ركب جمله وانطلق ، فانطلق وراءه القرشيون وغطفان وغيرهم راجعين إلى بلادهم[٢] .

وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعال فى كتابه العزيز :

" يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمـــة الله عليكـــم إذ جـــاءتكم جنـــود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا " [٣] .

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ .
(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣٦٩ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٩ .

ولما اطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم من رحيل جميع الأحزاب إلى بلادهم ، أذن للمسلمين فى الانصراف إلى منازلهم بالمدينة ، فعـــادوا فرحين مسرورين بعد أن دام حصار الخندق ما يقرب من ثلاثين يومـــا ، وقد قتل من المسلمين فى هذه الواقعة ستة نفر ، ومن المشـــركين ثلاثـــة ، وبذلك انزاحت هذه الغمة الثقيلة عن المسلمين (١) .

نتائج ودروس مستفادة من غزوة الخندق :

١. كان لطول أمد الحصار أسوأ الأثـــر فـــى نفـــوس الأحـــزاب المتحالفة مع قريش ، مما جعل لإخفاقها ورجوعها تجـــر أذيـــال الخيبة ، وتندب الآمال التى كانت تحلم بها ، أثرا كبيرا فى سـرعة انتشار الإسلام بين القبائل العربية .
٢. كما تجلى فى هذه الواقعة الدور السياسى من جانب المسلمين ، وأساليب الخداع بالاستفادة منها فى تفرقة العدو ، وقد ظهر ذلـــك جليا فى مساومة الرسول غطفان لزلزلتها عن موقفها إلى جـــانب قريش ، وفى التفريق والوقيعة بين الأحزاب وبين بنى قريظـــة ، عن طريق استخدام أحد الدهاة وهو نعيم بن مسعود الأشجعى.
٣. كذلك كان لفشل الأحزاب ورجوعهم عـــن المدينـــة منـــهزمين بسبب الخندق ، أثره العظيم فى نفوس المسلمين والعرب كافـــة ، بعد أن تبين لهم أن المدينة لا تؤخذ عنوة وإن حشدت لـــها آلاف الجنود .
٤. كذلك ضرب المسلمون ــ بصمودهم ما يقرب من ثلاثين يومـــا أمام عشرة آلاف من جند الأحزاب ــ أروع الأمثلة على تحمـــل الجوع والعرى وما إلى ذلك من الضغوط النفســـية التـــى كـــانت

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

تتوالى عليهم فى موقفهم العظيم عند الخندق ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم يزيدهم صبرا وإجماعا وتجلدا .

٣- مرحلة الفتح والانتشار

كانت غزوة الأحزاب نهاية مرحلة جادة من مراحل الجهاد الإسلامى ، فقد استطاع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار من الصمود القوى فى وجه أعدائه الكثيرين بمختلف أعراقهم ومشاربهم ودياناتهم وعددهم ، وعلى رأسهم بطبيعة الحال رأس المشركين قريش ، وذلك على الرغم من قلة عدد المسلمين وضآلة عدتهم .

وكانت غزوة الأحزاب مثالا واضحا لصمود المسلمين وقوة احتمالهم وشديد بأسهم فى سبيل الدفاع عن النفس وحماية الدعوة الإسلامية .

وقد خرج المسلمون من هذه المرحلة بمكاسب عظيمة معنوية كانت أو مادية ، فمن الناحية المعنوية نجد : أن المسلمين قد ارتفعت معنوياتهم إلى عنان السماء إثر هذا الصمود أمام جميع قوى البغى والعدوان ، من مشركين ويهود ، والتى تمثلت فى قريش وحلفائها وغطفان ومن والاها ، واليهود بجميع طوائفها ، وخصوصا وقد شعر المسلمون فى جميع خطوات هذه المرحلة بأن الله كان قريبا منهم ، يشاركهم بجنوده المختلفة عند اشتداد الأمر ، ووقت البلاء حتى بات يقينا فى أعماقهم بأنهم منصورون لما يحملونه من رايات هذا الدين الحنيف .

أما من الناحية المادية فمن الواضح من رؤيتنا لـــهذه المرحلـــة أن المسلمين لم يخسروا كثيرا فى معاركهم السابقة ، بل كان ربح المســـلمين عظيما وواضحا فى غزوة بدر الكبرى ٠

ومن أعظم نتائج هذه المرحلة لصالح المسلمين ازدياد جند الإسلام، وإذا تتبعنا عدد الجنود المسلمين المشاركين فى الغـــزوات الســابقة ، ثـم الغزوات الكبرى التى حدثت بعد مرحلة الصمود لرأينا بوضوح آلافا مـــن الجنود الجدد فى صفوف جند الإسلام٠

أما لو نظرنا إلى كفة الميزان الأخرى : أى كافة أعـــداء الإســلام وعلى رأسهم قريش فقد كانت كفتهم خاسرة من جميع نواحيـــها المعنويـــة والمادية أيضا ، فقد انهارت معنوياتهم جميعا ، وأصيبوا بإحباط شديد عقب غزوة الأحزاب ، وهى الغزوة التى كان أعداء الإسلام قد علقـــوا عليـــها الآمال الكبار فى سحق المسلمين عن بكرة أبيهم ، والقضاء على الدعـــوة الإسلامية قضاء لا قيام لها بعدها ، لكنهم عادوا يجرون خيبـــة آمالـــهم ، ويقودهم اليأس من فوق رقابهم ، وذلك بعد أن عرفوا يقينا بـــأن المدينـــة المنورة لا طائل لهم بها ، وأن هذه الطائفة المسلمة لا أمل لهم فـــى النيـــل منها ٠

أما من الناحية المادية فلا شك أن جميع أعداء الإسلام وعلى رأسهم قريش قد خسروا خسرانا مبينا من أموال وعتاد فى هذه المرحلـــة ، ففـــى غزوة بدر فرت قريش من ميدان المعركة بعد هزيمتها ، وتركـــت خلفـــها قتلاها ، ومن وقع فى الأسر منها ، وأموالها ، وعتادها التى جلبتـــها إلـــى بدر، وفوق كل ذلك دفعت أموالا طائلة للمسلمين لفك يد أسراها ، بخـــلاف

ما استولى عليه المسلمون من غنيمة عظيمة فى سرية زيد بن حارثه قبيل غزوة أحد والتى قدرت بمائة ألف دينار ٠

وفى أحد استخدمت قريش فى حربها الانتقامية جميع أرباح قافلة أبى سفيان لتكون به جيش أحد ، الذى انتصر انتصارا لا يرقى إلى انتصار المسلمين فى بدر ، والذى مر كسحابة صيف سريعة دون ترك أثر كبير على المسلمين ٠

أما غزوة الأحزاب فقد كانت القاصمة لكل أعداء الإسلام قاطبة ، وبالأخص على القرشيين الذين فقدوا ــ فوق كل ما تقدم ــ الأمن والأمان لتجارتهم الشمالية ، حيث ظل المسلمون يترصدون ــ من موقعهم السهام بالمدينة ــ تجارة قريش المارة من مكة إلى الشام أو العراق وبالعكس كعهدهم قبل غزوة بدر ٠

ولما كانت حياة قريش قائمة على هذه التجارة ، وذلك بالإضافة إلى تجارتها فى الجنوب ــ بلاد اليمن ــ فقد عانت قريش معاناة شديدة فى حياتها المعيشية فى هذه الآونة من جراء تصدى المسلمين لتجارتهم الشمالية٠

من هنا كان توقف الهجمات القرشية على المسلمين ، وذلك لعدم قدرتهم على مواصلة الحرب ضد المسلمين لنقص عددهم وعتادهم ومواردهم المالية ، وإذا كانت قريش بالرغم من غناها المعروف قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من الضعف ، كان الأحرى بباقى أعداء الإسلام أن يصلوا إلى ما وصلت إليه قريش من الضعف والوهن والهزال (١)٠

---

(١) المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٢٨٣ ٠

ويبدوا أن هذه الحقيقة قد وضحت أمام رؤى الرسول — صلى الله عليه وسلم — عقب غزوة الأحزاب ، فقد روى أن رسول الله قال حين جلت الأحزاب عن المدينة " الآن نغزوهم ولا يغزوننا "(١) .

ومن هنا بدأ الرسول — صلى الله عليه وسلم — بمن معه من المسلمين مرحلة جديدة تتناسب مع معطيات هذه الظروف المستجدة ، فكانت مرحلة الفتح والانتشار .

أ — صلح الحديبية (ذو القعدة سنة ٦ هـ)

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أنه دخل مكة معتمرا، وأنه طاف بالكعبة ، وحلق رأسه ، وأخذ مفتاح البيت بدون حرب، فجمع أصحابه وأخبرهم ، فتهيئوا للخروج معه وفاء لهذه الرؤية الصادقة(٢) .

وفى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية خرج الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق بهم من العرب — وقد بلغ عددهم ما يقرب من ألف وأربعمائة — ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وأحرم الرسول من ذى الحليفة ، ولبى :" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك

---

(١) أحمد بن حنبل : كتاب السيرة النبوية ، جـ ٢١ ص ٧٩ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ص ٥٤ ، محمد الخضرى بك : نور اليقين ، ص ١٣١ .

لك " . واقتدى به سائر المسلمين فأحرموا بإحرامه ، وساق قـــوم منـــهم الهدى كما ساق ، وذلك إظهارا لغرضهم الدينى ([1]) .

ولما بلغ أهل مكة خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد بهم الذعر ، ودعوا أحابيشهم وحلفاءهم من ثقيف للوقوف إلـــى جانبــهم ، وأجمعوا على منع محمد ومن معه من دخول مكة بأى حال ، كما عـــهدوا إلى بعض رجالهم بمراقبة حركات المسلمين ، وخرج خالد بن الوليد علـــى رأس فريق من المشركين للقاء المسلمين .

وفى الطريق وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر قريش وما قامت به من تدبير لمنعه من دخول مكة ، فسلك طريقا آخـــر بعيـــدا عـــن عيون قريش ، وعن طريق خالد بن الوليد وفرسانه ، ومـــا زال الرســـول سائرا بمن معه حتى وصل إلى مكان يقال له الحديبية ، فاستقر بها بمـــن معه من المسلمين ، وكانت الحديبية على أطراف الحرم على بعـــد تســـعة أميال من مكة([2]) .

وعندما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية جاءه بديـــل بن ورقاء فى ركب من خزاعة مسلمها وكافرها مخلصة لرســـول الله ، لا يخفون عنه شيئا ، ولا يكتمون سرا ، لأن خزاعة كانت حليفة لبنى هاشـــم فى الجاهلية ، وظلت موادعة للرسول بعد الإسلام ، فـــأرادت أن تســـعى للصلح وحقن الدماء ـــ فسلموا وقال بديل : جئناك من عند قومـــك ، وقـــد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم ، ومعهم النساء والأطفال ، ويقســـمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت ، فقال رسول الله إنا لم نأت لقتال أحد ،إنما

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٦٤ ، محمد جمال الدين سرور : قيـــام الدولة العربية الإسلامية، ص ١١٨ .

جئنا زائرين للبيت ، ومعظمين لحرمته ، فرجعوا إلى قريش وقـالوا : يـا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنمـا جاء زائرا هذا البيت ، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا : وإن كان جاء ولا يريـد قتالا، فو الله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تحدث بذلك عنا العرب (١).

ثم بعثت قريش مكرز بن حفص بن الأخيف ، أخا بنى عامر بـن لؤى فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، قال هذا رجل غادر، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه ، قال له الرسول نحوا ممـا قـال لبديـل وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له الرسول (٢) .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش وهـو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه الرسول صلى الله عليـه وسلم ، قال : إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدى فى قلائده ، رجع إلى قريش ولم يصل إلـى رسـول الله إعظاما لما رأى ، فقال لهم ذلك فقالوا له : أجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك ، وعند ذلك غضب الحليس ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما علـى هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظمـا له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفـرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نـأخذ لأنفسنا ما نرضى به (٣) .

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٧٠ ــ ٧٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣١٢ .
(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٦٢٨ .

وبعثت قريش بعد الحليس عروة بن مسعود الثقفى ، فلما أتى الرسول أخبره بما أخبر به رسل قريش السابقين ، ولمس عروة فى سفارته مدى الإعظام والإجلال والإحترام الذى يلقاه رسول الله من أصحابه فعاد إلى قريش ، وقال لهم :" إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه(١) ٠

وعند ذلك رأى الرسول صلى الله عليه وسلم من ناحيته أن يفاوض قريشا فى أمر دخوله مكة ، لأداء العمرة ، إيثارا للمسالمة والمودة ، فبعث رسول الله خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش ، وحمله على بعير له ، ليبلغ أشرافهم عن أسباب قدومه فما كان من القرشيين عند وصول رسول النبى إلا أن عقروا جمل رسول الله وأرادوا قتل رسوله ، فمنعهم الأحابيش، فخلوا سبيله ، فعاد خراش إلى رسول الله(٢)٠

وكانت قريش قد بعثت فى أثناء هذه السفارات فريقا من رجالها ليهاجموا المسلمين على غرة بالحديبية ، فظفر بهم محمد بن مسلمة ، فعاودت قريش الكرة وأرسلت نفرا آخر للاعتداء على المسلمين ، فوقف المسلمون فى وجههم ، وأسروا بعض فرسان قريش(٣)٠

وعلى الرغم مما حدث لخراش فى قريش فكر الرسول فى إرسال رسول آخر إلى قريش ، فانتدب لذلك عمر بن الخطاب ، إلا أن عمر ذكر للرسول عداوة قريش له ، وعدم وجود من يمنع القرشيين عنه من قبيلته ،

---

(١) ابن هشام : المصدر السابق ، ق ٢ ص ٣١٣ ، ٣١٤ ٠
(٢) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦٣١ ٠
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣١٤ ٠

ودله على الرجل المناسب لهذه السفارة ، وهو عثمان بن عفـــان ، فدعـــاه رسول الله ، وبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش .

فلما وصل عثمان إلى مكة أجاره أبان بن سعيد بن العاص ، وقابل أشراف مكة وأخبرهم برسالة رسول الله ، فرفضوا السماح للرسول بدخول مكة ، وسمحوا لعثمان أن يطوف بالبيت ، إلا أنه رفض وقال لـــهم : مـــا كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رأت قريش أن تحبسه (١) .

بيعة الرضوان :

ولما طال غياب عثمان بن عفان ثلاثة أيام أشيع بين المسلمين أنـــه قتل مع عشرة من المسلمين ـــ وكان الرسول قد أذن لهم بالذهاب إلى مكـــة لزيارة أهليهم ـــ فوقف الرسول أثر ذلك وخاطب المسلمين قائلا : إن كـــان حقا ما سمعنا فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم البيعة ، البيعـــة ، أيـــها الناس ، فتوافد المسلمون يبايعونه على محاربة قريش .

وتعرف هذه البيعة ببيعة الرضوان ، وقد نوه الله بشأنها فى ســـورة الفتح ، فقال سبحانه وتعالى :" **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يـــد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما** "(٢) .

وخافت قريش وارتعبت بعدما سمعت بـــأمر البيعـــة ، فســـارعت بإرسال وفد إلى محمد برئاسة سهيل بن عمرو ليفاوضه فى الصلح ، فلمـــا

(١) ابن هشام : المصدر السابق ، ق ٢ ص ٣١٥ .
(٢) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

قدم سهيل ، وقال لرسول الله : يا محمد إن هذا الذى كان — من حبس أصحابك وما كان قتال من قاتلك — لم يكن من رأى ذوى رأينا بل كنا له كارهين حين بلغنا ، ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرتهم ، فقال له الرسول : إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى ، فبعث سهيل بن عمرو رسولا من قبله إلى قريش يطلب منها إطلاق سراح عثمان بن عفان ومن معه من المسلمين ، فأجابت قريش طلبه ، ولما قدم عثمان بن عفان ورفاقه من المهاجرين إلى الحديبية ، أعاد الرسول إلى قريش رجالها الذين أسروا[1] ٠

وحينئذ أظهر سهيل بن عمرو لرسول الله رغبة قوية فى مصالحته، على أن يرجع عن مكة دون أن يزور البيت الحرام ، ويعود إليها فى العام التالى ، فيقضى بها ثلاثة أيام ، فتشاور الرسول مع أصحابه فيما عرضت عليه قريش ، فكرهوا إجابتها إلى ما طلبت ، لكن الرسول كان يرى فى الصلح خيرا كثيرا ، ولذلك وافق على الصلح ، على الرغم من تذمر بعض أصحابه[2]٠

واتفق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو فى كتاب الصلح على الشروط الآتية :

١-إن محمدا يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون ، فأقاموا بها ثلاثا معهم سلاح الراكب ، السيوف فى القرب بعد أن تخرج منها قريش ٠

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٨٠ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ ٠

٢ – وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن النـــاس ، ويكف بعضهم عن بعض ٠

٣ — من أتى محمدا من قريش مسلما من غـــير إذن وليـــه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ٠

٤ – من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومـــن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ٠

ثم دعا الرسول عليا ليكتب الكتاب بذلك ، فأملى عليــه : بســم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم ، فأمره الرسول بذلـك ، ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال عليه الســلام : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ٠

ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة فى عهد رسول الله صلـــى الله عليه وسلم ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش ٠

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرســف فى قيوده — وكان قد أسلم — يريد الالتجاء إلى المســـلمين ٠ فلمـــا رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه ، وقال يا محمد قد لجت القضيـــة بينـــى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، وأبو جندل ينادى : يا معشـــر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ، ولم تكن هناك حيلـة إلا أن يرد أبو جندل — عملا بوثيقة الصلح[1] ٠

---

(١) ابن عبد الهر : الدرر ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ٠

وثارت نفوس بعض المسلمين إثر كتابة العهد ، وقد رأوا أن رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت عمل لا يليق بهم ، إذ كانوا لا يشكون في ذلك لرؤيا رسول الله ، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم ، على أن أحدا لم يجرؤ على مفاتحة الرسول فى شأن ذلك الصلح ، حتى قام عمر ، وقد طوعت له جرأته أن يسأل الرسول وقال له : ألست رسول الله ؟ قال : بلى، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فأجاب بقوله : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى(١) ٠

ولما فرغ رسول الله من أمر الصلح دعا المسلمين إلى القيام بالشعائر التى يقوم بها الحجاج والمعتمرون ، وهى نحر الهدى ، وحلق شعر رءوسهم ، والتحلل من إحرامهم ، ولكن لم يجب أحد إلى ذلك فى بادئ الأمر ، بسبب استيائهم من عودتهم إلى المدينة دون أن يؤدوا العمرة، ولكنهم ما لبثوا أن اقتدوا به حين شرع فى نحر هديه بنصيحة أم سلمة زوج الرسول ، فسارعوا إلى هديهم ينحرونه(٢) ٠

ثم أمرهم رسول الله بالرحيل إلى المدينة ، وبينما هم فى الطريق أنزل الله على رسوله سورة الفتح ، فتلا على أصحابه قوله تعالى :" **إنا فتحنا لك فتحا مبينا ٠ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ٠ وينصرك الله نصرا عزيزا** " (٣)٠

وقد فرح المسلمون بنزول هذه السورة ، وأقبلوا على الرسول يهنئونه ، وأطمأنوا عندئذ أن صلح الحديبية فتح مبين ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣١٧ ٠
(٢) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٠٧ ٠
(٣) سورة الفتح ، الآية ١-٣ ٠

نتائج صلح الحديبية :

إذا نظرنا لشروط صلح الحديبية نرى فى ظاهر الأمر أن غالب هذه الشروط كان فى صالح قريش ، ولذلك غضب واستاء بعض الصحابة من قبول رسول الله لهذه الشروط ، لأنهم نظروا للإتفاقية على ظاهر أمرها ، دون إمعان فى خلفية كل شرط من شروط الصلح ، لكن الرسول الكريم وافق على شروط الصلح موافقة الواثق العارف ببواطن الأمور ، دون خوف من مظاهرها الشكلية ٠

وكذا كان البعض الآخر من الصحابة على يقين من بصيرة النبى صلى الله عليه وسلم وحكمته البالغة ، ولذلك سارعوا فى التسليم بما وافق عليه النبى من شروط ٠

وبالفعل انكشف غموض هذه الإتفاقية مع مرور الزمن لنرى أعظم الآثار والنتائج الباهرة التى حصدها المسلمون ، وجنوا ثمارها الطيبة من خلال موافقة الرسول لشروط صلح الحديبية ٠

ومن أهم هذه النتائج:

١- إن الهدنة فتحت الطريق أمام المسلمين لينشروا دينهم ، وليشرحوا للعرب فى شتى أنحاء الجزيرة مبادئ شريعتهم ، وأهداف رسالتهم ٠

٢- أتاحت الهدنة الفرصة أمام مشركى قريش خاصة وأمام مشركى العرب على سبيل العموم إلى التفكير فى هدوء عما يدعوا إليه محمد ، وما يستهدفه ويرمى إلى تحقيقه ، ولذلك نرى دخول عدد كبير من مشركى قريش وغيرهم فى الإسلام بعد صلح الحديبية٠ وكان إسلام كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص بعد

صلح الحديبية من أعظم نتائج هذا الصلح(١)، إذ كسب الإسلام بـــهما قائدين كبيرين كان لهما أعظم الأثر فى الفتوحات الإسلامية فيما بعد، كما أسلم معهما عثمان بن طلحة العبدرى

٣-أتاحت الهدنة أيضا أن يخطو النبى عليه السلام الخطوة الثانية فـــى الدعوة إلى دينه ، فبعد أن كان لا يخاطب إلا قريشا وغيرها مـــن القبائل العربية ، أخذ يرسل رسله وكتبه إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام ٠

٤-كان لوقوف قريش على الحياد ــ بسبب الهدنة بين رسول الله وبيــن أعدائه ــ له أعظم الأثر فى الإنتصارات التى حققها المسلمون علــى أعدائهم من اليهود والقبائل العربية فيما بعد صلح الحديبية ٠

٥-كانت موافقة قريش بزيارة المسلمين للبيت الحرام ، وأدائهم المناسك، بمثابة اعتراف منها بدين محمد ، ولو أنها أجلت إلى السنة التالية ٠

٦-كسب المسلمون حلفاء جدد من سكان مكة بدخول قبيلة خزاعة فـــى عقد محمد وعهده ، إذ أصبحوا عيونا للمسلمين فى مكة وما يجـــرى حوليا ٠

٧-كذلك كان لصلح الحديبية ، وما تبع ذلك من أمن وأمان فى ربـــوع الجزيرة العربية أثره الفعال فى عودة البقية الباقية مـــن مـــهاجرى الحبشه ٠ فقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم إعادتهم من نجاشى الحبشه وكان رسوله إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى ، فحملهم فى سفينتين ، وقدم بهم أثناء وجود الرسول الكريم بخيبر (٢)٠

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢٩ ــ ٣١ عن إسلامهم أنظـــر ، المقريزى : امتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٣٤١ ٠

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٥٩ ، وأنظر عن هذه النتائج ، محمد بـن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشـــاد ، جــــ ٥ ص ١٠٤ ــ ١١١ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ٠

٨- حتى الشرط الذى وضح فى جلاء أنه فى صالح قريش ، والذى أثار حفيظة المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب وغيره ـ وهو الشرط الذى يقول : من أتى محمدا من قريش مسلما من غير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ـ لم يلبث هذا الشرط أيضا إلا يسيرا حتى ضجت منه قريش ، بل وناشدت النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يأبه له ، ولا يستمر فى تطبيقه وتنفيذه ٠

وكان السبب فى هذا يرجع إلى أن أبا صير بن عتبة بن أسيد الثقفى أعلن إسلامه ، وفر بدينه إلى المدينة ، فأرسلت قريش فى أثره كتابا مع خنيس بن جابر من بنى عامر ، ومعه مولى يقال له كوثر، تطلب فيه إعادة أبا صير تنفيذا للعهد ، فرده رسول الله مع رسول قريش عملا للعهد المعقود بينهما ، وذلك على الرغم من مناشدته الرسول حتى لا يرده إلى المشركين فيفتنوه فى دينه ٠

ولكن أبا بصيرا استطاع بخدعة أن يقتل حارسه ، ويعود إلى المدينة ، إلا أن رسول الله على الرغم مع سعادته لشجاعة أبى بصير ، لم يقبله فى المدينة ، فخرج أبو بصير من المدينة حتى نزل العيص بساحل البحر(١) على الطرق الذى تمر منه عير قريش إلى الشام ، وبلغ خبره المسلمين الذين حبسوا بمكة ، فتسللوا إليه عند العيص ، ومنهم أبو جندل بن سهيل الذى أصبح أميرا عليهم ، حتى بلغ من اجتمع به هناك قريب من سبعين رجلا مسلما فارين من مكة ، فكان يصلى بهم ويقرئهم ، وهم له سامعون مطيعون ثم انضم إليهم عدد من القبائل المحيطة حتى أصبح عدد

---

(١) صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٢ ص ٩٧٥ ٠

من بالعيص ثلاثمائة فضيقوا الخناق على قريش ، فلا يظفرون بأحد منـــهم إلا قتلوه ، ولا تمر عير إلا اقتطعوها .

ومما قاله أبو جندل فى هذا الشأن :

أبلغ قريشا عن أبى جندل	**أنا بذى المروة فى الساحل**
فى معشر تخفق راياتهـــم	**بالبيض فيها والقنا الذابــل**
يأبون أن تبقى لهم رفقـــة	**من بعد إسلامهم الواصــل**
أو يجعل الله لهم مخرجـــا	**والحق لا يغلــب بالباطــل**
فيسلم المرء بإســـلامـــــه	**ويقتل المــــرء ولم يأتــل [١]**

فشق ذلك على قريش وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وســـلم يحلفونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير ومن معه إليه بالمدينة ، فلا حاجـــة لهم بهم ، فكتب رسول الله إلى أبى بصير أن يقدم بأصحابــــه ، فوصلـــه الكتاب وهو يموت ، فدفنه أصحابه وأقبلوا إلى المدينة [٢] .

ب – عمرة القضاء (ذى القعدة سنة ٧ هـ)

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابـــه إلـــى المدينة بعد غزوة خيبر فى ربيع الأول من السنة الســـابعة للـــهجرة [٣]، وأقام بها حتى نهاية شوال من نفس السنة ، وقد أرسل أثناء هذه المدة عددا من السرايا بقيادة بعض أصحابه إلى بعض القبائل العربيـــة فـــى أنحـــاء الجزيرة العربية .

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ١٠٢ .
(٢)ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، محمد منير الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، جـ ٣ ص ٤٠ ـ ٤٤ .
(٣) انظر ما يأتى ص ٢٣٧.

وفى ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ، وبعد مضـــى عـام كـامل لمعاهدة الحديبية أمر رسول الله أصحابه الذين شهدوا الحديبية بـــالخروج معه إلى مكة ليعتمروا ، قضاء للعمرة التى صدهم المشـــركون عنـــها — وكانت قريش قد أذنت له فى صلح الحديبية أن يؤدى العمرة فـــى العـــام القابل — فلبى المسلمون دعوته ، ولم يتخلـــف عنـــه إلا الرجـــال الذيـــن استشهدوا بخيبر ، والذين ماتوا ، كما سارع بالخروج معه أيضا من يريـد العمرة من الرجال من غير أهل الحديبية ، فبلغ عدد المسلمين ألفين سـوى النساء والصبيان [١] .

ولما بلغ المسلمون مكة نفذت قريش مـــا أخذتـــه علـــى نفســـها ، فصعدت فى التلال حيث ضربت الخيام ، حتى لا يقع مـــا يعكـــر صفـــو العلاقات بين الطرفين ، إلا أن بعض القرشين وقفوا عند دار الندوة تتطلع إلى المسلمين أثناء طوافهم ببيت الله الحرام ، وقد اتخذ المسلمون الحيطـــة لدرء أى خطر يتعرض له الرسول أثناء طوافه حول الكعبة ، وسعيه بيـــن الصفا والمروة ، فظلوا على حراسته خشية أن يعتدى عليه أحـــد ســـكان مكة .

وأقام الرسول ومن معه بمكة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث جاء إلى رسول الله حويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو فى نفر من قريـــش ، وكانت قريش قد وكلت حويطبا فى إخبار رسول الله بانقضاء المدة التـــى إتفق عليها الفريقان فى صلح الحديبية ، فأمر رسول الله المسلمين بـــالعودة

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٧٣ ، ابن حجـــر العســـقلانى : فتـــح البارى ، جـ ٧ ص ٧٠٠ .

إلى المدينة ، بعد أن أتموا فرائض العمرة ، وزيارة المـــهاجرين دورهـــم التى تركوها [١] .

فوصلوا إلى المدينة فى ذى الحجة من نفس السنة ، وبعد وصولـــهم بقليل فرض الحج[٢] على المسلمين ، ليكون بذلك نـــزول آخـــر أركـــان الإسلام .

ومن الواضح أن فرض الحج ــ وهو الركـــن الخـــامس والمتمـــم لأركان الإسلام ــ نزل فى توقيت مناسب جدا للنبى صلى الله عليه وسلم؛ إذ نزل فى وقت أصبح فى الإمكان للمسلمين دخول مكة المكرمة فى أمـــن وسلام ، وذلك بسبب صلح الحديبية ، ولولاه لكان فرض الحج بلا معنـــى فى هذا التوقيت .

ونزل فى عمرة القضاء قوله تعالى :" **لقد صدق الله رسوله الرؤيـــا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شـــاء الله آمنيـــن محلقين رءوســـكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** "[٣]

ومن الواضح من ذلك أن صلح الحديبية كان فتحا عظيما ، وبدايـــة لأعظم الفتوح .

جـ ــ فتح مكة (رمضان سنة ٨ هـ)

لم يمض على صلح الحديبية الذى تم بين الرسول صلى الله عليـــه وسلم وقريش سوى اثنين وعشرين شهرا حتـــى نقضـــت قريـــش هـــذه المعاهدة، وكان ذلك عقب سرية مؤتة التى اعتبرها أعداء الإســـلام مـــن القرشيين وغيرهم هزيمة ساحقة لحقت بالمسلمين ، كما رأوا أن محمـــدا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٧٠ ــ ٣٧٢ .
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٢٥٤ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

وأتباعه بلقائهم للرومان فى معركة مؤتة قد عرضوا أنفسهم لأخطار جمة لا قبل لهم بها [١]٠

ومن هنا كان منطلق قريش وحلفائها ، فى التحلل من قيود معاهدة الحديبية دون تدبير ونظر ، لعواقب نقض عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

كيف نقضت قريش عهدها :

كانت بين خزاعة التى انضمت إلى محمد صلى الله عليه وسلم إثر صلح الحديبية ، وبين بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، والتى حالفت قريشا ثارات قديمة ، وإحن عظيمة ؛ وذلك قبل ظهور الإسلام فى مكة وكان آخر قتلى الفريقين من جانب بنى بكر إذ عدت خزاعة قبيل الدعوة الإسلامية على بنى الأسود بن رزن الديلى ــ وكانوا من أشراف بنى بكر ــ فقتلت منهم ثلاثة عند عرفة ، وكانوا إخوة [٢] ٠

فلما ظهر الإسلام عقب ذلك ، إنشغل الناس بهذا الدين الجديد ، ونسوا ثاراتهم لبعض ، وما بينهم من إحن بعد ما أصبحت الأولوية عند أهل مكة وما حولها قتال محمد والقضاء على ما جاء به ٠

فلما كان صلح الحديبية ، وأصبحت هناك هدنة بين المسلمين وبين مشركى مكة ، وهدأت النفوس المتأججة نارا ضد الإسلام ورسوله ٠ بدأت بنو بكر تستعيد ذكرى ما كان لها من ثأرات عند خزاعة فانتهزت هذه الفرصة ــ وبالأخص بعد معركة مؤتة ــ التى التقى فيها المسلمون بجموع الروم وعرب الشام ، وأرادت أن تصيب من خزاعة ثأرها القديم٠

وطلب بنو الديل من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فوافقت قريش على هذا ومدوهم بالسلاح وبعض الأفراد من

---

(١) انظر ما يأتى ص ٢٧٥ ــ ٢٧٨

(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ٠

قريش ، كان فيهم صفوان بن أمية ، ومكرز بن حفص ، وحويطب بـــن عبد العزى ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومعـــهم جميعــا أرقاؤهم[١].

وخرج هذا الجمع ليلا متنكرين ، وهم يظنون أن خـــبرهم ســوف يخفى عن محمد وأصحابه ٠

وعلى غرة وثبت بنو بكر ــ بقيادة نوفل بن معاوية الديلى ــ ومن معهم من القرشيين ليلا على خزاعة ، عند ماء يقال له الوتير ، وهم قيــام يتهجدون فى أمان ، وأعملوا فيهم وفى نسائهم وأولادهم السيف ، ولـــهول المفاجأة فرت خزاعة نحو الحرم ، وبنو بكر ومن معهم من قريـــش مـــن ورائهم يقتلون من لحقوا بهم من النساء والصبيان والشيوخ حتـــى بلغــت قتلاهم ثلاثة وعشرين نفسا ، ولما لم ترتدع بنو بكر وشركاؤهم بـــالجرم ، ولم يراعو حق الحرم من عدم سفك الدماء عنده التجأت خزاعة إلـــى دار بديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم اسمه رافع [٢] ٠

وبذلك نقضت قريش عهدها مع الرسول صلـــى الله عليــه وســلم وضربت بشروط صلح الحديبية عرض الحائط ، وهم فـــى غفلــة مـــن أمرهم٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٤٤ ٠
(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٤٦٧ ٠

شكوى خزاعة لرسول الله :

وأمام هذا الاعتداء السافر على خزاعة من قبل بنى بكر وحلفائها القرشيين ، سار عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا من خزاعة إلى المدينة ، ودخل بمن معه المسجد ، ووقف بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان جالسا بين أصحابه فأنشد عمرو مستصرخا :

يا رب إنى ناشدا محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا ولدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعد
ونقضوا ميثاقك الموكدا وجعلوا لى فى كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا سجدا

فعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : نصرت يا عمرو بن سالم ·

ثم وفد إلى رسول الله بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، فأخبروه باعتداء بنى بكر عليهم ، ومظاهرة قريش لهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة[١] .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٤٤ ، ٤٥ .

ندم قريش :

شعرت قريش بعد فوات الأوان بمدى جرم فعلتها بمعاونتــها بنـــى بكر على خزاعة ، ورأت أن ما فعلته نقض صريح للعهد الذى بينهم وبين الرسول ، فندمت ندما شديدا ، وأخذت فى لوم أولئك النفر الذين شــاركوا بنى بكر فى قتال خزاعة [١] .

ثم استقر قرار قريش ــ بعد أن انتابهم الخوف والهلع والرعـــب ، من رد الفعل المنتظر من رسول الله ــ فى أن يوفدوا أبا سفيــــان بــن حرب إلى المدينة ، ليفاوض الرسول فى تجديد معاهدة الحديبيــة ، ومــد أجلها . فقدم أبو سفيان ضارعا متذللا وحاول مقابلة الرسول ، فــأعرض عنه ورفض طلبه ، وقال :" نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل " حتى ابنته أم حبيبة زوج الرسول لم تستقبله استقبالا طيبا علــى الرغم من طول الفراق بينهما .

فأراد أبو سفيان أن يجدد مسعاه لدى أبى بكر ، فعمر ، ثم علـــى ، لعل النبى يقبل رجاءهم ، فرفضوا أن يحدثوا الرسول فى شئ لا يوافـــق عليه ، ونصحه على ــ بعد أن يئس أبو سفيان من ملتجئ يلتجئ إليــه ــ أن يجير بين الناس ويعود إلى مكة ، فقام أبو سفيان وخرج وصاح بيـــن ظهرى الناس : ألا أنى قد أجرت بين الناس ، ولا أظن أن محمدا يحقرن، ثم ركب راحلته وانطلق إلى مكة مسرعا ،[٢] وعلمـــت قريــش بفشــل مسعاه.

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

جهاز الرسول وأصحابه للخروج إلى مكة :

لم يكن هناك بديل لرسول الله صلى الله عليه وسلم — بعد نقض قريش لعهده ، وبعد شكوى خزاعة واستنجادها به — إلا الخروج إلى مكة،لاستئصال شأفة المشركين من مكة من جهة ، وللدفاع عن حلفائه من خزاعة من جهة أخرى ، وحتى يطمئن كل متحالف معه أنه وأصحابه من المسلمين على قدرة فى الدفاع عنه وحمايته .

فلما رجع أبو سفيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته عائشة أن تجهزه بجهاز الحرب ، ثم أمر سائر الناس بالتهيؤ بجهاز الحرب والاستعداد للخروج من مكة ، وبعث رسلا إلى القبائل الضاربة حول المدينة للحضور إلى المدينة فى رمضان ، فوافاه بالمدينة قبائل أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع ، ثم لحقت بهم قبائل أخرى فى الطريق (١)

وحينما أجمع الرسول المسير إلى مكة — وكان ذلك فى سرية تامة، حتى يباغت الرسول القرشيين فى عقر دارهم دون أن يعلموا شيئا من أمر خروجه — أرسل حاطب بن أبى بلتعة كتابا مع إمرأة إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين ، فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها، ثم سأل حاطبا عن سبب كتابته هذا الكتاب ؛ فاعتذر قائلا :

أما أنى لم أفعل غشا يا رسول الله ولا نفاقا ، قد علمت أن الله مظهر رسوله ، ويتم له أمره ، غير أنى كنت عريرا — غريبا — بين ظهريهم وكانت والدتى معهم ، فأردت أن أتخذ هذا عندهم ، فقال له عمر

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

: ألا أضرب رأس هذا ، قال : أتقتل رجلا من أهل بدرا ، ما يدريك لعل الله عز وجل قد أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم(١).

المسير إلى مكة

وفى النصف الأول من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المسلمين قاصدا مكة ، وبلغ عددهم عشرة آلاف رجل حتى نزلوا بمر الظهران قريبا من مكة .

وفى أثناء سير الرسول وأصحابه وقبل نزوله بمر الظهران لقى الرسول عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بعياله عند الجحفة ، ثم بعد مرحلة من مراحل الطريق لقى الرسول أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبى عليه الصلاة والسلام ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، وأرادا الإسلام فأعرض عنهما الرسول فى بادئ الأمر ، ولما ألحا عليه واعتذرا له أذن لهما بمقابلته ، وصفح عنهما ، وأسلما بين يديه(٢).

ومن هذا وذاك نرى أن قريشا كانت تشعر بأن محمدا لابد وأن يقوم بشئ إيجابى بعد أن فعلت فعلتها ، ولكن عميت عليهم الأخبار ، فلم يعلموا بشيئ من مسير المسلمين ، ومن أبلغ الظواهر على هذا الشعور لدى قريش خروج أبى سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، ليتجسسوا الأخبار بينما كان المسلمون بمر الظهران .

---

(١) أحمد بن حنبل : السيرة النبوية ، جـ ٢١ ص ١٤٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٢ ص ٩٢ .

وفى نفس الوقت سار العباس بعد مقابلته الرسول يبحث عن رجــل يبعثه إلى قريش ، ليأخذوا حذرهم ، ويبادروا بالاستســـلام ، فلقـــى فـــى الطريق أبا سفيان بن حرب هائما على وجهه مع أصحابه ، فأردفه العباس على عجز بغلته ، وسار به سيرا حثيثا ليستأمن له الرسول ، وخـــاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه ٠

فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبى سفيان فقال العباس : يا رسول الله قد أمنتـــه فقال للعباس : اذهب به إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأت به ٠ ولما جاء بـــه فى الصباح بادر الرسول أبا سفيان قائلا : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمـــى مـــا أحلمـــك وأوصلـــك وأكرمك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله آخر لقد أغنى عنى شـــيئا بعد؛قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قـال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فـــإن فـــى النفس منها حتى الآن شيئا فقال له العباس : ويحك ! أسلم قبل أن تضـرب عنقك٠ فأسلم أبو سفيان ، وعندئذ قال العباس لرسول الله : يا رســـول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، فقال عليه السلام : مـــــن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ٠

ثم أطلق أبا سفيان فرجع إلى مكة مسرعا ، ونادى بأعلى صوتــه : يا معشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم ، وأعلن لهم كلمة الرســـول ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجدة [١] ٠

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ٠

ثم واصل الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرته بالمسلمين نحو مكة، ولما اقترب منها اتخذ كل ما لديه من أهبة وحذر ، فقسم جيشه أربعة أقسام ، وجعل كل قسم منها يدخل مكة من جهة معينة ، ليقضى على ما يصادفه من مقاومة ، ولم يقع قتال يذكر بين الفريقين إلا مناوشات بسيطة بين القوة الإسلامية التى دخلت مكة من أسفلها — وعلى رأسها خالد بن الوليد — وبين بعض المشركين وعلى رأسهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو وأصيب فيها من المسلمين ثلاثة ، ومن المشركين ثلاثة عشر رجلا ٠

وانتهت هذه المناوشات بانتصار المسلمين ودخولهم مكة من جميع جهاتها ٠ ودخل رسول الله بمن معه من جند من أعلى مكة المكرمة ٠ واضعا ذقنه على راحلته فى تواضع وخشوع ، وشاكرا لله أن أعانه فى فتح مكة ؛ لتصبح الكعبة الشريفة خالصة للمسلمين (١) ٠

وكان ذلك فى صباح الجمعة لعشر بقين من رمضان فى السنة الثامنة من الهجرة النبوية (٢).

ولما اطمأن الناس وهدأت النفوس ، سار رسول الله إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحه بعد لأى منه ثم من أمه ، ودخل البيت ، وأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة ٠

---

(١) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ ١ ص ٤٨٠ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٤٣٧ ٠

ثم جاءته قريش ، وأسلموا بين يديه ، وبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله . وعلى عكس ما كان يتوقع القرشيون عاملهم الرسول بكثير من الكرم والتسامح ، ونادى عليهم قائلا : يا معشر قريش ما تظنون أنـــي فاعل بكم ، قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال: اذهبـــوا فـــأنتم الطلقاء [١] .

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فجـــاء إليـــه على بن أبى طالب وطلب أن يجمع لهم أى بنى هاشم الحجابة مع السـقاية وكانت الحجابة فى بنى عبد الدار منذ أيام قصى فقال رســـول الله: أيـــن عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

والغرب أن عثمان كان قد منع النبى من دخول الكعبة قبل الـــهجرة مع الناس . فقال النبى لعثمان ساعتئذ : " يا عثمان لعلـــك ســـترى هـــذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت " صدق رسول الله [٢] .

أحداث ما بعد الفتح :

لما استقرت مكة فى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم منح الأمـــان لكل أهلها عدا نفر قليل منهم ، إذ كانوا ذوى جرائم خاصة ، وأهدر دمـــهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة ومنهم عبد العزى بن خطل ، وعبد الله بن أبـــى السرح ، وهبارة بن الأسود وعكرمة بن أبى جهل ، والحويرث بن نقيـذ ، ومقيس بن صبابة ، وقينتين لابن خطل ، وسارة مولاة لبنى عبد المطلب .

---

(١) ابن هشام السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٤١١ ، ٤١٢ .
(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـــ ٥ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

فأما ابن خطل ـ وهو من بنى تيم ـ فكان قد أسلم ، وبعثه النبى لجمع الصدقات ، وأرسل معه رجلا من الأنصار لمعاونته ، فغضب عليه غضبة فقتله ، ولحق بالمشركين ، فوجد يوم الفتح متعلقا بأستار الكعبة ، فقتله سعيد بن حريث المخزومى ، وأبو برزة الأسلمى [١] .

وأما عبد الله بن أبى سرح ، فكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فارتد ، ثم لحق بمكة واختفى يوم الفتح ، فأتى به عثمان بن عفان فكان أخاه من الرضاعة فاستأمن له رسول الله ، فأمنه وبايعه ، وذلك بعد أن توقف الرسول ساعة دون أن يعطيه الأمان عل أحد يقتله ، فأسلم وحسن إسلامه .

وهبارة بن الأسود : وكان شديد الأذى للمسلمين فى مكة ، وعرض لزينب بنت رسول الله لما هاجرت فنخس بها فاسقطت ، ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت . فلما كان يوم الفتح وبلغه أن رسول الله قد أهدر دمه ، فأعلن بالإسلام وجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم طالبا العفو ، فقبل منه رسول الله وعفى عنه .

أما عكرمة بن أبى جهل ، فكان من أشد الناس على الإسلام إلى يوم فتح مكة ، حتى أنه جمع جمعا لقتال المسلمين ، فهزمه خالد بن الوليد فى أسفل مكة بعد أن قتل نفر من الطرفين .

فلما انهزم عكرمة فر إلى بلاد اليمن ، فاتبعته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وذلك بعد أن استأمنت له النبى صلى الله عليه وسلم ، فعادت به إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه .

---

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٨٤ .

أما الحويرث بن نقيذ ، فكان يؤذى رسول الله بمكة ، فقتله على بن أبى طالب يوم الفتح ٠

أما مقيس بن صبابة ، فقد أتى إلى المدينة وأعلن إسلامه ، وبعد برهة عدى على أحد المسلمين فقتله أخذا بالثأر ، ثم فر إلى مكة ، فقتله يوم الفتح نميله بن عبد الله ، وهو ابن عمه ٠

أما قينتا ابن خطل ، فرتنى وقريبة فكانت تغنيان بهجو النبى صلى الله عليه وسلم ، فقتلت إحداهما (قريبة) ، واستؤمن للأخرى فرتنى فأمنها النبى الكريم ، فعاشت إلى أن ماتت بعد ذلك بمدة ٠

أما سارة ، فكانت تؤذى رسول الله بمكة ، وقيل أنها التى حملت كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش لإخبارهم بمسير رسول الله إلى مكة، فقبض عليها فى الطريق ، ثم هربت إلى مكة ، فاستؤمن لها أيضا فأمنها رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ٠

ومن أحداث ما بعد الفتح أيضا :

نهى رسول الله الهجرة عن مكة بعد فتحها ، وأبقى سقاية الحجاج فى يد العباس ، وسدانة الكعبة فى يد عثمان بن طلحة ٠

كذلك أعلن الرسول حرمة مكة ، فحرم سفك الدماء بها ، وقطع شجرها ٠

ثم أرسل بعض سراياه إلى ظواهر مكة لدعوة أهلها إلى الإسلام ، وللقضاء على معالم الوثنية بها ، فبعث هشام بن العاص إلى يلملم ، وخالد

---

(١) أنظر عن كل ما سبق ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٨٣ — ١٨٥ ٠

بن سعيد بن العاص إلى عرنه ، وخالد بن الوليد إلى العزى بنخلة فهدمها، وأنفذ عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل فهدمه[1] .

ونادى منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يدعن فى بيته صنما إلا كسره ، أو حرقه ، وثمنه حرام، وكانت بيوت قريش فى مكة لا تخلو من الأصنام ، فسارع المسلمون إلى كسرها والتخلص منها .

ومن هنا كان فتح مكة حدا فاصلا بين الكفر والإسلام ، فإن قريشا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره ، والعرب فى ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى الجزيرة العربية، وانتشار الإسلام فى ربوعها[2].

---

(١) ابن عبد البر : الدر ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٦٠ .

(٣)

بين الرسول وهوازن وثقيف

وقبائل عربية أخرى

١- بين الرسول وهوازن وثقيف

كانت هوازن من قيس عيلام من العرب المستعربة ، وقد استقرت منذ زمن بعيد فى البادية الواقعة فى شرقى مكة ، وعاش الرسول جزءا من طفولته بينها ، وذلك لأن حليمة السعدية كانت من بنى سعد التى تنتمى لإحدى بطون هوازن [١].

وكذلك كانت ثقيف — التى سبق ذكرنا لها — إحدى بطون هوازن إلا أنها تركت البادية ، واستوطنت مدينة الطائف ، وقد علمنا فيما مضى أن ثقيفاً لم تمكن الرسول من الاستقرار فى الطائف ، كما أنها لم تقبل دعوته لها بالدخول فى الإسلام ، بل آذته كثيرا حتى اضطر إلى العودة إلى مكة .

وكانت هوازن وفرعها ثقيف من أهم حلفاء قريش ، وشاركتا قريشا فى حروبها ضد المسلمين حتى فتح الله لرسوله مكة المكرمة ، وانتشر الإسلام فيها ، وما حولها من المناطق المحيطة بها ، واقترب الإسلام حينئذ بجنوده الأبرار من القبيلتين ، ولم يعد لهما بعدئذ غير الإسلام ملجأ، أو العناد والدخول فى قتال ضد المسلمين ، واختارتا القتال بدلا من السلام.

---

(١) ابن حزم جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ص ٣٤٠ .

١- غزوة حنين (شوال سنة ٨ هـ)

رأت هوازن ـ بعد أن شاهدت بعينها الأحداث المفاجأة ، والتى تتابعت بأسرع ما كانت تتصور من فتح مكة ، وإسلام أهلها ومن حولها ـ أن الرسول لابد وأن يفكر فى مهاجمتها ، انتقاما منها لمساعداتها الجمة لقريش فيما سبق ، فاجتمعت إلى أحد زعمائها وهو مالك بن عوف النصرى ، ودخلت معها فى ذلك ثقيف ، وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب الرسول قبل أن يتحرك هو إليهم .

وساقوا معهم على عادة العرب فى الجاهلية أموالهم ونساءهم ليكون ذلك حافزا لهم على الاستبسال فى الحرب ، ولم يعن مالك بن عوف سيد القوم اهتماما لرأى دريد بن الصمة ـ وكان شيخا معمرا ذا خبرة وتجارب ـ وكان من رأيه عدم سوق الأموال والنساء والأولاد فى حربهم ، حتى لا تكون غنيمة سهلة فى يد المسلمين إذا انهزموا أمامهم [١] .

فلما سمع رسول الله بما أجمعت عليه هوازن و ثقيف ، خرج من فوره فى يوم السبت لست من شوال لصد خطرهم على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألفا ، منهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، الذين فتح الله بهم مكة ، وألفان من القرشيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح ، واستعار الرسول من صفوان بن أمية ـ وكان لا يزال على الشرك ـ مائة درع[٢].

---

(١) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .
(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٨٩ .

وسار الرسول بجيشه شرقا حتى وصل بمن معه إلى حنين [١] فـــى ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال سنة ٨ هـــ ، وكـــانت هـــذه المنطقـــة منطقة جبلية وتتخللها أودية وشعاب ، وعسكر النبى عليه الصلاة والســلام بجيشه العظيم بحنين وقد داخل المسلمين — بسبب كثرتهم — شــــئ مـــن الخيلاء والزهو والإعجاب وأما هوازن وثقيف فقد كمنوا فى شعاب الوادى وجوانبه ومضايقه واستعدوا للحرب .

ولما سار المسلمون لمهاجمتهم فى الصباح البـــاكر ، والضـــوء لا يزال يخالطه بعض الظلام ، فاجأتهم بطون هوازن و ثقيف بانقضاضـــــها عليهم من شعب الوادى ، ففزع المسلمون ، واختل نظامهم ، ولـــم تغـــن عنهم كثرتهم شيئا ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ثم ولوا مدبريـــن إلا عددا قليلا منهم ثبتوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فـــأخذ الرسول ينادى قائلا : هلموا إلى أيها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله، ولما وجد الرسول نداءه لم يصل إلا إلى آذان عـــدد قليـــل مـــن المسلمين ، أمر عمه العباس — وكـــان جـــهير الصـــوت — أن ينـــادى المسلمين، فصرخ العباس يا معشر الأنصار ، فأقبل المسلمون على نـــداء العباس شيئا فشيئا ، والتفوا حول رسول الله ، واســـتأنفوا القتـــال فـــأبلى المسلمون بلاء حسنا ، ولم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزمـــوا عدوهـــم هزيمة منكرة ، وولوا مدبرين بدورهم تاركين أموالهم وذراريهم غنيمة [٢] فى أيدى المسلمين ، وتفرقت فلولهم المنهزمة إلى جهات ثلاث ، فذهـــب

---

(١) وادى قريب من مكة صفى الدين البغدادى : مراصـــد الاطـــلاع ، جـــ ١ ص
(٢) كان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا،والغنم أكثر من أربعيـــن ألفا شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ،الكتبى :عيون التواريخ ،جـــ١ ص ٣٢٨ .

مالك بن عوف ببعضهم إلى الطائف ، وبعضهم اتجه إلى سهل أوطاس ، واتجه البعض الأخير إلى نخلة ــ فوجه رسول الله عددا من جند المسلمين لتعقب من فر من العدو إلى أوطاس ونخلة ، فقضى المسلمون على هذين الفريقين(١) .

٢-غزوة الطائف (شوال سنة ٨ هـ)

لم يشأ النبى أن يشغل المسلمين بالغنائم قبل إجهازهم على مالك بن عوف ومن تبعه الذين فروا إلى الطائف ، فأمر بجمع الغنائم ووضعها فى مكان يقال له الجعرانة (٢) حتى يفرغ من أمر العدو ، ثم تأهب إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف الذين لجأوا إليها بقيادة مالك بن عوف ، وكانت الطائفة مدينة محصنة ، يحيط بها سور يحول دون اقتحامها .

فلما عسكر الرسول بجند المسلمين على مقربة من حصن الطائف لحصارها رماهم أهل ثقيف بالنبل ، وأصابوا بعض جند المسلمين ، فأمر الرسول أصحابه بالتقهقر قليلا بعيدا عن مرمى نبال المشركين ، مكتفيا بحصارهم .

وصمدت ثقيف لحصار المسلمين الذى امتد حوالى ثمانية عشر يوما وظلت ترمى المسلمين بالنبال مطمئنة إلى مناعة أسوارها ، ووفرة المؤن والغذاء فيها ، ونصب رسول الله المنجنيق ورماهم به ، كما استخدم الدبابات والضبور للاقتراب من أسوار المدينة ، إلا أن المسلمين لم يتمكنوا

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٢١٦ -٢١٩ .
(٢) الجعرانة : ماء بين مكة والطائف ، وهى إلى مكة أقرب ، ياقوت : معجم البلدان ، فى باب الجيم .

من ذلك حيث ألقت عليهم ثقيف ـ من فـوق الحصـن ـ قطـع الحديـد المحمية فأحرقت دبابات المسلمين وضبورها فأمر رسول الله بقطع أعنابهم فأخذ الناس فى قطعها ، ثم أمر الرسول بتركها[١] .

فك الحصار عن الطائف :

وظل الحال على هذا الوضع ، حصار شديد من جانب المسـلمين وصمود مستميت من جانب ثقيف ، حتى اقترب شهر ذى القعدة (وهو من الأشهر الحرم) فأمر رسول الله عندئذ بفك الحصار عن الطائف ، حتـى يعاود الكرة مرة أخرى بعد انقضاء الأشهر الحرم ، ثم انصرف عائدا الى الجعرانة ، ليقسم الغنائم التى اغتنمها فى غزوة حنين ، فوصل إليها فـى الخامس من شهر ذى القعدة[٢].

٣-لقاء الرسول بوفد هوازن :

وفى أثناء إقامته – صلى الله عليه وسلم – بالجعرانة قدم إليه وفـد هوزان ، وأعلنوا إسلامهم وإسلام قبيلتهم ، ثم توسلوا إليه أن يرد عليـهم ذراريهم وأموالهم ، وذكروه بالصلة الوثيقة التى تربطه بـهوازن ، فقـد قضى أيام طفولته عليه الصلاة والسلام بين قبيلتهم ، حيث أرضعته السيدة حليمة – وهى من هوازن – وقالوا له : يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك ، فأمنن علينا من الله عليك ، إنمـا فى هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٨٢ ـ ٨٤ ، الذهبـى : تـاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٥٠٠ .
(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٤٢٠ .

فخيرهم رسول الله بين رد السبى أو الأمـــوال ، فـــآثروا نســـاءهم وأولادهم على أموالهم . وحينئذ قال لهم رسول الله : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنـــا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنـــا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم .

وعقب صلاة الظهر تكلم وفد هوازن بما قال لهم الرسول ، فقـــال لهم النبى عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فـــهو لكم، فقال المهاجرون والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتمسك بعض الأعراب بنصيبهم من السبى ، إلا أن الرسول وعد الذين يخلون سبيل ما عندهم من السبى بنصيب مضـــاعف فـــى أول فيئ يفيئه الله عليه ، فوافق هؤلاء النفر [١] .

وبذلك رد عليه السلام إلى هوازن أبناءهم ونساءهم ، وليس بغريب أن يكون هؤلاء النفر الذين تمسكوا بسبيهم هم الذين خرجوا مع رسول الله من مكة فى حرب هوازن ، فهم ممن أسلموا يوم الفتـــح ، وليســـوا مـــن المهاجرين والأنصار الذين خالط الإيمان قلوبهم ، وقـــام الإســـلام علـــى أكتافهم .

ثم فرق رسول الله الغنائم فى المؤلفة قلوبهم من ســـادات قريـــش وغيرها من القبائل العربية ؛ ليتألفهم ويتألف بهم قومهم [٢] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق٢ ص٤٨٨ – ٤٩٠ .
(٢) ابن هشام : المصدر السابق ، ق. ٢ ص٤٩٢ ، ٤٩٣ .

٤-إسلام مالك بن عوف النصرى :

وبعد أن أعاد الرسول لوفد هوازن السبى من النساء والأولاد سأل الوفد عن سيدهم مالك بن عوف ، فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت إليه ماله وأهله ، وأعطيته مائة من الإبل . فلما أخبر مالك بذلك خرج من الطائف يريد الرسول وقد خاف مالك بن عوف على نفسه من ثقيف عند خروجه من الطائف أن يعلموا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال ما قال ، فيحبسوه فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له ، فأتى به إلى الطائف فخرج ليلا ، فجلس على فرسه ، فركضه ، حتى أتى راحلته فركبها ، فلحق برسول الله ، وأدركه بالجعرانة ، وقيل بمكة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم وحسن إسلامه . فاستعمله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم[١] .

ثم خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معتمرا من الجعرانة فأدى العمرة ، وانصرف بعد ذلك راجعا إلى المدينة ، بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد . وكان رجوعه إلى المدينة فى أواخر ذى القعدة أو فى بداية ذى الحجة [٢] .

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ٥ ص٥٨٨ – ٥٩٠ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٠٠ ابن عبد البر : الدرر ، ص٢٥١ ، ٢٥٢ .

٥-إسلام ثقيف

لم تسارع قبيلة ثقيف بالدخول فى الإسلام كما سارعت شريكتها هوازن إثر هزيمتهما المنكرة فى غزوة حنين ، بل داخلها شئ من الزهو والخيلاء بعد أن تركهم النبى ، وفك حصار مدينتهم بعد طول حصار - دون أن ينال منهم شيئا ، أو يكرههم على التسليم ، وظنت ثقيف أنها قد امتنعت بحصونها على محمد وأصحابه وأنتصرت عليهم ، ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها ، ليتركها نهبا لحصار أطول وأشد من قبل من حولها من القبائل العربية التى دخلت فى الإسلام ، إذ صارت ثقيف بتمسكها بالوثنية فى الطائف فى عزلة عن سائر عرب الحجاز حولها ، الذين أسلموا ، وانقلبوا من ألد أعدائها (١) .

ولما أحست ثقيف أنها لا طاقة لها بحرب من حولها من القبائل العربية الذين دخلوا فى الإسلام ، سارعت قسى إيفاد وفد من قبلها إلى رسول الله - فى عام الوفود - برئاسة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ليعرض عليه صلح ثقيف معه واتفاقهم على الدخول فى الإسلام .

وقدم وفد ثقيف على الرسول فى الشهر الذى عاد فيه من غزوة تبوك ، وهو شهر رمضان من السنة التاسعة . وعرضوا على الرسول إسلامهم ، وشرطوا عليه أن يعفيهم من الصلاة ، وأن يترك لهم طاغيتهم "اللات" لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، فعادوا وألحوا أن يتركها سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر ، فأبى، إلا أن رسول الله أعفاهم أن يهدموها بأيديهم ، وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة الثقفى لهدم "اللات" ، وعند عودة الوفد أقر

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ .

الرسول عليهم عثمان بن أبى العاص وكان أحدث الوفد سنا ، إلا أنه كـــان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، وكتب لهم الرسول كتابـا . فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ، وقال له ادخـــل أنت على قومك – إذ كان المغيرة ثقفى الأصل من بنى معتب – وحينمـــا شرع المغيرة فى هدم (اللات) قام بنو معتب يحمونه . وخرجت نســـاء ثقيف حسرا يبكين على صنمهم [١] .

وعلى الرغم من أن أهل الطائف قد حرصوا علـــى وثنيتـــهم كـــل الحرص – كما رأينا – ودافعوا وذادوا عنها بهذه الحماسة ، إلا أنهم بعـــد إسلامهم كانوا من أشد العرب حرصا على الإسلام وذادوا عنه ، وبالأخص فى محنة الردة ، حيث أصبح الإسلام مقصورا على أهل مكـــة والمدينـــة والطائف وقبيلة عبد القيس . فكانوا بذلك أخلص العرب للدين الإســـلامى وأشدهم حرصا فى التمسك به ، وأقربهم وفاء بعهد رسول الله وميثاقه [٢].

٢– بين الرسول والقبائل العربية الأخرى :

كانت للرسول صلى الله عليه وسلم مواقف غير التى ذكرناها سابقا، من بعض القبائل العربية الأخرى ، وذلك إما لوقوفها بجانب قريش تـــارة، أو لمساندتها لليهود تارة ثانية ، أو لعدوانها على بعـــض أنحـــاء المدينـــة المنورة تارة ثالثة ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق٢ ص٥٣٧ – ٥٤٣ ٠

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص١٤٧ ، جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية ، ص١٤١ ٠

ومن أهم هذه القبائل : قبائل غطفان التـي شـاركت فـي غـزوة الأحزاب ، وقبائل قارة وعضل وهذيل الذيـن اسـتغلوا فرصـة هزيمـة المسلمين فى أحد ، وأرادت النيل من المسلمين لصالح قريش وذلك فى ذكر يوم الرجيع ، وكذلك قبيلة بنى سليم التى شاركت عامر بن الطفيل - أحـد زعماء بنى عامر - فى قتل المسلمين عنـد بئر معونة ، كما - رأينـا ذلك سابقا .

وبخلاف أحداث أخرى لهذه القبائل وغيرها قد وضحت أحقـادهم للإسلام والمسلمين ، وإن لم ترق هذه الأحداث إلـى مسـتوى الأحـداث السابقة .

لذلك كانت للرسول - صلى الله عليه وسلم - مواقـف مـن هـذه القبائل وغيرها ، لتأديبها أو تحييدها . ومن هنا خرج الرسول عليه السـلام إليهم فى بعض الغزوات ، كغزوة بنى سليم بالكدر فى السنة الثانيـة مـن الهجرة ، وغزوة - ذى آمر - ضد بعض قبائل غطفان ، وذلك فى السـنة الثانية من الهجرة أيضا . وغزوة - ذى الرقاع - ضد بنى محارب وثعلبة من غطفان ، فى السنة الرابعة من الهجرة ، وغزوة - دومة الجنـدل [١] - لكثرة ظلم بعض سكانها من القبائل العربية على من يمرون بهم ، وذلك فى السنة الخامسة من الهجرة ، وغزوة - بنى لحيـان - لتـأديب أصحـاب الرجيع ، وكانت فى السنة السادسة من الهجرة ، وغزوة - ذى قـرد ردا على عينية بن حصن زعيم غطفان فى غزوة الأحزاب ، وذلك لإغارتـه على لقاح للرسول صلى الله عليه وسلم فى الغابة قرب المدينة ، ثم غزوة

---

(١) أنظر عن هذه الغزوات وأحداثها ، ابن حزم : جوامع السيرة النبويـة ، ص١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٥٩ .

بنى المصطلق – أو المريسيع – قبيلة من خزاعة ، وكانت فى شهر شعبان من السنة السادسة من الهجرة وغيرها من الغزوات أو السرايا التى بعثها الرسول الكريم [١] .

ولم يلق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من هذه الغزوات كيدا ، ولم تكن لأحداث هذه الغزوات قيمة كبيرة أو مؤثرة ، إلا غزوة بنى المصطلق ، فعلى الرغم من أنها أيضا كانت غزوة هينة وسريعة ونصر الله رسوله فيها نصرا مؤزرا ، إلا أن ما واكبها من الأحداث جعل لها ذكرا مديدا ، وأثرا بعيدا .

ومن هنا لزم علينا ذكر هذه الغزوة لما لها من أحداث خطيرة ونتائج هامة .

أ – غزوة بنى المصطلق[٢] – المريسيع [٣] – وأحداثها :

فى شعبان من السنة السادسة من الهجرة النبوية وقعت هذه الغزوة وأحداثها . فقد بلغ النبى – صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن أبى ضرار – سيد بنى المصطلق – الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين فى غزوة أحد يجمع الجموع لحربه .

فخرج النبى عليه السلام فى جمع كثير ، وولى على المدينة زيد بن حارثة ، وخرج معه من نسائه عائشة ، وأم سلمة ، وخرج معه عدد من

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق٢ ص٢١٣ ، ٢٧١ – ٢٩٦ .

(٢) بنو المصطلق : هم من بنى سعد بن عمير وبن عامر بن لحى بطن من خزاعة ، والمصطلق اسمه جذيمة ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٢٣٩ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ .

(٣) المريسيع : ماء من مناحية قديد إلى الساحل ، ياقوت : معجم البلدان فى باب الميم .

المنافقين لم يخرجوا قط فى غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا مـــن عــرض الدنيا .

وفى أثناء مسيرته عليه السلام التقى بجاسوس لبنى المصطلــــق ، فسأله عن أحوال بنى المصطلق ، فلم يجب ، فأمر بقتله ، ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق مجئ المسلمين لحربه ، وأنهم قتلـــوا جاسوسه خاف هو ومن معه من جيشه خوفا شديدا ، حتـــى تفــرق عنــه بعضهم [١] .

ولما وصل المسلمون إلى المريسيع ــ ماء لخزاعـــة ــ تصـــاف الفريقان للقتال ، وذلك بعد أن عرض الرسول صلى الله عليه وسلم لبنـــى المصطلق الإسلام ، فلم يقبلوا فتراموا بالنبل فى بداية الحرب ساعة ، ثـــم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فانهزم بنوا المصطلق ، ولم يــترك المسلمون لرجل من عدوهم مجالا للهرب ، بل قتلوا عشرة منهم ، وأسروا باقيهم مع النساء والذرية ، كما استاقوا الإبل والشياه . وكانت الإبل ألفـــى بعير ، والشياه خمسة آلاف ، وقد استعمل الرسول عليــــه الســـلام علـــى ضبطها مولاه شقران ، وعلى الأسرى بريدة ، وكان فى نساء المشركين ــ بريرة بنت الحارث سيد القوم ، وقد أخذ من قومها مئتـــا بيــت أســـرى ، وزعت على المسلمين [٢] .

ولما كانوا بنوا المصطلق من أعز العرب دارا ، كان أسر نســـائهم بهذه الحال أمرا شديد الصعوبة ، وفـــوق الاحتمـــال . ومـــن هنـــا أدرك

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـــ ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) ابن سعد : المصدر السابق جـــ ٢ ص ٨٨ . ٨٩ .

الرسول صلى الله عليه وسلم بما أصبح فيه بنوا المصطلق من ذل وعـــار وخنوع ، لذلك سارع الرسول الكريم بتخفيف الوطأة عليهم ، وأراد أن يمن المسلمون بالحرية على أسرى بنى المصطلق ، فكان أن تزوج النبى بريـــرة بنت الحارث ، التى سماها (جويرية) ، فقال المسلمون عندئذ : أصـــهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا ، فمنوا عليهم بالعتق جميعا .

فكانت أم المؤمنين جويرية بما جرى بسببها من خير على أهلـــها أيمن امرأة على قومها ، كما قالت أم المؤمنين عائشة [1] .

وقد تسبب هذا الكرم العظيم ، وهذه المعاملة الجليلة مـــن جـــانب الرسول صلى الله عليه وسلم فى إسلام بنى المصطلق عن بكرة أبيـــهم ، وأصبحوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم [2] . وإن دل ذلك على شئ فإنمـــا يدل فى وضوح حسن السياسة ، ومنتهى الكرم من رسولنا الكريـــم علـــى قومه ، وشديد لينه ورحمته بقومه وعشيرته .

وقد واكبت هذه الغزوة حادثتان خطيرتان هامتان ، أوضحت بشكل فاضح ما فى قلوب المنافقين من حقد وغيظ دفين ، وفساد وسوء مشـــين ، والحادثتان هما :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

أولا : فضوح أمر المنافقين بزعامة ابن أبى

بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمن معه عند ماء المريسيع بعد انتصارهم على بنى المصطلق ، وردت واردات الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار ، يقال له — جهجاه بن مسعود — يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن دبرة الجهنى على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار • وصرخ الجهجاه من ناحيته : يا معشر المهاجرين • فأقبل بعض الفريقين من الذعر ، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله ، فقال : ما بال دعوى الجاهلية ، فأخبر الخبر ، فقال الرسول الكريم : دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة — يعنى أنها كلمة خبيثة — ، فسكنت الفتنة بداية عند هذا الحد •

ولكن لما بلغ هذا الخبر عبد الله بن أبى بن سلول ، وعنده رهط من قومه من الخزرج وفيهم زيد بن أرقم — وكان غلاما حدثا — فغضب عندئذ ابن أبى غضبا شديدا ، وأظهر دون أن يدرى ما فيه من كره وحقد للرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ، فقال : أو قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ! ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما •• والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[١] •

فلما سمع ذلك زيد بن أرقم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٥٦ •

بشر فليقتله فقال الرسول الكريم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن أذن بالرحيل ٠ وذلك فى ساعة لم يكن رسول صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها فارتحل الناس [١].

وحينما سمع عبد الله بن أبى بوصول خبر ما قاله إلى النبى الكريم مشى إليه ، فحلف بالله كذبا : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ! وكان فى قومه – كما نعلم – شريفا عظيما ، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ! حدبا على ابن أبى ، ودفعا عنه ٠

فلما استقل الرسول صلى الله عليه وسلم وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبى الله ، والله رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فيها فى مثلها ، فقال له النبى الكريم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبى ، قال أسيد : وما قال ؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال أسيد : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز ! ثم قال : يا رسول الله ، ارفق له ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد سلبته ملكا [٢] ٠

وظل الرسول صلى الله عليه وسلم فى سيره بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم التالى حتى آذتهم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٩١ ٠
(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ١٥٧ ٠

الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن لامسوا الأرض حتى استغرقوا فى النوم ، وإنما فعل ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، ليشغل الناس بالحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى ٠

فلما أخذ الناس قسطا من الراحة ، تحرك النبى بمن معه ، وسلك الحجاز حتى نزل على ماء يقال له ــ بقعاء ، فلما راح الرسول صلى الله عليه وسلم هبت على الناس ريح آذتهم وتخوفوها ، فقال رسول الله : لا تخافوها ، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار ، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت ــ أحد بنى قينقاع ، وكان عظيما من عظيماء يهود ، وكهفا للمنافقين ــ مات فى ذلك اليوم [١] ٠

وقبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من الجيش نزلت سورة المنافقين التى فضحت عبد الله بن أبى بن سلول وإخوانه ، وصدقت زيد بن أرقم ، فلما نزلت هذه السورة أخذ الرسول الكريم بأذن زيد ، وقال : هذا الذى أوفى لله بأذنه ٠

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه ، فقال : يا رسول الله إنه بلغنى إنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى إن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى انظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال النبى عليه السلام : بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٦٠٧ ٠

وجعل بعد ذلك إذا أحدث ابن أبى حدثا ، كان قومه من الخزرج هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته • قال عمر : قد والله لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى[1] •

ثانيا : حديث الإفك :

كان حديث الإفك الذى قيل فى السيدة عائشة رضى الله عنها زوج الرسول الكريم ـ له علاقة وثيقة بغزوة بنى المصطلق ، إذ أنه كان أيضا أثناء عودة المسلمين من غزوة بنى المصطلق ، وكان حادثا أفظع من الأولى ، وأشد نكاية منها ، لولا أن من الله على رسوله وزوجه والمؤمنين بكف ألسنة أصحاب الإفك ، وإليكم حديث الإفك :

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ، وكان قريبا من المدينة بات ـ كما رأينا بمنزل بعض الليل ، ثم ارتحل هو والناس وكانت عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى بعدت عن الجيش ، فلما قضت حاجتها أقبلت إلى موضعها السابق ، فلمست صدرها فإذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع ، فعادت تلتمس عقدها حتى وجدته ، وفى هذا الوقت أقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه ، لأن النساء كن إذ ذاك خفافا ، لم يغشهن اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، وكانت عائشة أم المؤمنين حديثة السن خفيفة الوزن •

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ٥٠١ •

فلما رجعت عائشة إلى موضعها ، وما فيه داع ولا مجيب ، وقـــد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها ، حتـــى يعـرف الناس بافتقادها فيعودوا لأخذها ، فمر صفوان بن المعطل السلمى فى هـذا الوقت ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ولم يبت معهم ، فلمـــا رأى سوادا على الأرض أقبل حتى اقترب من عائشة ، وكان قد رآها قبـل أن يضرب الحجاب ، فلما رآها قال : إن لله وإنا إليه راجعـون ، ظعينـة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى متلففة فى ثيابها ، قال : مـا خلفـك يرحمك الله ؟ فلم تكلمه ، فقرب بعيره وقال لها : اركبى ، واستأخر عنـها فركبت ، فأخذ برأس البعير وانطلق حتى لحق بالناس بمنزل [١] .

وعندئذ قامت قيامة أهل الإفك ، وقالوا ما قالوا فى عائشة رضـــى الله عنها وصفوان بن المعطل ، وكان الذين ضلعوا فى حديـث الإفـك : مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، وعبد الله بن أبى ومن تبعه من المنافقين[٢] .

فلما قدم الناس المدينة ، لم تلبث أن اشتكت عائشة بمرض شديد ولم يبلغها بعد حديث الإفك وقد انتهى الحديث إلى رسول الله عليه وسلم ، وإلى أبويها ، فلا يذكرون لها قليلا ولا كثيرا ، إلا أنها شعرت بتغـير معاملـة الرسول الكريم لها ، فكان فى السابق إذا اشتكت من مرض رحمها ولطـف بها ، ولكنه عليه السلام لم يفعل ذلك معها فى شكواها الأخيرة ، وكـان لا يزيد إذا دخل عليها ومعها أمها تمرضها عن قول : كيف تيكم ؟

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٥ ص ٤٧١٩ ، ٤٧٢٠ .
(٢) القرطبى : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٤٧٢٠ .

فأنكرت عائشة ذلك منه ، ووجدت فى نفسها لجفائه صلى الله عليه وسلم لها ، فاستأذنت عندئذ لتتمرض عند أمها فأذن لها الرسول الكريم . فظلت عند أهلها بضعة وعشرين يوما ، وهى لا تعلم بعد شيئا من حديث الإفك [١] .

فلما نقهت خرجت هى وأم مسطح بن أثاثة ــ أحد أهل الإفك ــ لقضاء حاجتها خارج المنزل ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ! فقالت عائشة : بئس ما قلت !! أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت يا هنتاه أو لم تسمعى ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك ، فأخبرتها الخبر ، فقالت : أو قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان .

فلم تستطيع عائشة عندئذ أن تقضى حاجتها فعادت وهى تبكى بكاء مرا حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها ، فقالت لأمها : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا . قالت : أى بنيه، خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها .

فلما كثر حديث الإفك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :" أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى **ويقولون** عليهم غير الحق . والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك فى رجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى "[٢] .

تقول عائشة رضى الله عنها :" وكان كبر ذلك عند عبد الله بن سلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مسطح ، وحمنة بنت جحش ،

---

(١) أنظر المصدر السابق .
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٦١٥ .

وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها . أما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضادنى لأختها فشقيت بذلك " [١] .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ! فقام سعد بن عبادة ، فقال : كذبت لعمر الله ، لا نضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت إنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ! فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ! فتواثب الناس حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر [٢] .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر ، ودعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا وقاله ، ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل . وأما على فإنه قال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ليسألها ، فقام إليها على بن أبى طالب فضربها ضربا شديدا ، وقال : أصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٠٠ .
(٢) الطبرى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٦١٤ ، ٦١٥ .

شيئا إلا أننى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله ! [١] .

ثم دخل الرسول على عائشة بعد ليلتين لم يرقأ لها دمع ، ولا تكتحل بنوم ، وعندها أبويها ، وامرأة من الأنصار تبكى مع بكاء عائشة فجلس فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ، إنه كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وإن كنت قد فارقت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ! فتقلصت دمع عائشة ، وقالت لأبويها : أجيبا رسول الله ، فقالا : والله ما ندرى ما نقول ، فقالت : إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى منه بريئة لا تصدقونى ، فوالله لأجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حيث قال : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) [٢] .

ثم تحولت عائشة واضطجعت على فراشها ، وما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فنزلت على رسول الله عندئذ الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة رضوان الله تعالى عليها ، وفيها : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) [٣] .

فسرى عن رسول الله وهو يضحك ، وبشر عائشة بالبراءة ، فقالت لها أمها : قومى واشكرى رسول الله ، قالت لا والله ، لا أشكر إلا الله الذى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٦٣ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٨ .
(٣) سورة النور ، الآية ١١ .

برأنى . ثم خرج الرسول الكريم للناس فخطبهم ، وتلى عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثـــابت ، وحمنة بن جحش فجلدوا ثمانين جلدة [١] ، وهى حد القذف .

وقال قائل من المسلمين فى ضرب حسان وأصحابه :

لقد ذاق حسان الذى كان أهلـــــه
وحمنة إذ قالوا هجيرا ومسطـــــح

تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهـــم
وسخطة ذى العرش الكريم فأترحـوا

وآذوا رسول الله فيها فجلـــلـــوا
مخازى تبقى عمموهـــا وفضحـــوا

وصبت عليهم محصدات كأنهـــا
شآبيب قطر من ذرى المزن تسفـــح[٢]

فلما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها من فوق ســبع ســماوات وفيمن قال فيها ما قال ، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح لقرابتـــه[٣] وحاجته : والله لا انفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وادخل علينا فأنزل الله فى ذلك **(ولا يأتل أولو الفضـــل منكــم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمـــهاجرين فـــى ســبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفرا الله لكم والله غفور رحيم)** فقـــال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح نفقتـــه التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا[٤] .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٥ ص ٤٧٢١ ، ٤٧٢٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٠٧ .
(٣) كان مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف ابن بنت خالة أبـــى بكــر الصديق ، وكان من المهاجرين البدريين المساكين ، وكان أبو بكر رضى الله عنـــه ينفق عليه لفقره ، القرطبى الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٥ ص ٤٧٢٨ .
(٤) المصدر السابق .

{ ٤ }

بين الرسول ويهود بلاد الحجاز

سبق أن ذكرنا — عند حديثنا عن المدينة وسكانها — أنه قد سكن عدد من القبائل اليهودية — بيثرب ، وبالأخص منذ القرنين الأول والثانى الميلاديين ، وكان يهود بنى قينقاع ، وبنى النضير وبنى قريظة من أهم القبائل التى سكنت يثرب مع القبائل العربية ٠

كذلك استقر عدد آخر من القبائل اليهودية فى أماكن أخرى من بلاد الحجاز : كخيبر ، ووادى القرى ، وفدك ، وتيماء هى بلاد تقع شمالى المدينة وحتى أطراف بلاد الشام [١] ٠

وقد سبق أن ذكرنا : إن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد عاهد يهود المدينة عند هجرته إليها ؛ وذلك حتى تستقر الأوضاع بالمدينة ، ويستتب الأمان بها لكى يتفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم للأخطار المحدقة به من قبل قريش ، ومن تبعها ٠

وقد تمثلت أهم بنود هذه المعاهدة فى الآتى :

١-إن اليهود بجميع طوائفهم أمة ، وأن المسلمين جميعا أمة ٠

٢-تقرير حرية العقيدة لليهود ، فهم أحرار فى أداء طقوسهم ، ومختلف عباداتهم ٠

---

(١) أنظر ما سبق ذكره عن هذه القرى ص ١٦٦ ، حـ ٢ ٠

٣–فتح الطريق للراغبين منهم فى الدخول فى الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق ٠

٤–أن لا يجير أحد من أهل المدينة قريشا ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم المدينة ٠

٥–عند قيام حرب بين أهل المدينة وبين أعدائهم ، كان على المسلمين نفقتهم ، وعلى اليهود نفقتهم ٠

وقد فتحت هذه المعاهدة الباب على مصرعيه أمام اليهود ليتفيئوا ظلال السلم ، كما أتاحت لهم الفرصة للتفكير فى الإسلام والدخول تحت لوائه إذا هم رغبوا فى ذلك ، وبالفعل دخل عدد قليل منهم الإسلام عن طواعية ٠

ومن الواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمن جانبهم مطلقا بدليل أنه عليه الصلاة والسلام علق بندا هاما من بنود المعاهدة وهو النصر على من دهم المدينة ؛ ولم يرد أن يشركهم فى الدفاع عنها ففى غزوة أحد وبعد أن انخزل عبد الله بن أبى بثلث الجيش عن النبى طلب الأنصار الاستعانة بحلفائهم من اليهود فأبى النبى قائلا : لا حاجة لنا فيهم[1]؛ وذلك على الرغم من حاجته إلى جند وعلى الرغم من كل ما قدمه الرسول من أمن وسلام ليهود المدينة إلا أنهم لم يهادنوا النبى الكريم وأصحابه يوما واحدا منذ الهجرة النبوية ، فراحوا يكيدون للمسلمين ، ويتآمرون عليهم ، وينقضون عهدهم تباعا ، ويجمعون الأعداء لحربهم وقتالهم فى عقر دارهم ٠

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٤ ، ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٢٤ ٠

بل ولما أمن الرسول من شر اليهود بالمدينة بعد إجلاء بنى قينقاع، عقب غزوة بدر ثم بنى النضير بعد أحد من المدينة ، والقضاء على بنـــى قريظة إثر غزوة الأحزاب ظهر شر اليهود بصورة سافرة فى خيبر ومـــا حولها من القرى ، حتى أصبحت خيبر مركز نشاط المؤلبين مـــن اليـــهود على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ

ومن أجل ذلك كله اتخذ الرسول مع يهود المدينة ، ثم يهود خيـــبر وما حولها مواقف اتسمت باللين فى بداية الأمر ، أملا فى أن يثوبوا إلـــى رشدهم ، وبالشدة لما تمادوا إلى غيهم ومكرهم وخداعهم ٠

١-غزوة بنى قنيقاع (شوال سنة ٢ هـ) :

كان أول من أظهروا الحسد ، ونفثوا ما فى أعماقـــهم مـــن حقـــد وضغينة للمسلمين ــ إثر انتصارهم على قريش فى غزوة بدر ــ يهود بنى قينقاع ٠ وكان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما ذكرنا سابقا ــ قـــد جعل بينه وبين يهود المدينة أمانا ، وشرط عليهم شروطا ، فلما قدم مـــن بدر أظهر بنو قينقاع الحسد والحقد الدفين فجمعهم الرســـول بســـوق بنـــى قينقاع ودعاهم إلى الإسلام ، وحذرهم من مغبة أفعالهم ، وخوفهم بيوم مثل يوم بدر ، فقال يهود بنى قنيقاع : يا محمد ، لا يغرنك من لقيـــت ، إنـــك قاتلت أغمارا وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلم أنك لـــم تقـــاتل مثلنا٠ ثم انفضوا وأخذوا يظهرون العداوة للمسلمين ، ويجـــهرون بـــالكيد للإسلام[١]٠

---

(١) المقريزى : امتاع الأسماع ، جـ ١ ص ١٠٤ ٠

وحدث أن جاءت امرأة من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع ، فعمد أحد اليهود إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها دون أن تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا ، فاستغاثت المرأة بالمسلمين ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، فاجتمع عليه بنى قنيقاع وقتلوه ، وتحصنوا فى حصونهم . فنزل قوله تعالى :" **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** "[١]وهكذا نقض يهود بنى قينقاع العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

فسار إليهم رسول الله يوم السبت الموافق النصف من شوال من السنة الثانية للهجرة ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى سلموا ، ووافق أن يكون لعبد الله بن أبى بن سلول الحكيم فيهم ، بناء على طلبه لهذا بإلحاح شديد ، لأنهم كانوا حلفاءه فى الماضى ، فحكم عليهم عبد الله بن أبى بالجلاء عن المدينة ، فخرجوا إلى أذرعات بأطراف الشام بنسائهم وذراريهم ، وبما استطاعت إبلهم أن تحمله من المال والمتاع [٢] .

١-إجلاء بنى النضير (ربيع الأول سنة ٤ هـ) :

كان يهود بنى النضير من أعظم الشامتين على رسول الله والمسلمين إثر هزيمتهم يوم أحد ، وأظهروا غاية فرحهم بما أصاب المسلمين ، وبدأوا يستخفون بهم ، ويسخرون منهم ، وقد بلغ استخفافهم بالمسلمين والاستهانة بشأنهم إلى درجة أن يفكر يهود بنى النضير فى قتل محمد رأس هذه الجماعة المسلمة للتخلص منها وقد زادت جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع ، وبئر معونة .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .
(٢) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وقد حدث أن توجه رسول الله إلى يهود بنى النضير ، ليستعين بهم فى دفع دية الرجلين من بنى عامر ، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، وهو راجع من بئر معونة ، لأن بنى النضير كانوا حلفاء بنى عامر وكـان ذلك فى يوم السبت من أيام ربيع الأول فى السنة الرابعة للهجرة ، وكـان معه عليه الصلاة والسلام دون العشرة من أصحابه من بينـهم أبـو بكـر وعمر .

فقابل يهود بنى النضير فى ناديهم ، وكلمـهم فـى أمـر الديـة ، فأظهروا الموافقة ، وقالوا : اجلس نطعمك ، فجلس مستندا إلى بيـت مـن بيوتهم ، فخلا اليهود بعضهم إلى بعض ، واتفقوا فيمـا بينـهم علـى أن يطرحوا على النبى حجرا كبيرا من فوق البيت فيقتلوه ، وانتدبوا لهذا الأمر عمرو بن جحاش الذى هيأ الصخرة ، فجاء الوحى فى نفس الوقـت إلـى الرسول وأخبره بما اتفق عليه اليهود [١] .

وعندئذ نهض النبى كأنه يريد حاجة وخرج وعاد إلى المدينة ، فلما أبطأ على أصحابه قاموا فى طلبه ، ولما لحقوا به فـى المدينـة أخـبرهم الخبر، وأمرهم بالتهيؤ للسير إليهم وحربهم .

وبعث رسول الله ـ فى أول الأمر ـ إنذارا إلـى بنـى النضـير يأمرهم بالجلاء على المدينة ، فلم يوافقوا وتحصنوا داخل حصونهم بعد أن وعدهم ابن أبى رأس المنافقين بالمساعدة ، كما وعدهم مساعدة بنى قريظة وحلفائهم من غطفان ، فلم يجد الرسول بدا من محاصرتـهم ، فحـاصرهم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ١٩٠ ، المباركفورى : الرحيق المختـوم ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

ست ليال وقيل خمسة عشر يوما ، وأمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب ٠

ولما لم يجد بنو النضير معاونة من المنافقين أو إخوانهم من بنـــى قريظة أو حلفائهم كما وعدهم ابن أبى يئسوا وفضلوا الاستســلام ووافقــوا على الجلاء من المدينة ، ولهم من الأموال ما حملت الإبل إلا السلاح ، ولم يسلم منهم إلا رجلان ، هما : يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب [١]٠

ورحل أكثر بنى النضير إلى خيبر ، فدانت لهم ومن فيها من القبائل اليهودية ، لأن يهود خيبر لم يكن لهم من الأحساب والأنســاب مــا لبنــى النضير ، وذهب طائفة من بنى النضير إلى الشام ، وكان ممن ذهب إلـــى خيبر أكابرهم منهم : حيى بن أخطب وسلام بن أبى حقيق ، وكنانـــة بـــن الربيع بن أبى حقيق ٠

وقبض رسول الله الأموال والسلاح ووزعها علـــى المـــهاجرين ، وعلى بعض فقراء الأنصار ، كما أعطى سعد بن معاذ ســيف ابـــن أبـــى حقيق، لقيمته المعنوية ،وكان سيفا له ذكر وشهرة [٢] ٠

وكان لجلاء بنى النضير ما عوض المسلمين بعـــض مـــا فقدوه فى أحد والرجيع ، وبئر معونة ، واستردوا ما كان لهم مـــن نفوذ أضعف قوة المعارضة فى المدينة ٠ ونزلت سورة الحشـــر

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ ، ابن حزم : جوامع الســيرة النبوية ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ٠

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٤ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ٠

فى بنى النضير ، قال عز وجل : (**هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر**) إلى قوله : (**لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحد أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون**) إلى قوله تعالى : (**وذلك جزاء الظالمين**) [١].

٢- غزوة بنى قريظة (ذو الحجة سنة ٥ هـ)

كانت خيانة يهود بنى قريظة للمسلمين بانضمامهم مع الأحزاب خيانة فاحشة ، وأمرا خطيرا أفزع صدور المسلمين ، وأقض مقامهم عند الخندق بعد ما أصبحوا بين رحى عدوين ، عدو من أمامهم ، وعدوا من خلف أظهرهم ، يقول الله تعالى :" **وإذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** "[٢] ومن لطف الله برسوله وبالمسلمين أن فرق بين الأعداء ، وفت من عضدهم حتى آثرت قريش ومن معها إلى الرحيل والفرار ــ كما رأينا ــ، وبقى بطبيعة الحال أولئك الخونة من يهود بنى قريظة بالمدينة ، بعد أن نقضوا عهدهم مع الرسول •

وكان يهود بنى قريظة البقية الباقية من القبائل اليهودية فى المدينة، بعد أن أجلى ــ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ من المدينة يهود بنى قينقاع إثر غزوة بدر ، ثم يهود بنى النضير إثر غزوة أحد ، بسبب غدرهما ونقضهما العهد الذى كان معقودا بينهما وبين رسول الله •

---

(١) سورة الحشر الأية ١ ــ ١٧ •
(٢) سورة الأحزاب ، الأية ١٠ •

ومن الواضح أن خيانة يهود بنى قريظة وغدرهم ، ونقضهم عهد رسول الله كانت فى غاية الخطورة بالنسبة لما قامت به القبيلتان السابقتان من خيانة وغدر ونقض للعهد ، ولذلك رأى الرسول من خلال موقف يهود بنى قريظة العدائى منه فى واقعة الأحزاب أن وجودهم خطر عليه وعلى المسلمين ، بل وكان أمر الله سريعا فى أخذهم بغتة فقد عاد الرسول صلى الله عليه وسلم بمن معه من الخندق إلى المدينة ، بعد رحيل قريش ومن معها من الأحزاب ، وذلك فى صباح يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة[١] سنة خمس هجرية ٠ فلما كان الظهر أتاه جبريل عليه السلام — وكان المسلمون قد وضعوا السلاح — فقال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال : نعم ؛ فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم ٠

فخرج الرسول الكريم بعد أن صلى الظهر ، وأمر بلالا أن يؤذن فى الناس : " من كان سميعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة " فتلاحق المسلمون ، وخرج على بالراية ، وكانت على حالها لم تطو بعد حتى وصلوا عند حصون بنى قريظة فألقوا الحصار عليها ٠[٢]

ومن الواضح أن المراد من هذه السرعة هو مباغتة بنى قريظة ومنعه من الاستعداد لحصار طويل ٠

---

[١] هناك خلاف فى هذا التاريخ ، بين شهرى ذى القعدة وذى الحجة ،وانظر المصادر الآتية ٠

[٢] ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ١٠ ٠

فلما رأى بنو قريظة جيش المسلمين خارت قواهم ، وأيقنوا بالهلاك وبعثوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم فى حصونهم يطلبون منه أن يصالحهم كما صالح بنى النضير ،ويخرجون بنسائهم وذراريهم وما حملت إبلهم فأبى رسول الله هذا العرض (١)، لأنه رأى أن بنى النضير بعد أن أجلاهم عن المدينة ألبوا عليه الأحزاب ،فأثاروا قريشا ، وعرب البادية من غطفان وغيرها ، فإذا ما أجلى بنى قريظة كما أجلى بنى النضير فإنهم قد يتحالفون مع بنى جلدتهم من اليهود ضده ، ويثيرون عليه القبائل العربية التى لم تزل على وثنيتها . وذلك بخلاف أن جريمة بنى قريظة أشنع وخيانتهم كانت أفظع ، فكان لابد للرسول صلى الله عليه وسلم معهم موقف آخر .

وطال الحصار باليهود ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ،وندموا على ما صنعوا ، واستشاروا قائدهم كعب بن أسد ، فقال لهم : يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ماترون ، وإنى عارض خلالا ثلاثا : فخذوا أيها شئتم. قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، وندخل فى الإسلام ، وقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، فهو الذى تجدونه فى كتابكم ، وبهذا تأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا لا نفارق ديننا أبدا ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين السيوف ، فنقاتله ولم نترك وراءنا ثقلا ، فإن نهلك نهلك ولم نترك نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء. قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟.

---

(١)محمد بن يوسف الصالحى :المصدر السابق ، جـ ٥ ص ١٣ .

قال : فإن أبيتم هذه أيضا فإن الليل ليلة السبت ، وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فننزل إليهم فنفاجئهم ، لعلنا نصيب منهم غرة قالوا : أنفسد سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث ، فيمسخنا الله إلى قردة وخنازير ، كما حدث لمن كان قبلنا فى يوم سبت مما لا يخفى عليك ؟ فقال لهم : ما بات رجل منكم ليلة واحدة حازما(١) ٠

فلما اشتد الحصار على بنى قريظة ، واستمر خمسة وعشرين يوما، نزلوا على حكم رسول الله ، فأمر باعتقال أسراهم ، وأبقى النساء والذرارى فى ناحية بعد أن أخرجهم من الحصون ، وجمعت أموالهم ومواشيهم وأسلحتهم٠

وعند ذلك طلبت الأوس من رسول الله أن يهب لهم بنى قريظة لأنهم حلفاؤهم ، كما وهب الحكم على بنى قينقاع لعبد الله بن أبى من الخزرج ، فقال لهم رسول الله : أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال فذاك إلى سعد بن معاذ ٠

فلما جئ بسعد بن معاذ ــ وكان قد أصيب فى غزوة الخندق ــ قام إليه الأوس وقالوا له : إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ٠ فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين أن الحكم فيهم لما حكم ، فأجابوه، وأجاب الرسول : أن نعم ٠ قال سعد : فإنى أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال ، وتسبى النساء والذرارى ٠ فقال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الله ، ثم حفرت لهم الخنادق ، وضربت أعناقهم جميعا ، وكانوا بين الستمائة والسبعمائة ، وقتل معهم يومئذ حيى بن أخطب إذ دخل فى

---

(١)ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٤ ص ١٢٠ ٠

حصون بنى قريظة بعد فرار الأحزاب كما وعد بذلك كعب بن أسد ، ونجى منهم بإعلان إسلامه كل من ثعلبة وأسيد إبنا سعية وأسد بن عبيد وهم نفر من هدل من بنى عم قريظة والنضير .

ثم قسم الرسول أموال بنى قريظة وسباياهم بعد أن عزل الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل (١) .

وبالقضاء على بنى قريظة ، تم سيطرة الرسول على المدينة ، فأصبح يأمن فيها على نفسه وعلى المسلمين ، بعد أن تخلص من العناصر المناوئة فى المدينة ، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من الأنصار والمهاجرين بتلك الأراضى والأموال التى كان يمتلكها اليهود .

٤ — غزوة خيبر (المحرم سنة ٧ هـ) :

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد انتهى من شر اليهود ومكرهم فى المدينة بإجلاء كل من بنى قينقاع وبنى النضير ، والقضاء على بنى قريظة ، لكنه لم ينته نهائيا من شرورهم وخطرهم من بلاد الحجاز ، وذلك لأن جماعات قوية منهم كانت تعيش فى خيبر ،ووادى القرى ، وجماعات أخرى تعيش فى تيماء وفدك . وهذا بخلاف من أوى الى خيبر من أشراف بنى النضير وبعض بنى قينقاع .

وكانت خيبر بما فيها من العدة والعدد حصنا قويا لليهود فى شبه الجزيرة العربية ، ونقطة التقائهم وتجمعهم من أنحاء الجزيرة ، وأصبحت خيبر بذلك مركز نشاط المؤلبين على النبى — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ .

وأصحابه ، فكان اليهود ينسجون فيها المكائد ويحيكون المؤامرات ،وكانوا يخرجون منها للإجتماع بالمشركين فى مكة ، وبقبائل غطفان فى نجد ، ويتاهبون بالإغارة على المدينة ٠ ([1])

فلما أمن الرسول شر قريش بعد صلح الحديبية رأى أن يهاجم خيبر، وينهى أمر اليهود نهائيا من الجزيرة العربية ، فتأهب الرسول للخروج إليهم فى المحرم من السنة السابعة للهجرة ، وأمر أصحابه بالتهيؤ للغزو ، وأعلن بينهم ألا يخرج معه إلا كل راغب فى الجهاد ، ثم سار قاصدا خيبر على رأس ألف وأربعمائة من المسلمين الذين كانوا معه فى الحديبية ٠([2])

وكان يهود خيبر إذ ذاك يقيمون بحصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتيهم بيثرب ، ولم يدر بخاطرهم أن رسول الله سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم ٠ لكن الرسول ما لبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم ، بحيث لم يستطيعوا أن يضموا إليهم حلفاءهم ٠ فلما أصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بالمسلمين أمامهم ، فذعروا وولوا هاربين إلى حصونهم ٠([3])

ثم دار القتال بين الفريقين ، وهاجم المسلمون حصون اليهود حصنا بعد حصن . وبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل " النطاة " ، وحاصر

([1])ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١٤٨ ، المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٣٣٠ ٠

([2]) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٢٦٤

([3])ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢١٠ ، محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص١٨٥

أول حصونهم وهو حصن ناعم ، واقتتلوا قتالا شديدا حتى فتح الله الحصن عليهم . ثم هاجموا حصن الصعب بن معاذ بن النطاة حتى فتح بعد جهد جهيد [١]

وفر اليهود من حصنى ناعم والصعب إلى قلة – أو قلعة – الزبير[٢]. فبادر الرسول فحاصرها إلى أن فتحت بعد ثلاثة أيام.

ولما فرغ رسول الله من النطاة تحول إلى حصون الشق ، وبها عدة حصون . فبدأ هجومه بحصن " أبى " ففتحه ثم هاجم حصن " النزال " .

وعندما تم فتح حصون النطاة والشق فر من سلم منهم إلى حصون الكتيبة، وكان أعظم حصونها القموص – حصن بنى أبى الحقيق وكان حصنا منيعا – فحاصرها الرسول قريبا من عشرين ليلة . فلما كان اليوم الأخير أعطى الراية لعلى بن أبى طالب ، فقاتل قتالا شديدا حتى فتح الله عليه الحصن .

وأصاب رسول الله من هذا الحصن سبايا ، كانت منهن صفية بنت حيى بن أخطب ، وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تزوجها فيما بعد .[٣]

---

(١) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ١٨٧ ، ١٩١ .

(٢) هو الزبير بن العوام الصحابى الجليل ، وقد سميت القلعة باسمه لأنها صارت من نصيبه من قسمة الغنائم ، الصالحى : المصدر السابق ، جـ ٥ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٣١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨

واستمر الرسول يفتح خيبر حصنا حصنا حتى انتهى إلى الوطيح والسلالم ، فحاصرها أربعة عشر يوما ، فلما طال زمن حصارها قرر الرسول الكريم أن يضربها بالمنجنيق ٠ وعندما أيقن اليهود الهلاك ، نزل كنانة بن أبى الحقيق وصالح النبى صلى الله عليه وسلم على حقن دماء من فى حصونهم ، وهكذا تم فتح جميع حصون خيبر ٠

وأصبحت الحصون التى فتحت عنوة ملكا للمسلمين أما ما أخذ صلحا ، فقد أتفق الرسول مع أصحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة ٠ (١)

فلما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك ـ وكانت قريبة من خيبر ـ حين بلغهم ما وقع على أهل خيبر ، فسارعوا فبعثوا إلى رسول الله بخيبر (٢) يطلبون الصلح على النصف من فدك ، فقبل ذلك منهم ٠ فكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل وركاب ٠(٣)

ثم تحرك الرسول صلى لله عليه وسلم بجيشه إلى وادى القرى ٠ ولما وصل إليها دعى أهلها للأسلام فامتنعوا وأبوا إلا أن يقاتلوا فحاصرها النبى ليال حتى افتتحها عنوة ، وغنم منها أموالا كثيرة ٠ ثم عامل أهلها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ٠(٤)

---

(١)ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٥

(٢) وقيل بعد عودته عليه الصلاة والسلام إلى المدينه ، انظر إلى المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ٠

(٣)ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٥٣ ٠

(٤)محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٢٢٩ ٠

ولما بلغ يهود تيماء خبر إستسلام أهل خيبر ثم فدك ، ووادى القرى بلغ الرعب فى قلوبهم أقصاه ، فبعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبل ذلك منهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصالحهم على ما صالح عليه الآخرين ٠([1])

وفى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنه ٧هـ عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

وبانتصار المسلمين على يهود خيبر ، وغيرهم من يهود وادى القرى وفدك وتيماء زال الخطر اليهودى تماما من بلاد الحجاز ، واكتملت بذلك أركان الأمان ، التى بدأت بصلح الحديبية ، فأخذ يسيحون فى أمن وأمان فى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، بل وفى خارجها ؛ لنشر الإسلام ، وتعليم مبادئه ٠

أما يهود خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء فقد ظلوا قائمين فى هذه الأماكن إلى أن كان عصر خلافة عمر بن الخطاب ٠ فلما كان فى آخر خلافته ، بلغه أن رسول الله أمر فى مرضه الذى مات فيه أن لا يبقى فى جزيرة العرب دينان٠ فأمر بإجلائهم عن خيبر وغيرها من بلاد العرب([2])٠

([1]) زاد المعاد ، جـ ٢ ص ١٤٧ ، حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام / جـ ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ٠

([2]) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٦٩ ٠

{ ٤ }

بين الرسول وأعداء الإسلام من الأفراد

بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون يخوضون المعارك المتتالية غزوة وراء غزوة ، وسرية إثر سرية جهادا فى سبيل الله ، ودفاعا عن المستضعفين ضد القبائل والجماعات الباغية ، من العرب واليهود ، كان هناك أفراد من المشركين واليهود قد بلغوا حدا كبيرا من البغى والشر ، وعملوا دواما فى القضاء على الإسلام ورسوله وذلك بتثبيط همم المسلمين ، وترويج الإشاعات المغرضة ، وتشحيذ قلوب أعداء الإسلام ، وتحريضهم ضد الإسلام ، والتآمر على رسوله وعلى المسلمين ٠

وكان المسلمون فى بداية قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، بل وحتى صلح الحديبية قلة مؤمنة ، وحولهم كثرة كاثرة من أعداء الإسلام من العرب واليهود والمنافقين منهما ، ولا شك أن ظهور واحد من هؤلاء المفسدين والخونة ، فى هذه الآونة ، وفى هذا التوقيت العصيب من عمر الدولة الإسلامية ، يعد خطرا جسيما ، وشرا مستطيرا على هذه القلة المؤمنة ٠ وكان لابد من الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين أيضا التصدى لمثل هؤلاء الأشرار ، والتعامل معهم بمنطقهم ، والكيد لهم كما يكيدون ، حتى لا يفسدوا عليهم ما يقومون به من عمل جاد وأمين فى ميادين الجهاد المختلفة فى سبيل توطيد دعائم الإسلام ٠

وقد برز في هذه الآونة الدقيقة بعض الأفراد الخطريـــــن ، مـــن الحاقدين والناقمين والشامتين ، والذين يخشى من شرهم وبأسهم وســـمهم الزعاف .

وقد وهب رجال من المؤمنين أنفسهم في ســـبيل مرضـــاة الله ، ورسوله الكريم ، لا في ميادين المعروفـــة للجـــهاد فحســب ، ولكنـــهم اضطلعوا بمهام خطيرة فوق العادة بعيدا عن ميـــادين القتـــال . وذلـــك بتكليف من الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بتكليف من أنفسهم ؛ لأنهم قد استشعروا الخطر المحدق بالإسلام وبرسوله من هؤلاء الأفراد الذيـــن طغوا من حول المدينة وأكثروا فيها الفساد . فهبوا لإزاحة هذه الأخطـار والقضاء عليها ، قبل أن يستفحل أمرها ، ويصبح درؤها صعبا .

وقد تمثل هؤلاء الأشرار من أعداء الإسلام في الآتي :

١-عصماء بنت مروان الخطمية :

كان أول من مثل خطرا جسيما على الإسلام ، عند بـــدء قيامـــها بالمدينة عصماء بنت مروان الخطمية من الأوس ، وكانت حية رقطـــاء ، ما تنفك تنفث سمومها الشعرية في إيذاء الرسول صلى الله عليه وســـلم ، والعيب في الإسلام ، وتحريض قبيلتها على قتل الرسول وتقول في هـــذا الشأن :

باشت بني مالك والنبيـت ... وعوف وباشت بني الخزرج
أطعتم أتاوي مـــن غيركـم ... فلا من مراد ولا مذحـــج
ترجونه بعـد قتل الرءوس ... كما يرتجى مرق المنضـج
ألا أنف يبـــتغي غـــــرة ... فيقطع من أمل المرتجــــي[1]

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٣٧ .

وقد استطاعت هذه المرأة الشريرة عن طريق شعرها اللاذع وقوة شكيمتها بين قومها ، أن تحول بين الإسلام وغالب بنى قومها من بنى خطمة ؛ حتى أن القلة المؤمنة ، كانوا يخفون إسلامهم خوفا منها ومن سلاطة لسانها (١) .

فلما كانت غزوة بدر الكبرى والمسلمون عند بدر بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحركت حمية الإسلام فى قلب المجاهد عمير بن عدى الخطمى لما رأى من عصماء فى تبجحها وسفهها وغيها فى غيبة الرسول الكريم فنذر عندئذ : لئن رد الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بدر سالما إلى المدينة ليقتلن عصماء بنت مروان ، وكان ذلك منه على الرغم من أنه كان ضعيف البصر .

فلما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم منتصرا من غزوة بدر الكبرى لخمسة بقين من رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية أخذ عمير على عاتقه الوفاء بما نذر فجاء عصماء من ليلته ، ودخل عليها بيتها فى جوف الليل ، وحولها نفر من ولدها نيام ، ومنهم من يرضع ثديها وهى نائمة وكان عمير ضعيف البصر كما ذكرنا ، فجسها بيده ، فوجد الصبى يرضع فنحاه عنها ، ثم وضع سيفه فى صدره حتى أنفذه من ظهرها فماتت بشرها ، ولم يشعر بها أحد .

ثم أتى عمير بن عدى فصلى الصبح مع النبى عليه السلام ، فلما فرغ الناس من صلاتهم ، وبدأوا فى الانصراف من المسجد ، نظر رسول الله فى إمعان إلى عمير ، وكأنه يقرأ ما بداخله ، ثم بادره قائلا : أقتلت

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ١٠١ .

ابنة مروان ؟ فقال : نعم يا رسول الله فقال النبى : نصرت الله ورسوله يا عمير ([1]) .

فارتاحت نفس عمير عندئذ ، فقد كان فى قلبه بعض الخوف لتصرفه من نفسه فيما قام به دون إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل الرسول قد زاد على هذا أن أثنى عليه قائلا :" إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدى " . فقال عمر بن الخطاب : انظروا إلى هذا الأعمى تشرى فى طاعة الله تعالى فقال عليه السلام : لا تقل أعمى ولكنه البصير .

فلما رجع عمير إلى حى بنى خطمة أكثر صلابة وقوة بعد أن أثنى عليه الرسول الكريم وجد أبناء عصماء يدفنونها ، فلما رأوه قالوا : يا عمير أنت قتلتها ، فقال : نعم فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم ([2]) .

وقد كان من أثر جرأة عمير وفدائيته العظيمة هذه أن ظهر الإسلام فى بنى خطمة ، فصارت العزة للمؤمنين ، والصغار لمن خالفهم من المشركين ، بعد أن كانت هذه الحية التى كانت تسمى عصماء تقف حجر عثرة فى سبيل انتشار الإسلام فى قومها ، وتذل أعناق رجالها فقطع عمير لسانها وأسكت لها فما كان بوقا للشيطان([3]) .

([1]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ .
([2]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٣٦٣ ــ ٦٣٨ ، منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، ص ٣٤٦ .
([3]) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ص ١٠٢ .

٢- أبو عفك اليهودى ٠

كان ثانى هؤلاء من الموتورين الحاقدين على الإسلام وأهله هـو أبو عفك اليهودى ، أحد بنى عمرو بن عوف ، وكان شـيخا قـد بلـغ العشرين ومائة ٠

وكان أبو عفك هذا يؤدى نفس الدور الذى كانت عصماء بنـت مروان تؤديه مع قومها ن فكان يرسل الأشعار يطعن بها علـى محمـد وعلى المسلمين ، ويحرض بها قومه على الخروج على المسلمين ،وظل على هذا الأمر حتى بعد بدر الكبرى ، فنذر سالم بن عمير الأنصـارى وأحد البكائين من بنى النجار ليقتلنه أو يموت دونه ٠

وبعد شهر من قتل عصماء وذلك فى شوال من السنة الثانية مـن الهجرة بدأ سالم فى تنفيذ ما وعد به ٠ وفى ليلة صافية من ليالى استهلال القمر جاء سالم إلى فناء دار أبى عفك فى بنى عمرو بن عوف فوجـده نائما بالفناء ، فوضع سالم السيف على كبد أبى عفك فقتله ٠

كذلك قام سالم بن عمير الأنصارى بهذا العمل الفدائـى العظيـم منفردا ، دون أن يستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم كسابقه المجـاهد عمير بن عدى(١) ٠ وهكذا تخلص المسلمون من شـر عظيـم ، كمـا تخلصوا قبل ذلك من عصماء بنت مروان ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٣٨ ٠

٤-كعب بن الأشرف

وكان كعب بن الأشرف من بنى نبهان ، بطن من طيى ، وكانت أمه يهودية من بنى النضير أكبر القبائل اليهودية التى كانت تسكن المدينة المنورة وكان شديد الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عنيفـــا فـــى كراهيته للإسلام والمسلمين ٠

وقد ازداد شر كعب بن الأشرف وفجر فى كراهيته للإسلام لمـــا سمع بانتصار المسلمين فى بدر الكبرى ، ومقتل عدد من سادات قريش ، فقد قال حينئذ :" هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئـــن كـــان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها " ([١])٠

ثم أنه لم يسكت عند هذا الحد من فحش فيما قال بما حـــدث فـــى بدر، وما نزل على قريش من ذل وهوان ، بل سارع بالذهاب إلى مكـــة معزيا ، ومحرضا لأهلها ضد محمد عليه السلام ، وباكيا بســـواد شـــعره أصحاب قليب فقال :

طحنت رحى بدر لمهلـــك أهلـــه
ولمثل بدر تستهـــل وتدمـــــع

قتلت سراة الناس حول حياضهـــم
لا تبعدوا إن الملوك تصــــــــرع

كم قد أصيب به من أبيض ماجـد
ذى بهجت يأوى إليـــه الضيـــع

ثم يبكى قتلى قريش قائلا :

([١]) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـــ ٤ ص ٥ ، ٦ ٠

نبئت أن بنى المغيـرة كلهـــم
خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعــوا
وأبناء ربيعة عنـــده ومنبــــه
ما نال مثـل المهلكيـــن وتبـــع
نبئت أن الحارث بن هشامهم
فى الناس يبنى الصالحات ويجمــع
ليزور يثرب بالجموع وإنمــا
يحمى على الحسب الكريم الأروع[1]

ولم يكف كعبا ما فعل فى مكة ، من التودد لقريش وبكاء قتلاهـــا وتحريض ثكلاها ، والتعريض بالنبى عليه السلام وبالمسلمين ، بل عندما عاد إلى المدينة أخذ يشبب بنساء المسلمين ، فيتغزل فيهن وتجـــرأ فـــى وصف محاسنهن ، وهو يعرف بطبيعة الأمر طبائع العـــرب ، ويعـــرف مبلغ تقديرهم للعرض وثورتهم من أجله ، فقال مشببا فى أم الفضل بـــن الحارث :

أراحل أنت لم تحلـــل بمنقبــــة
وتـــارك أنـــت أم الفضل بالحـــرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت
من ذى القواريـــر والحناء والكتـــم
يرتج ما بين كعبيهـــا ومرفقهـــا
إذا تأتت قيامــا ثـــم لـــم تقـــم

---

(1) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥١ ، ٥٢ .

أشباه أم حكيم إذ تواصلنـــا

ولو تشاء شفت كعبا من السقـــم

إحدى بنى عامر جن الفؤاد بهـــا

والحبل منها متين غير منخـــذم

فرع النساء وفرع القوم والدهـــا

أهل التحلة والإيفـــاء بالذمـــم

لم أر شمسا بليل قبلها طلعـــت

حتى تجلت لنا فى ليلة الظلـــــم(١)

ومر عام كامل بعد بدر ، وتم أثناءه إجلاء يهود بنى قينقاع مـــن المدينة لخيانتهم عهد رسول الله ، وما زال كعـــب مشـــهرا لســـانه فـــى أعراض المسلمين دون رادع ، بل وازداد جرأة وحقدا وتحديا بعد اجـــلاء بنى قينقاع عن المدينة.

فلما بلغ كعب مداه فى الفحش فى إيذاء الرسول صلى الله عليـــه وسلم والمسلمين وهذا بخلاف أنه تآمر مع بعض اليهود للفتك به(٢) فكـان لابد من رادع يردعه ويسكت لسانه ، ولكنه لم يتحرك أحد من تلقاء نفسه . ومن هنا لم يجد النبى الكريم بدا من طلب قتله ، فقال : من لكعب بـــن الأشراف فإنه قد آذى الله ورسوله ، فقال محمد بن مســـلمة الأنصـــارى الأوسى : أتحب أن أقتله ، قال : نعم ، فقال ابن مسلمة أنا لك به ، قـــال رسول الله : فافعل ، فاجتمع فى قتل كعب بن الأشراف كل من أبى نائلـــة سلكان بن سلامة بن وقش ، وكان أخا لكعب بن الأشراف من الرضاعـة،

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٤٨٨ .
(٢) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٦ ص ٤١ .

وعباد بن بشر بن وقش ، والحارث بن أوس بن معاذ ، وهم من بنى عبد الأشهل ، ومعهم أبو عبس بن جبر أخو بنى حارثة ([1]) .

ومع هذا فلم يكن كعب بن الأشرف هينا سهل المنال ، ولم يكن سبيل الوصول إليه معبدا ، فكعب كان ذا شرف وسن وغنى بين قومه ، وله فوق ذلك حصن يتمتع به ، ويلوذ فيه ، فكان لابد فى الوصول إليه من تدبير .

ولهذا مكث محمد بن مسلمة بعد أن وعد رسول الله بقتل كعب بن الأشرف لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق نفسه ، مفكرا فى الوعد الذى قطعه لرسول الله ، وفى كيفية تنفيذه فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك دعاه فأتى ، فقال له الرسول الكريم : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال : يا رسول الله قلت لك قولا لا أدرى هل أفى لك به أم لا ، قال رسول الله : إنما عليك الجهد فقال : يا رسول الله إنه لابد لنا أن نقول ـ يعنى يتحايلون على كعب بالقول للتمكن منه ولو كذبا ـ قال رسول الله : قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك([2]) .

فعندئذ قدم إلى ابن الأشرف قبل أن يأتوه جميعا سلكان بن سلامة أبو نائلة أخو كعب فى الرضاعة ، فجاءه فتحدث معه ساعة ، وتناشدا شعرا ـ وكان سلكان شاعرا ـ ثم قال : ويحك يا ابن الأشرف : إنى جئتك لحاجة أريد ذكرها لك ، فاكتم على ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل بلاء علينا ،عادتنا العرب ، ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت

([1]) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٢٢ .
([2]) ابن حنبل : كتاب السيرة النبوية ، ص ٤٩ .

عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهدت عيالنا ! فقال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرتك يا ابـــن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول فقال سلكان : إنى قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلـــك ، قـــال : أرهنونـــى نساءكم، قال : نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ فقال أرهنونى أبنـــاءكم قال لقد أردت أن تفضحنا ، إن معى أصحابا لى على مثـــل رأيـــى وقـــد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ، قال : فأى شـــيئ ، قـــال : نرهنك اللأمة — كل أدوات الحرب — ٠

وأراد سلكان بذلك ألا ينكر السلاح إذا جاءوا بها ، فقال كعـــب : إن فى الحلقة لوفاء ([١])٠

فرجع سلكان إلى أصحابه ، فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يـــأخذوا السلاح ، ثم اجتمعوا عند رسول الله قبل انطلاقهم ، وعندما حـــان وقـــت الانطلاق مشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الطريق ، ثـــم عاد إلى بيته بعد أن وجههم ودعا لهم وكانت ليلة مقمرة ٠

فأقبلت الفرقة المجاهدة حتى انتهوا إلى حصن كعب بن الأشـــرف فناداه أبو نائلة ، فأراد أن ينزل ، فقالت له امرأته : أين تخرج الســـاعة، وإنك امرؤ تحارب وإن صاحب الحرب لا ينزل فى مثل هذه الســـاعة٠ قال: إنه أبو نائلة ، لو وجدنى نائما لما أيقظنى ، قالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر ، فقال لها : لو دعى الفتى لطعنة أجاب ، فنزل فتحـــدث إليهم ساعة، ثم قالوا له : هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شـــعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه ! قال : إن شئتم ، فخرجوا يتماشـــون ، فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود رأس كعب ، ثم شم يـــده ،

([١]) ابن عبد البر : الدرر ، ص ١٥٢ ٠

فقال : ما رأيت كالليلة طيب عطر قط ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة فعاد لمثلها فأخذ فى هذه المرة الثالثة بفودى رأسه بقوة ، ثم قال : اضربوا عدوا الله فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شـــيئا ، قال محمد بن مسلمة : فذكرت مغولا ــ سكينا ــ فى سيفى حين رأيـــت أسيافنا لا تغنى شيئا ، فأخذته ، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنـــا حصن إلا أوقدت عليه نار قال : فوضعته فى ثندؤته ، ثم تحاملت عليـــه حتى بلغت عانته ، ووقع عدو الله ٠ وقد أصيب الحارث بن أوس بجـــرح أصابه بعض أسيافنا ، وأراح الله المسلمين من شر أعماله وخبث لسانه ثم أتوا النبى فأخبروه ، وكان ذلك فى ربيع الأول من الســـنة الثالثـــة مـــن الهجرة النبوية ٠ وقد ترك قتل كعب بن الأشرف أثرا عظيما فى نفـــوس اليهود ، إذ لم يعد بالمدينة يهودى إلا وهو يخاف على نفسه ، وقال كعـب بن مالك فى شأن قتل ابن الأشرف :

فغودر منهم كعب صريعا فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علته بأيدينا مشـــهرة ذكـــور
بأمر محمد إذ دس ليـــلا إلى كعب أخا كعب يســـير
فما كره فأنزله بمكـــر ومحمود أخو ثقة جســـور (١)

٣- ابن سنينة اليهودى :

وكان ابن سنينة من يهود بنى حارثة ، ومن الواضح أنه لم يكـــن أقل أذى من كعب بن الأشرف بل كان على شـــاكلته فـــى الأذى وقـــول الشعر فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبدون أن بعض مـــن تهود من العرب كانوا على شاكلة كعب بن الأشرف وابن سنينة هذا ومن

---
(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٦ ، ٥٧ ٠

هنا قال الرسول الكريم بعد قتل ابن الأشرف : من ظفرتم به من رجـــال يهود فاقتلوه ، فخافت اليهود ، ولم يظهر بعد ذلك عظيم من عظمائـــهم ، ولم ينطقوا ٠

ولما كان ابن سنينة حليفا لحويصة بن مسعود بن كعب من بنـــى حارثة من الأوس ويخالطهم ويبايعهم ، لم يختف كما اختفى الآخرون من اليهود ، فانتهز ذلك المجاهد المسلم محيصة بن مسعود أخـــو حويصـــة حليف ابن سنينة فعدى عليه فقتله ، وكان حويصة لم يزل علـــى شـــركه حتى هذا التاريخ ، فجعل يضرب أخاه محيصة ، ويقول : أى عـــدوا لله أقتلته أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله ، فقال محيصـــة : والله لـــو أمرنى بقتلك الذى أمرنى لقتلك ٠

فتعجب حويصة من قول أخيه ، وقال : أوالله لو أمـــرك محمـــد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم ، والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها ، فقال: والله إن دينا بلغ بك هذا لعجب فأسلم حويصة ، وقال محيصة فـــى هـــذا الشأن :

يلوم ابن أمى لو أمرت بقتلـــه
لطبقت ذفـــراه بأبيـــض قاضـــب
حسام كلون الملح أخلص صقله
متى ما أصوبه فليـــس بكـــاذب
وما سرنى أنى قتلتك طائعـــا
وأن لنا ما بين بصـــرى ومأرب[1]

---

[1] ابن هشام : المصدر السابق ، ق ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ٠

٥-خالد بن سفيان الهذلى :

وكان خالد بن سفيان [١] بن نبيح الهذلى من لحيان وذلك أنه بلـــغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خالد بن سفيان الهذلى نزل عرنـــه ـــ قرب عرفات وما والاها فى ناس من قومه وغيرهم ، قد جمع الجمــــوع لقتال رسول الله ٠

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس الجــــهنى ليقتله قبل أن يتحرك بجموعه نحو المدينة فقال عبد الله : صفه لــــى يـــا رسول الله ، قال : إذا رأيته هبته وفرقت منه ، وذكرت الشيطان وكــــان عبد الله لا يهاب أحد [٢] ٠

فاستأذن ابن أنيس قبل أن يتحرك إلى عدوه مـــن رســـول الله أن يقول ـــ أى يختلق الكلام ـــ فأذن له ، كما نصحه أن ينتسب لخزاعـــة إذا سئل ٠ فخرج عبد الله بن أنيس من المدينة لخمس خلون من المحرم مـــن السنة الثالثة من الهجرة لتنفيذ مهمته بعرنه يحمل معه سيفه ، فلما وصـــل إلى بطن عرنة فالتقى بخالد بن سفيان وحوله الأحابيش ومن ضوى به، فهابه عبد الله حتى سال عرقه رهبة ، وسرت قشعريرة بداخله ، فعـــرف حينئذ أنه خالد بن سفيان كما وصفه رسول الله عليه وسلم ٠

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـــ ١ ص ٢٥٤ ٠

(٢) وقيل بعثه إلى سفيان بن عبد الله الهذلى ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـــ ١ ص ٣٩١ ٠

ولما اقترب عبد الله بن أنيس من خالد بادره قائلا : من الرجــل ، فقال عبد الله ، رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتـــك لأكــون معك قال : أجل إنى لأجمع له ([١]) ٠

وتحرك خالد بمن معه ، ومشى معه عبـــد الله يجاذبـــه الحديــث فاستحلى حديثه حتى انتهى إلى خبائه ، فتفرق عنه أصحابه فدعاه ليدخل معه فدخل وجلس معه ، فلما هدأ الناس وناموا فاجأ عبد الله غريمه فقتله، وأخذ رأسه واختفى فى غار والناس يطلبونه من كل جهة ٠

فظل المجاهد العظيم يسير الليل ويتوارى بالنهار حتى لا يراه أحد إلى أن قدم المدينة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فقــال رسول الله لما رآه : أفلح الوجه ، فقال عبد الله : أفلح وجه رســول الله ، ثم وضع رأس الكافر بين يدى رسول الله وأخبره خبره ، فدفع إليه النبــى الكريم عصا فلما سأله : لم أعطيتنيها يا رسول الله ؟ قال : آيـــه بينـــى وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتحصرون يومئذ ، فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه ، فم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمت معه فى كفنــــه فدفنا جميعا ([٢]) ٠

ولم تكن هذه المهمة التى استمرت ثمانية عشر يوما والتى اضطلع بها عبد الله بن أنيس بالمهمة السهلة ، بل كانت مـــــن أصعـــب المـــهام فالرجل كان وحيدا ودخل وسط جيش من المشركين ووصل إلى قـــائدهم المرعب وغريمه الخطير ، وأنجز مهمته الخطيرة على خـــير وجـــه ، وشتت جيشا بكامله كاد يتحرك لقتال رسول الله ، فكان عبد الله بن أنيـس

([١]) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٣٩١ ٠

([٢]) المقريزى : إمتاع الأسماع ، جـ ١ ص ٢٥٥ ، الذهبى المصدر السابق ، جـــ ١ ص ٣٩١ ٠

بذلك مجاهدا فوق العادة ، وبطلا قل ما وجد من يماثلهوفدائيا لا يشق لـــه غبار([1]) ٠

٦-سلام بن أبى الحقيق :

كان أبو رافع سلام بن أبى الحقيق تاجر الحجاز من يـــهود بنـــى النضير ــ الذين كان قد أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينـــة فذهبوا إلى خيبر ــ ولم يكن أبو رافع أقل شأنا وخطرا من كعـــب بـــن الأشرف ، بل كان أعلى شأنا ، وأشد خطرا ، وأكـــثر بغضـــا وكرهـــا للإسلام ورسوله فإذا كان كعب بن الأشرف قال شعرا فـــى بكـــاء قتلـــى قريش فى بدر ، وحرضهم على القتال ، ثم شـــبب فـــى بعـــض نســـاء المسلمين ، فإن سلام بن أبى الحقيق كان ضمن من تآمر لقتل رســـول الله فى بنى النضير ، فلما أجلاهم كان على رأس من قاموا من اليـــهود فـــى تأليب العرب وتحزيب الأحزاب لقتال المسلمين فى غـــزوة الأحـــزاب ، والتى كادت أن يؤدى إلى كارثة تنزل بالمسلمين لولا عناية الله ، وصـــبر وجلد المسلمين وصمودهم ، أمام كافة المشركين واليـــهود مـــن حـــول المدينة٠

وقد وقع اختيار المسلمين لقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق مـــن جانب الخزرجيين ، وذلك أنه لما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فـــى عداوته لرسول الله قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبـدا ، فمن نعم الله أن الأوس والخزرج كانا يتنافسان ويتفاخران بما يقومان بـــه من عمل لإرضاء رسول الله وتنفيذ رغباته ، فلا تعمل الأوس عمـــلا إلا اجتهد الخزرج فى مثله ٠

([1]) منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ، ص ٢٥٤ ٠

وجريا على هذا السياق مـــن التنـــافس بيـــن الحييـــن ، تذاكـــر الخزرجيون فيما بينهم رجلا يكون فى مثل عداوة كعـــب بـــن الأشـــرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا ابن أبى الحقيق للأسباب التـــى ذكرناها آنفا فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فـــى قتلـــه فـــأذن لهم(١) .

وقد انتدب خمسة من المجاهدين من الخزرج أنفسهم لهذه المهمة . وهم : عبد الله بن عتيك ــ قائد هذه الجماعة ــ وعبد الله بـــن أنيـــس ، ومسعود بن سنان ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى ، وكانوا من بنى سلمة ، وخزاعى بن أسود ، وكان حليفا للخزرج من أسلم (٢) .

فخرج هؤلاء الخمسة إلى خيبر لتنفيذ المهمة بعد أن أقر الرســول الكريم عليهم عبد الله بن عتيك قائدا لهم ، كما نهاهم عن أن يقتلوا وليـــدا أو امرأة ، فلما وصلوا إلى أسوار خيبر قبيل الغروب ترك عبـــد الله بـــن عتيك أصحابه بعيدا عن باب الحصن ، وانطلق حتى اقترب من الباب ثـم تقنع بثوب وجلس كأنه يقضى حاجته ، فلما دخل الناس وأراد البـــواب أن يغلق باب الحصن ناداه ليدخل فدخل ، وأغلق باب الحصن .

وكمن عبد الله حتى نام البواب فأخذ المفاتيح وفتح الباب لأصحابه فدخلوا ، ثم توجهوا إلى أبى رافع ، فدخلوا بيتـــه ، وصـــاروا يفتحـــون الأبواب التى توصل إليه ، وكلما فتحوا باب أغلقوه من ورائهم ، حتـى لا يصل إليهم أحد من خلفهم ، فوصلوا إليه فى بيت مظلم وسط عياله ، فلـم يمكنهم تمييزه من بينهم ، فنادى عليه ابن عتيك حتى إذا رد عليهم تعاملوا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر ، ص ١٩٥ .

معه فقتلوه ، ثم نزلوا ، فصاحت امرأته فتصايح أهل الدار فاختبئوا فـــي منهر من مناهر خيبر (١).

وخرج اليهود فى ثلاثة آلاف فى آثارهم يطلبونهم بـالنيران فلـم يجدوا أحدا فرجعوا ، ومكث المجاهدون الأبطال فى مكانهم حتـى يـأس اليهود فى طلبهم فخرجوا من مخبئهم ، وقدموا المدينة وكل منهم يدعـي قتله ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أفلحت الوجـوه، فقالوا : أفلح وجهك يا رسول الله ! ثم أخبروه خبرهم ، فـأخذ أسـيافهم فنظر إليه ، فإذا أثر الطعام فى ذباب سيف عبد الله بن أنيس ، فقال : هذا قتله (٢).

وهكذا استطاعت هذه الفرقة المجاهدة من الخزرج أن تقضى على عدو لدود من أعداء الله ، كما قضت الفرقة الأوسية علـى كعـب بـن الأشرف فقال حسان بن ثابت فى قتل كل منهما :

لله در عصابـة لاقيتهـم
يابن الحقيق وأنت يابن الأشـرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكـم
مرحا كأسد فى عرين مـغـرف
حتى أتوكم فى محل بلادكـم
فسقوكم حتفا ببيـض ذفـف

---

(١) المنهر : خرق فى الحصن نافذ يجرى منه الماء ، ابن منظور : لسان العـرب ، باب " نهر " .
(٢) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٥٨ .

مستبصرين لنصر دين نبيهـــــم
مستصغرين لكل أمر مجحـــــف([1])

٧- أبو سفيان بن حرب :

وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية ، وهو كما هو معروف كـــان واحدا من ألد أعداء الإسلام قبل إسلامه يوم فتح مكة فى رمضـــان مـــن السنة الثامنة من الهجرة النبوية ، وكان أحد كبار رجالات قريش الذيـــن ألجئوا رسول الله إلى الفرار إلى الطائف ، ثم إلى الهجرة هو والمسـلمين إلى المدينة ، ثم قاد الجيوش لحرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فـــى أحد والأحزاب وغيرهما ٠

ولما يأس أبو سفيان من النيل من رسول الله عن طريق الحروب السابقة تآمر فى البعث إليه من يقوم بقتله عليه السلام ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف أمر المبعوث من قبل أبى ســـفيان لقتلـــه ، فأســـلم المبعوث واعترف بما جاء من أجله ومن الذى بعثه ([2]) ٠

ومن هنا بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم قبل صلح الحديبية بقليل لقتل أبى سفيان بن حرب جزاء لفعلتـــه ، فقـــدم عمرو وصاحبه إلى مكة ، وأراد الطواف بالبيت قبل تنفيـــذ مهامـــهما ، فأقبلا ليلا يطوفان بالبيت ، فرأى معاوية بن أبى سفيان عمـــــرا فعرفـــه فأخبر قريشا بمكانه فخافوه وطلبوه ـــ وكان فاتكافى الجاهلية ـــ وقالوا لم يأت عمرو لخير ، فحشدوا له وتجمعوا للقبض عليه ٠

([1]) محمد بن يوسف الصالحي : سبل الهدى والرشاد ، جـــ ٦ ص ١٦٦ ٠
([2]) الصالحي : المصدر السابق ، جـــ ٦ ص ١٩٤ ٠

فلما أحس عمرو بانكشاف أمرهما هرب ومعه صاحبه وفشلت مهمته ، وكأن الله سبحانه أراد بذلك أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيف الذى طالما وقف محاربا له ، ومانعا من انتشاره بشتى الطرق ٠

وإذا كان عمرو بن أمية الضمرى قد فشل فى مهمته إلا أنه لم يعد إلى المدينة دون أن يفعل شيئا فى سبيل مرضاة الله ورسوله؛ فإنه لقى فى طريق عودته مشركين فقتلهما أحدهما عبيد الله بن مالك بن عبيد الله — ويبدو أنه كان أحد عتاة المشركين — أما الآخر فكان رجلا من بنى الديل ، فقد سمعه عمرو يتغنى قائلا :

ولست بمسلم مادمت حيا   ولست أدين دين المسلمينا

ثم أن عمرا لقى فى طريق عودته أيضا رجلين مبعوثين من قبل قريش إلى المدينة ليتجسسا عن أخبار المسلمين ، فقتل أحدهما وأسر الآخر ، وقدم به المدينة ([1]) ٠

وهكذا قدم هؤلاء النفر من المجاهدين فوق العادة الغالى والنفيس — وليس هنا أغلى ولا أنفس من النفس فى سبيل مرضاة الله ورسوله ، فقاموا بمهام خاصة جدا فى سبيل ما يؤمنون به ، وربما لا يستطيع بها جيش بأكمله ، كما وفروا جهد الجيش الإسلامى للغزوات والسرايا اللتين ما انفكتا مستمرتين حتى قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

([1]) الصالحى : المصدر السابق ، جـ ٦ ص ١٩٥ — ١٩٧ ٠



الباب الثالث

-

انطلاق الإسلام

خارج الحجاز وختام الرسالة

(١)

الانطلاق بالدعوى

إلى خارج الحجاز

من الواضح من خلال النصوص القرآنية ، ومن خلال ما قام به النبى صلى الله عليه وسلم عقب صلح الحديبية ، أن الرسالة المحمدية كانت لعموم البشر أجمعين ، ولم تكن رسالة مقيدة بقوم ، أو محددة بمكان ، كما أرسل السابقون من رسل الله وأنبيائه ٠

فلم يكن الإسلام رسالة خاصة بقريش ، أو بعرب الحجاز ، أو حتى بالعرب عموما فى جزيرهم ، وإنما كانت رسالة عامة ، وكافة للبشر جميعا ٠

يقول الله تعالى فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم فى هذا الشأن ، فيقول عز من قائل فى سورة الأنعام : " **قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين** "([1]) ، وفى سورة يوسف :" **وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين** "([2]) ، وفى الأنبياء :" **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** "([3]) ، وفى سورة الفرقان :" **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** " ([4]) ، وفى سبأ :" **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** " ([5])،

([1]) سورة الأنعام ، الآية ٤٥ ٠
([2]) سورة يوسف ، الآية ١٠٤ ٠
([3]) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ ٠
([4]) سورة الفرقان ، الآية ١ ٠
([5]) سورة سبأ ، الآية ٢٨ ٠

وفى سورة ص :" **إن هو إلا ذكر للعالمين** " (١) ، وفى القلم :" **وما هــو إلا ذكر للعالمين** " (٢)

هذه النصوص القرآنية كما هو ظاهر ، تدل فى وضـــوح علـــى عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ومـــــن الواضـــح أن الرسول كان يعلم منذ بدء دعوته أبعاد رسالته ؛ ذلك لأن هـــذه الآيـــات القرآنية التى ذكرناها آنفا ، وردت كلها فى سور مكية ، ومن هنـــا إذاً لا مجال فى التشكك فى عموم الرسالة المحمدية منذ ظهور الإسلام ٠

ولكن من الواضح أيضا أن الرسول صلى الله عليه وســــلم قــد تدرج فى تبليغ رسالة ربه ، وذلك حتى يضمن لدعوته النجاح ، وحتى لا يصطدم فى بدايات الدعوة الإسلامية بجميع أعداءه من كل صوب ، ومن كل حدب٠ فبدأ بالدعوة سرا ، ثم جهر بالدعوة بأمر من الله ، يقـــول الله تعالى :" **فاصدع بما تؤمر وأعــرض عــن الجــاهلين ٠ إنـــا كفينـــاك المستهزئين** " (٣) وقال :" **وأنذر عشيرتك الأقربين ٠ واخفــض جنـــاح لمن تبعك من المؤمنين** "(٤) ٠

وهكذا سار الرسول صلى الله عليه وسلم خطوة خطوة فى تبليـــغ رسالة ربه ، فبدأ بعشيرته فبقريش ثم بأهل مكة جميعا ، فاضطرته أهــل مكة إلى الهجرة إلى الطائف ، فلم تنجح دعوته بها ، فعاد ، ثم هاجر إلى يثرب ، فانطلقت الدعوة منها إلى أنحاء الحجاز وما جاورها ٠

---

(١) سورة ص ، الآية ٨٧ ٠
(٢) سورة القلم ، الآية ٥٢ ٠
(٣) سورة الحجر ، الآية ٩٤ ، ٩٥ ٠
(٤) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ ، ٢١٥ ٠

وكان من المستحيل أن ينطلق الرسول الكريم بالدعوة إلى خـارج الحجاز وما حولها ، فى وقت كان عرب الحجاز ، وقريش على وجـــه الخصوص ، ويهود الحجاز أيضا يحاربونه ، ويحولون بينه وبين الناس، ولذلك ظلت الدعوة الإسلامية محصورة تقريبا فى بلاد الحجاز ، حتـــى السنة السادسة من الهجرة النبوية إلا فيما ندر .

فلما تم الصلح بين محمد صلى الله عليه وسلم وقريش ـــ زعيمـة أعداء الإسلام بصلح الحديبية فى أواخر السنة السادســـة . وأصبحـت طرق الجزيرة العربية كلها آمنة فى وجه الدعوة الإسلامية ، عندئذ فقـط آن الأوان أن يبدأ الرسول مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإســـلامية ، ألا وهى الانطلاق بالدعوة إلى خارج حـــدود الحجــاز ، لتصـــل إلـــى الأطراف المختلفة للجزيرة العربية ، ثم إلى العالم المعروف فـــى ذلــك الحين من حول الجزيرة العربية .

ولم يتوان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته إلى المدينـــة عقب صلح الحديبية فى تنفيذ هذه المرحلة الهامـــة مـــن حيــاة الدعــوة الإسلامية ، وذلك تطبيقا لعموم رسالته ، وتحقيقا فى تبليغ الدعوة للنـــاس كافة .

وتمثلت هذه المرحلة الجديدة ، للدعوة الإســـلامية فـــى إرســـال الرسول ، بكتب إلى مشايخ وأمراء وملوك العرب فى أنحـــاء الجزيـــرة العربية وإلى الحكام والملوك والأباطرة فى خارج الجزيرة يدعوهم فيـــها جميعا إلى الإسلام .

وأختار لهذه المهمة رسلا لهم معرفة وخبرة فى التعامل مع مثـل هؤلاء الأمراء والملوك والأباطرة ([١]) ٠

أ — كتب الرسول إلى أمراء العرب :

بعث الرسول — صلى الله عليه وسلم عدد كبيرا من الكتب إلـى مشايخ وأمراء وملوك العرب فى أرجاء الجزيرة العربية يدعوهم فيـها للإسلام ([٢]) ، وتعد هذه السياسة نقطة تحول هامة فى تاريخ بلاد العرب، فبعد أن كانت تلك البلاد مفككة العرى ، ويخضع بعض أطرافها للنفـوذ الأجنبى استطاع الرسول بسياسته التى اتبعها لتعميم الدعوة الإسلامية أن يمهد السبيل لتوحيد العرب سياسيا ودينيا ٠ ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نتناول هنا جميع من كتب إليهم الرسول ، ولكننـا سـوف نـهتم بـأهم الشخصيات العربية فى هذا الصدد ٠

١-أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام فأسلم وكتب فى رد الجواب :" أما بعد يا رسول الله فإنى قرأت كتـابك علـى أهـل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ، ويهود ، فأرسل إلى فى ذلك أمرك " ٠

فكتب إليه عليه الصلاة والسلام :" بسم الله الرحمن الرحيم ، مـن محمد رسول الله إلى المنذر بنى ساوى : سلام عليك ، فـإنى أحمـد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا عبـده ورسوله ، أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فلنفسه ، وإنه

([١]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ ٠
([٢]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٣٦٩ — ٤١٤ ٠

من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية "(١) .

٢- وأرسل الرسول سليط بن عمرو إلى هوزة بن على أمير اليمامة ، فلما جاءه بالكتاب ، بعث إلى رسول الله يطلب فيه أن يجعل له الأمر من بعده حتى يسلم ، وإلا حاربه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام حين قرأ رد أمير اليمامة على كتابه " اللهم اكفينه " ، فلم يلبث أن مات أثر فتح مكة (٢).

٣- وأرسل رسول الله الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى ، فلما بلغ مؤتة ـ وهى قريبة من عمل البلقاء بالبلاد الشامية ـ تعرض له شر حبيل بن عمرو الغسانى ، فقال للرسول : أين تريد ، قال : الشام ، قال شر حبيل : لعلك من رسل محمد . قال : نعم فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله رسول غيره وقد حزن لذلك حزنا شديدا ، وكان بسبب ذلك " غزوة مؤتة "(٣).

٤-وأرسل رسول الله شجاع بن وهب بكتاب إلى الحارث بن أبى شمر ، أمير دمشق ـ من قبل هرقل أمبراطور الروم ـ فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال : من ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه . فصرفه قيصر الروم عن عزمه .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٣٧٢ .
(٢) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ١ ص ٣٧١ .
(٣) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٤٥ .

ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال " باد وباد ملكه([1]) .

٥-وبعث الرسول عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ٨ هجرية إلى " جيفر ملك عمان وعبد ابنى الجلندى فدعاهما إلى الإسلام فأسلما([2]) .

٦-وكتب رسول الله إلى ملوك اليمن ، وفيهم الحارث بن عبد كلال ، وأخويه شريح ونعيم ، والنعمان ـ قيل ذى يزن ـ ومعافر ، وهمدان ، وزرعة ـ ذى عين ـ وأسلموا جميعا ([3]) .

٧- وكتب رسول الله إلى جبلة بن الأيهم ـ ملك غسان ـ يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم ، ولم يزل مسلما حتى زمن خلافة عمر بن الخطاب، ثم ارتد إلى النصرانية ، ورحل بأهله إلى القسطنطينية ، وذلك لأن عمر ساوى بينه وبين رجل من مزينة فى القود ([4]) .

٨- وبعث رسول الله جرير بن عبد الله البجلى ، إلى ذى الكلاع بن ناكور ـ حفيد تبع ـ وإلى ذى عمر ، يدعوهما إلى الإسلام ، فأسلما، وأسلمت معهما ضريبة بنت أبرهة بن الصباح زوجة ذى الكلاع([5]) .

٩- وكتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبد القيس وجاء فى كتابه لهم :" من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس ، أنهم آمنون بأمان الله ، وأمان رسوله على ما أحدثوه فى الجاهلية ، وعليهم الوفاء بما عاهدوا ([6]) .

([1]) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٦٥٢ .
([2]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
([3]) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ن جـ ٢ ص٧٩ ، ٨٠ .
([4]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ن جـ ١ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
([5]) المصدر السابق .
([6]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

١٠- وأرسل النبى الكريم إلى أقيال حضرموت وعظمائهم منـــهم زرعة وقهد والبسى والبحيرى ، وعبد كلال ، وربيعة ، وحجر (١) ٠

ب ــ كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة:

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيـــرة العرب كتبا مؤداها الترغيب فى الدخول فى الدين الإسلامى ولم يطلـــب منهم الخضوع لسلطانه ٠

فأوفد رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشـــى الحبشـــة وبعث معه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام فكتب إليه النجاشى رسالة يخـبره فيها بقبوله دعوته ، وتصديقه إياه (٢)٠

وبعث إلى هرقل إمبراطور الروم كتابا مع دحية بن خليفة الكلبى وجاء فيه :" بســـم الله الرحمـــن الرحيم ، من محمد رسول الله إلـــى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أمـــا بعد فإنى أدعـــوك بدعاية الإســـلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتيـــن ، فإن تـــوليت فإنما عليك إثم الأريسيين ــ أتباعك الفلاحين ــ ويا أهـــل الكتـــاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شـيئا ، ولا يتخـــذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تـــولوا فقولوا اشـــهدوا بأنا مسلمـــون "٠ ويقال إن هرقل قبل كتاب رســـول الله ، وكتـــب إليه : إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى، من قيصـــــر ملـــك الروم ، إنه جاءنى كتابـــك مع رسولك وإنى أشهد أنك رســـول الله ، نجـــدك عندنـــا فى الإنجيـــل ، بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى

(١) المصدر السابق ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٠٧ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣

دعوت الروم أن يؤمنوا بك ، فأبوا ، ولو أطاعونى لكان خيرا لهم ، ولوددت أنى عندك فأخدمك ، وأغسل قدميك ٠ وقد قيل غير ذلك عن هرقل فى هذه المسألة (١)٠

وأرسل الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبد الله بن حذافة السهمى يدعوه إلى اعتناق الإسلام ، وجاء فيه :" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى رسول الله إلى الناس كلهم ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فعليك إثم المجوس "٠ فلما قرئ عليه الكتاب مزقه ، وبلغ ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقال : فرق الله ملكه(٢)٠

ثم كتب كسرى إلى باذان عامله فى اليمن : أرسل إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به ، فأرسل باذان رجليل من عنده ، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى ٠ فلما قدما إلى المدينة وقابلا النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال أحد الرسولين : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثنا إليك لتنطلق معنا ، وقالها فى صورة تهديد ٠

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ ٠
(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ص ٤٦٠ ، ٤٦١ ٠

وفى ذلك الحين كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتلـــه ، وأخذ الملك لنفسه ، وعلم رسول الله الخبر من الوحى ، فأخبر الرسـولين ذلك فقال هل تدرى ما تقول ؟ ، إنا نقمنا عليك ما هو أيسر من هـــذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك قال : نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا لـــه : إن دينى وسلطانى يبلغ ما بلغ كسرى ، وينتـــهى إلـــى منتـــهى الخـــف والحافر، وقولا له : إن أسلمت أعطيتكما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدما على باذان ، فأخبراه الخبر .

وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه فـــى كتابه : انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك ، فلا تهجه حتى يـــأتيك أمرى ، وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس بـــاليمن وهم الأبناء(١).

كذلك وجه الرسول كتابا إلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم مع حاطب بن بلتعة ، جاء فيـــه :" بســـم الله الرحمـــن الرحيم ، من محمد عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على مـــن اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلـــى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فإن تولـــوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " فأحسن المقوقس استقبال رســـول النبـــى ، وقبل كتابه وأجابه بقوله : كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظـــن أن مخرجه الشام ــ وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ــ ، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى اتبـاعك ، ولا

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ص ٦٥٤ ــ ٦٥٦ .

أحب أن يعلم بمحاورتى إياك ، وبعث مع الرسول هدية إلـــى النبـــى — صلى الله عليه وسلم — وفيهامارية القبطيـــة التـــى ولـــدت لـــه ابنـــه إبراهيم[١]٠

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ٤٥ — ٤٧ ٠

{ ٢ }

أثر الدعوة لدى عرب الشام والروم :

من خلال هذه السفارات التى أرسلها النبى عليه الصلاة والسلام، للدعوة إلى الإسلام فى أنحاء الجزيرة العربية وفى خارجها وبعد أن قتل نتيجة لذلك أحد سفرائه على أرض الشام تيقن الرسول من مدى خطورة عرب الشام على الإسلام ، فمن تجرأ اليوم على أحد سفرائه – دون مراعاة للأصول المرعية فى معاملة الرسل – لا يحجم عن إلحاق الأذى به وبالمسلمين فى قابل الأيام ، لذا كان من المستحيل أن يسكت رسول الله على قتلة رسوله دون عقاب ، وإلا سخرت منه العرب قاطبة، واستهانت به وبأصحابه ، بل وبدينه أيضا ، وأصبح الصدام نتيجة لذلك وشيكا ، ولا مفر منه بين المسلمين ، وبين عرب الشام [١]٠

وهذا الصدام كان ولابد وأن يؤدى إلى صدام كبير وخطير بين القوة الإسلامية الفتية ، وبين إحدى القوى العظمى فى ذلك الزمان ، ألا وهى الإمبراطورية البيزنطية ٠

١ – سرية مؤتة (جمادى الأولى – سنة ٨ هـ) :

قلنا فيما سبق إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عملا لعمومية رسالته ، وبعثه عليه الصلاة والسلام للناس كافة – انتهز الفرصة التى أتاحها له صلح الحديبية ، فبدأ إرسال رسله فى أنحاء الجزيرة العربية وخارجها – عقب هذا الصلح – للدعوة إلى الإسلام٠

---

(١) المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٣٥٢ ٠

وكان ضمن رسل الرسول الذين اضطلعوا بهذه المهمة الحـــارث بن عمير الأزدى ، وكان رسولا إلى صاحب بصرى من البلاد الشامية ، ولما نزل الحارث بن عمير فى مؤتة بكتابـــه اعترضـــه فـــى الطريـــق شرحبيل بن عمرو الغسانى ، ولما علم أنه موفد مـــن رســـول الله إلـــى صاحب بصرى ضرب عنقه ٠

فاستاء الرسول بما حدث لرسوله من قبل شر حبيل بن عمـــرو الغسانى ، وغضب أشد الغضب ، ورأى أنه إن لم يؤدب قتلة رسوله فلا أمان لرسله الموفدة إلى شتى الجـــهات ، ولا احـــترام لـــه ولا لدولتـــه الإسلامية أمام أعدائه ٠

لذلك جهز رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ســرية قوامـــها ثلاثة آلاف مسلم للقصاص من قتلة رسوله ، وعين زيد بن حارثة قـــائدا للسرية ٠

وفى جمادى الأولى من السنة الثامنـــة للـــهجرة خـــرج جيـــش المسلمين إلى مؤتة ، بعد أن شرح لهم رسول الله مهمة الجيش ، ورتـــب قواده وقال لهم رسول الله فى هذا الشأن : إن أصيب زيد فرئيسكم جعفـر ابن أبى طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة(١)٠

وسار جيش المسلمين حتى نزل معان من أرض الشام ، فبلغـــهم عندئذ أن هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية قد نزل مآب ــ مـــن أرض البلقاء ــ فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من عرب الشام مثلـــهم

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـــ ٢ ص ٦٥ ٠

فأقام المسلمون ليلتين فى معان ليتشاوروا فى هذا الأمر ، وانتهى قرارهم بالهجوم على العدو ، وذلك على الرغم من قلة عددهم إذا قورنوا بجحافل الروم ومن تبعهم من العرب ٠

فتحرك المسلمون صوب العدو ، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء عند قرية يقال لها مؤتة ، فلقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب ، ومعهم مالا قبل لهم به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، فاستعد المسلمون ورتبوا صفوفهم ، وجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار ، يقال له عبادة بن مالك (١) ٠

ثم دار القتال بين الفريقين ، فأخذ زيد بن حارثة اللواء ، وظل يقاتل حتى قتل ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، فقاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين ــ هو ثابت بن أقرم ، أخو بنى العجلان وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم ، فاختار المسلمون خالد بن الوليد أميرا لهم(٢)٠

وحينئذ أظهر خالد بن الوليد مهارته الحربية فى تخليص المسلمين من هذه الحرب الضروس ، وصار يتأخر بهم قليلا ، مع التغيير فى وجوه المسلمين المواجهين للعدو ، بالتقديم والتأخير بين أفراده لإيهامهم بوصول إمدادات جديدة للمسلمين فلم يتبعه الروم فى تراجعه بجند المسلمين ، لأنهم ظنوا أن خالدا يخدعهم حتى يرمى بهم فى

---

(١) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ١٧٥ ٠
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ١٨٦ ٠

الصحراء ، ثم عاد خالد بن الوليد بالمسلمين إلى المدينة بعد أن بذل جهده فى إنقاذ بقية المسلمين ، فقابلهم أهل المدينة بشئ من السخط ، إلا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم ير رأى أهل المدينة ، بل أظهر لهم أمله فى عودتهم لساحة القتال ، فما هى إلا كرة تعقبها انتصارات فقال : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله [1].

وكانت النتيجة التى أسفرت عنها هذه السرية فى غير صالح المسلمين ، إذ أنها فتحت عيون الروم إلى خطورة هذه القوة الإسلامية الفتية التى خرجت من قلب صحراء العرب لتهديد أغنى أقاليم الإمبراطورية ، وعلى الرغم من أهمية عودة المسلمين إلى الشام عند الرسول ، إلا أنه انشغل إثر هذه السرية بالفتح الأعظم – فتح مكة – ، ثم لما خلص من رأس الكفر فى قلب الحجاز تطلع الرسول مرة أخرى – دون إبطاء – إلى حيث الخطر الجاسم على أطراف دولته فى الشمال.

٢ – غزوة تبوك (رجب سنة ٩ هـ) :

أقام الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة – بعد عودته من مكة – إلى رجب من السنة التاسعة للهجرة ، ولما بلغ رسول الله فى هذا التاريخ أن الروم ونصارى عرب الشام قد تجمعوا على حدود بلاد الشام ، أراد أن يقضى على أى تهديد من قبل الروم ، كما أراد أن يقضى فى نفس الوقت على الآثار الناجمة التى خلفتها سرية مؤتة ،

---

(1) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٣٨٢ .

بخلاف أنه كان يريد أيضا توطيد نفوذه بتلك المنطقة ، ويدعو أهلها إلى الإسلام ([1])٠

لذلك كله دعا رسول الله المسلمين إلى الجهاد ، كما بعث إلى القبائل ورؤساء العشائر على الخروج ، ويرغبهم فى الجهاد كما حض رسول الله المسلمين على بذل المال فى سبيل الله ٠

وكان التجهيز لهذا الجيش زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر والجدب ، واقتراب طيب الثمار ، والناس يحبون المقام بجوار ثمارهم والجلوس تحت ظلالها ، ويكرهون الشخوص ، ومن هنا سمى هذا الجيش بجيش العسرة ، ولهذا تثاقل البعض فى التهيؤ ، واعتذر جماعة بأعذار واهية منها : مشاق السفر ، ومتاعبه وشدة الحر ، كما استأذن فريق المنافقين فى التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها([2])٠

وبينما كان ذلك من فعل قليلى الإيمان والمنافقين ، سارع المؤمنون حقا وبينهم كبار الصحابة فى تلبية نداء الرسول، فتبرع أبو بكر الصديق بكل ماله ، وعمر بن الخطاب بنصف ماله ، كما تبرع العباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة ، ومحمد بن مسلمة بمال وفير ، أما عثمان بن عفان فكان أكثرهم نفقة على هذا الجيش ، إذ جهز ثلث الجيش بماله الخالص ،

([1]) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٣٤٤ ، المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٣٩١ ٠

([2]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥١٦ ، ٥١٧ ٠

وبخلاف هؤلاء أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم ([1]) ٠

وبعد أن لاقى الرسول الصعاب فى سبيل إعداد الجيش تجهز فى نهاية الأمر بجيش قوامه ثلاثون ألفا من المسلمين ، فخرج بهم فى أول رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وكان عبد الله بن أبى بن سلول يعسكر مع أنصاره من المنافقين بمكان يعرف بثنية الوداع ، وأخذ يثبط عزائمهم بتخويفهم من الروم ، ثم ما لبث أن تخلف هو أتباعه عن النبى ، وعادوا إلى المدينة ([2])٠

لكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يبال بتخلف هؤلاء المنافقين ، وسار بجيشه قدما نحو بلاد الشام حتى وصل تبوك فحط بها رحاله ، فسارع أهلها إلى الصلح مع الرسول ودفع الجزية ، ثم وفد إليه عليه السلام وهو بموقعه بتبوك رؤساء تلك النواحى ، وصالحوه على دفع الجزية ، ومنهم وفد أهل أيلة برئاسة سيدهم يحنة بن رؤبة ، ووفود أهل جرباء وأهل أذرح ، وأهل مقنا([3])٠

ثم بعث رسول الله خالد بن الوليد وهو بتبوك إلى دومة الجندل على رأس فريق من جيشه ، وذلك خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك — وكان يدين بالنصرانية — ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته ، وهذا بخلاف تحقيق أهدافه التى ترمى إلى بسط سلطانه على

([1]) محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ ٠
([2]) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٢٣٥ ٠
([3]) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٥٢٢ ، الصالحى : سبل الهدى والرشاد ، جـ ٥ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ ٠

شمال الحجاز ، فأمر رسول الله خالد بن الوليد بأن يأتى بأكيدر إليـــه ، ونهاه عن قتله ٠

فسار خالد إلى دومة الجندل بعد أن نصحه رسول الله بأنه سيجد أكيدرا يصيد البقر — إذ كان صيد البقر من هواياته العظيمة — ، ولمـــا أصبح حصن أكيدر على مرأى من النظر عسكر خالد بجنده ، انتظـــارا لفرصة خروج أكيدر لصيد البقر ، وفى ليلة مقمرة من تلك الليالى خـرج أكيدر مع نفر من أهله ، وفيهم أخ يقال له حسان ، فهجم عليه خالد بمـن معه من جند المسلمين ، وقتلوا أخاه حسان وقبضوا على أكيدر ، وقدم به خالد على رسول الله ، فلما مثل أمامه حقن له الرسول دمه ، وصالحـــه على الجزية ، ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته (١)٠

وبعد أن استتب الأمر لرسول الله فى تبوك وما حولها ، وكتـــب العهود و المواثيق لكل من صالحه من أهل هــذه النواحــى ، انصــرف الرسول بمن معه من تبوك ، بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة ، وعـــاد إلى المدينة فى شهر رمضان سنة ٩ هـ دون أن يتابع السير إلى حـدود الشام ، ولم يقع قتال بينه وبين الروم ، حيث لم يجد جموعا للـــروم ولا العرب المتنصره كما أشيع ذلك وهو بالمدينة ، واكتفى الرسول بتوطيـــد سلطانه السياسى على شمال الحجاز (٢)٠

وكانت هذه الغزوة هى آخر الغزوات التى خرج فيها النبـــى — صلى الله عليه وسلم — مع المسلمين للقاء الأعداء ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ ٠
(٢) الكتبى : عيون التواريخ ، جـ ١ ص ٣٥١ ٠

٣ـ سرية أسامة بن زيد (صفر ـ سنة ١١ هـ) :

توقف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ـ كما رأينا ـ على حواف بلاد الشام ،ولم يبغ التوغل فى عمقـــها ، بعـد أن اطمأن من عدم وجود جموع بيزنطية ـ كما أشيع ـ واكتفى بما أنجـزه من إبرام لعدد من المحالفات مع أمراء وحكام هذه المنطقة ٠

وعلى الرغم من توقفه عند هذا الحد فى غزوته إلا أنه لم ينـــس أبدا قتل رسوله على يد شر حبيل بن عمرو الغسانى ، كما أنه لم ينس ما حدث لجيش المسلمين عند مؤتة ، من استشهاد نفر من كبار صحابتـــه ، وما حدث إثر ذلك من انسحاب لجيشه ، وهو ما لم يحـــدث قبـــل ذلـــك للمسلمين فى غزواتهم وسراياهم ، هـــذا بخـــلاف أن كبريـــاء الـــروم وغطرستها جعلتها تأبى أن يدخل فى دين الإسلام أحد من عمالـــها مـــن العرب حتى أنهم قتلوا فروة بن عمرو الجذامى والى معان مـــن قبلـــهم بسبب إسلامه ([1])٠

وظلت بلاد الشام لكل ما سبق تمثل فى نظر الرســـول الخطـــر الأكبر على الدعوة الإسلامية ، لكنه أراد قبل أن يخوض غمار الحـروب فى الشام أن يوطد أركان دولته فى أرجاء الجزيرة العربية ، وعندما تـــم له ما أراد توج ذلك بالحج الذى اجتمع له وفود من كل أنحاء الجزيـــرة العربية ، وبلغ تعدادهم حوالى مائة ألف حاج ٠

ولما عاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أصحابـــه إلـــى المدينة ، بعد انتهائه من الحج ، وأصبح لا يخشى شيئا من ناحية الجزيرة العربية ، لسيادة الدين الإسلامى على أقاليمها ومدنها بدأ ينظـــر بعيـــن

([1]) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ٠

الاعتبار إلى حدود بلاده الشمالية حيث يرابط الروم ، وأخذ فى الاستعداد لهم ([1])٠

فلما كان يوم الاثنين لأربعة بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية أمر رسول الله بالتهيؤ لغزو الروم ، ثم فى يوم الثلاثاء دعا أسامة بن زيد ، وأسند إليه قيادة هذا الجيش ، وشرح له مهمة الجيش، وأوصاه بجملة من الوصايا ٠

وبينما وجد إسناد قيادة الجيش لأسامة على الرغم من حداثة سنه التى لم تتجاوز العشرين قبولا من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار ، إلا أن بعض المهاجرين قد ساءهم تولية أسامة قيادة الحملة ، وفيها جمع كبير من كبار الصحابة ، وقال حينئذ لأسامة : سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم ، فقد وليتك هذا الجيش([2])٠

فلما بلغ ذلك الرسول ــ وكان قد بدأ يشتكى من مرض الصداع والحمى ــ غضب غضبا شديدا ، وتحامل على نفسه ٠ ودخل المسجد، وألقى على المسلمين خطبة ، قال فيها : أما بعد ، أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة ؟ والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبل ، وأيم الله ، إن كان للإمارة لخليقا ، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده ، وإنهما لمخيلان لكل خير ، فاستوصوا به خيرا ، فإنه من خياركم([3])٠

([1]) المباركفورى : الرحيق المختوم ، ص ٤٢٢ .
([2]) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٥٥٩ .
([3]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥ .

ثم مضى رسول الله ــ على الرغم من المرض الذى اعــتراه ــ فى إعداد حملة أسامة بن زيد ، وأخذ المسلمون يتهيئون للغزو ، وأقــام أسامة معسكرا خارج المدينة وركب إليه ، وطلب من أصحابه اللحاق به، حتى تم تجهيز الجيش ، غير أنه لم يكد يشرع فى السير بحملته حتى أتاه خبر اشتداد المرض على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأقبل إلــى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وبعد فــترة قصيرة انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وذلك فى يوم الاثنين الموافـق ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هــ ٠

وقد أصر ــ بعد ذلك ــ أبو بكر الصديق خليفة المســلمين فــى إنفاذ جيش أسامة إلى أطراف الشام الجنوبية تحقيقا لما أمر به الرســول، وقد حقق هذا الكثير من الأهداف التى رمى إليها النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ (١)٠

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جــ ٢ ص ١٢٧ ٠

{ ٣ }

عام الوفود (سنة ٩ هـ)

لما تم صلح الحديبية فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة النبوية أمن المسلمون من شر قريش ، وما كانوا يظاهرون به من الطعن فى الدين الإسلامى ، فكان ذلك سببا مهما من أسباب نجاح الدعوة الإسلامية ، إذ أخذ سفراء الدعوة الإسلامية يسيحون فى ربوع الجزيرة العربية ، بل وفى خارجها أيضا دون خوف من كيد ، أو عداء ، حاملين معهم كتب رسول الله إلى الأباطرة والملوك والرؤساء وشيوخ القبائل، وناشرين مبادئ الحق دين الإسلام إلى كل بقعة وطئتها أقدامهم ، فأصبح كثير من القبائل العربية وبطونها مهيئة للدخول فى هذا الدين الجديد ٠

ولما فتحت مكة ، ودخلت قريش فى الإسلام ، ثبت عندئذ عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم ، فإن الظفر ببيت الله الحرام ، واكتساب السيادة فيه أمر عظيم فى نظر العرب ، لم يكن من الممكن أن ينال إلا بمعونة من الله القادر الذى يعبده كل منهم ، فلانت شكيمتهم بعد الإباء ، فشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجا أفواجا ، قد دانو بالإسلام ، ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية ، وذلك فى السنة التاسعة للهجرة ، وسميت لهذا بعام الوفود [1]٠

وكان الرسول يكرم وفود القبائل العربية ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، ويجيزهم ببعض الجوائز عند انصرافهم من المدينة عائدين إلى

(1) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٩٥ ٠

بلادهم ، كما كان يلبس أحسن ثيابه عند مقابلة الوفد ، ويأمر أصحابـــه بالاقتداء به ، ومن أهم الوفود التى وفدت على الرسول بالمدينة فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية :

١- وفد ثقيف :

تحدثنا عن هذا الوفد ، عند حديثنا عن موقـــف الرســول مــع هوازن و ثقيف (١)٠

٢- وفد بنى تميم :

قدم وفد بنى تميم إلى المدينة ، وعليه أشرافهم منهم : عطارد بن حاجب بن زراره ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وقيس بن عاصم ، فلما دخل هذا الوفد المسجد نادوا رســول الله من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك الرسول ، فخرج إليهم ٠ فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقــال قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فخطب مفتخرا بقومـــه وعشيرته ، فأجابه بأحسن منها قيس بن شماس خطيب المسلمين ، وقـــد أثنى فى خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينيا ٠ ثم قام شـــاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال مفتخرا بقومه ، أولها :

نحن الكرام فلا حى يعادلنـــا	**منا الملوك وفينا تنصب البيع**
وكم قسرنا من الأحياء كلهم	**عند النهاب وفضل العز يتبع**

إلى أن قال :

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحـــد	**إنا كذلك عند الفخر نرتفــع**

---

(١) انظر ما سبق ص ٢١٣ ، ٢١٣

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين ، وأجابهم بقصيدة وهى مـن أحسن قصائده ، وأولها :

إن الذوائب من فهر وإخوتهـــــــم

قد بينوا سنـــــة للنــــــاس تتـــــبع

يرضى بهم كل من كانت سريرتـــه

تقوى الإلـــه وكل الخير يصطنـــــع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهـــــم

أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعــوا

سجية تلك فيهم غير محدثـــــة

إن الخلائق فاعلم شرها البـــــــدع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم

فكل سبق لأدنـــى سبقهـــــم تبـــع

ولما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس :

وأبى ، إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنـــا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا · ولما فرغ القوم أسلموا ، وأجازهم عليه السلام ، وأحسن جوائزهم([1])·

٣– وفد بنى سعد بن بكر :

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى سعد بن بكر ، وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة فلما وصل إلى المسجد أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله جالس فى أصحابه ــ وكـان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ــ فأقبل حتى وقف أمام رســـول الله وأصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله : أنا ابن عبـد المطلب قال : أمحمد ؟ قال : نعم · قال : يا ابن عبد المطلـــب ، إنـــى

([1]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٦٠ ــ٥٦٧ ·

سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدن فى نفسك قال : لا أجـــد فـــى نفسى ، فسل عما بدا لك قال : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك وإلــه من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إليه رسولا ؟ قال : اللـــــهم نعـــم قـــال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك . آلله أمـــرك أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنـــا يعبدونها معه ؟ قال : اللهم نعم قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كـــان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هـــذه الصلـــوات الخمس ؟ قال : اللهم نعم . ثم أخذ ضمام بن ثعلبه يذكـــر لرســـول الله ناشدا فرائض الإسلام فريضة الزكاة والصيام والحـــج وشـــرائع الإسلام كلها ، حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشـــهد أن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف إلى بعيره راجعا : فقـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة([1]) .

فلما قدم ضمام بن ثعلبة إلى قومه بنى سعد بن بكر، اجتمع إليـــه قومه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى قالوا : مه يـــا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال ويلكم ، إنهما والله لا يضران ، ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا ، وأنزل عليـــه كتابـــا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـــريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ومـــا نهاكم عنه . فلم يغرب نهار ذلك اليوم على من حضره من قومـــه مـــن رجل ولا إمرأة إلا وكان مسلما([2]).

([1]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
([2]) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ٦٠ ، ٦١ .

٤- وفد عبد القيس :

ثم قدم عليه من ربيعة وفد عبد القيس وعلى رأسهم الجارود بن عمرو بن حنش ، أخو عبد القيس — وقيل الجارود بن بشر بن المعلى — وكان نصرانيا . فلما انتهى الوفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرض عليهم الإسلام ، ودعاهم إليه ، ورغبهم فيه فقال الجارود : يا محمد ، إني كنت على دين ، وإني تارك ديني ؟ فقال رسول الله : نعم ، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه . وعندئذ أسلم الجارود ، وأسلم أصحابه .

ثم خرج الجارود راجعا إلى قومه ، وكان حسن الإسلام صلبا على دينه ، ولم يرتد — عند الردة — عن الإسلام كما ارتد إليه قومه، بل وقف مدافعا عن الإسلام ويدعوهم إليه (١).

٥-وفد بنى حنيفة :

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى حنيفة ، وفيهم مسيلمة الكذاب ، فأتوا رسول الله وخلفوا مسيلمة في رحالهم ، فلما أسلموا أمر لهم رسول الله ببعض الهدايا ، فقال الوفد : يا رسول الله ، أنا قد خلفنا صاحبا في رحالنا يحفظها لنا فأمر له بمثل ما أمر به للوفد ، وقال : أما أنه ليس بشركم مكانا — يعنى لحفظه ضيعة أصحابه — ثم انصرفوا ، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد مسيلمة الكذاب وتنبأ(٢) ، وقال : إنى أشركت في الأمر معه ، ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن :" لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٤٤١ ،٤٤٢ .
(٢) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٧٠ .

تسعى ، من بين صفاق وحشى " وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة ٠

وكتب مسيلمة لرسول الله : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد ٠ فإنى أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون ٠ فكتب إليه رسول الله : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين٠

وقال الرسول للرجلين اللذين أتيا بكتابه : ما تقولان أنتما ؟ فقالا: نقول كما قال ٠ فقال : أما والله ، لولا أن الرسل لا تقتل لضربت رقابكما (١) ٠

٦- وفد طيئ :

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد طيئ ، وفيهم سيدهم زيد الخيل ، فلما انتهوا إليه كلموه ، وعرض عليهم الرسول الإسلام فأسلموا ، فحسن إسلامهم ٠ وقال عليه السلام فى زيد : ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ ما كان فيه ، ثم سماه زيد الخير ، وأقطعه فيدا وآرضين معه ، وكتب له بذلك(٢)٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ١٣٧ ، ١٣٨، محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ، ص ١٨٢ ،١٨٣ ٠

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ ٠

ثم وفد عليه من طيئ أيضا عدى بن حاتم الطائى ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكان السبب فى وفادته أخته ، وكانت قد عوملت معاملة طيبة من الرسول صلى الله عليه وسلم وهى فى أسره ، ثم تركها حرة تعود إلى أهلها فذهبت إلى أخيها عدى فى الشام بعد أن هرب إليها ، وشجعته على القدوم إلى رسول الله والدخول فى الإسلام ([١])٠

٧– وفد بنى عامر :

وقدم عليه وفد بنى عامر ، وفيهم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس وجبار بن سلمى ، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم ٠ وكان بنو عامر يقولون لابن الطفيل : يا عامر إن الناس قد اسلموا فأسلم فقال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش ؟ ثم سار مع الوفد مضمرا غدرا واتفق على ذلك مع أربد بن قيس وحاول عامر شغل رسول الله حتى يغدر به قيس ، إلا أن قيسا لم يستطع أن يقدم على الغدر حيث أنزل الله عليه البهت والرعب، فعاد عامر بن الطفيل وهو يتوعد الرسول فى حنق وغيظ قائلا : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ٠ فلما ولى قال رسول الله : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل ([٢])٠

ولما خرج الوفد راجعين إلى بلادهم ، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يقول : يا بنى عامر ، أغدة كغدة البكر فى بيت امرأة من بنى سلول ، ثم خرج أصحابه إلى بلادهم بعد أن واروه ٠

([١]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٧٨ ــ ٥٨١ ٠
([٢]) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٢٦٩ ٠

وعندما وصل الوفد إلى أرض بنى عامر فى الشتاء أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شىء والله ، لقد دعانا إلى عبادة شئ لوددت أنه عندى الآن ، فأرميه بالنبل حتى أقتله فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقيما (١) ٠

٨ ـ **وفود أخرى :**

وهناك بخلاف ما تقدم وفود أخرى كثيرة أوفدتها القبائل العربية من أنحاء الجزيرة العربية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ، وأيضا فى السنة العاشرة من الهجرة ٠ ومنهم وفود من مراد ، وفيهم فروة بن مسيك المرادى ، ومن بنى زبيد ، وفيهم عمرو بن معد يكرب ، ووفد كندة ، وفيهم الأشعث بن قيس ٠ ووفد الأزد ، وفيها صرد بن عبد الله الأزدى ، كما قدم أيضا رسول من ملوك حمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه كتاب منهم يعلمونه بإسلامهم ٠ وهم الحارث بن عبد كلال ،ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان ، كما بعث إليه زرعة ذويزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامه ومفارقته للشرك وأهله(٢)٠

وهكذا دخل الناس فى دين الله أفواجا ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة فى أكثر من مائة ألف كلهم دانوا بدين الإسلام فى حياته صلى الله عليه وسلم ، والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة ٠

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ٠
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ١ ص ٤١٤ ـ ٥٠٠ ٠

{ ٤ }

الأيام الأخيرة فى حياة النبى
صلى الله عليه وسلم

أصبحت بلاد العرب بعد انتشار الإسلام بين جميع قبائلها بدوا وحضرا ، تجمع بينها عقيدة واحدة ، كما ظهر بين أهلها شعور بالوحدة القومية ، بعد دخولهم تحت لواء الرسول ، مما ساعد على قيام دولة إسلامية قوية على أساس الوحدة الدينية والسياسية ٠

وبلغت المدينة شأنا عظيما فى عصر الرسول وظفرت بمركز ممتاز بين مدن الجزيرة العربية ، فهى التى آوت الرسول ونصرته واجتمع بها المهاجرون والأنصار ،ونزل فيها من القرآن أكثر مما نزل بمكة ، فأصبحت بذلك مصدر التشريع الإسلامى ، كما أصبحت مركزا للدولة الجديدة ، فوجه منها الرسول رسله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، كما أقبلت إليها وفود القبائل العربية من أنحاء الجزيرة ، تعلن إسلامها وولاءها للرسول ٠

وقد تمتعت المدن العربية الأخرى بعد أن تحولت إلى الإسلام بقسط وافر من الاستقلال الذاتى داخل نطاق الدولة الإسلامية ،فقد ترك الرسول للأمراء الذين أسلموا ما كان لهم من سلطان فى بلادهم قبل إسلامهم ، كما بعث عماله إلى هذه البلاد ليعلموا الناس القرآن ، ويفقهوهم فى الدين ، ويجبون منهم الزكاة ، ثم يوزعونها بين الفقراء من أهل تلك البلاد ، أو يرسلونها إلى المدينة ٠

وكان لزاما على الرسول صلى الله عليه وسلم بعدئـــذ أن يلتقـــى بأمته الجديدة وجها لوجه ، فى مكان جامع بعد أن التقى بوفودهـــم فـــى المدينة ، يعاهدهم ويعاهدونه بالتمسك بما جاء به من الحق ، وما نزل له من تعاليم الإسلام ، وليبين لهم آخر أركـــان الإســـلام وشـــعائره ، ثـــم ليودعهم حيث يكون قد أنجز رسالة ربه ، وما كلفه الله به مـــن تبليـــغ الإسلام وأركانه ، وفرائضه وسننه ، وأوامره ونواهيه ، حتى يحقق قول الله تعالى :" وما فرطنا فى الكتاب من شيئ " (١) ٠

حجة الوداع : (ذو الحجة سنة ١٠ هـ) :

فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية ، وبعدما اطمـــأن الرســـول صلى الله عليه وسلم إلى أن الجزيرة العربية أصبحت كلها تنضوى تحت راية الإسلام ، استقر رأى رسول الله على الخروج للحج ٠

وكان الرسول قد مهد لأن تكون هذه الحجة وما بعدهـــا خالصـــة للمسلمين وبداية عهد جديد لبيت الله الحرام والكعبة الشريفة ، إذ أنه عليه الصلاة والسلام كان قد بعث ـــ فى السنة التاسعة من الهجرة ـــ أبابكرا أميرا على الحج بعد أن علمه مناسك الحج ، وصاحبه ثلاثمائـــة مســـلم، وبعد أن خرج أبو بكر بمن معه إلى مكة بعث إثره على بن أبى طالب ، ليؤذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كـافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته إلا من نقض (٢) ٠

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٨ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٥٤٣ – ٥٤٦ ٠

فلما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة ، تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر الناس بالجهاز له ، وأمرهم أن يلقوه ، فوفد إلى المدينة خلق كثير من المسلمين يريدون أن يأتموا برسول الله فى حجته.

وفى الخامس من هذا الشهر سار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمع كبير من المهاجرين والأنصار ، ومن كان حول المدينة وقريبا منها ، كما لحق به فى الطريق ، وفى مكة ، وفى منى وعرفات عدد جم من القبائل العربية القريبة والبعيدة ، حتى بلغ عددهم حوالى مائة ألف حاج ، وساقوا معهم الهدى (١).

ولما بلغ رسول الله بمن معه ذا الحليفة أحرم الرسول والمسلمون جميعا ، ونادى الرسول ملبيا والمسلمون من ورائه :" لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك " ، ثم مضى الرسول وجموع المسلمين من حوله نحو مكة ، فلما انتهى الحجيج إليها فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، دخل النبى صلى الله عليه وسلم وسائر المسلمين فى أثره المسجد الحرام من باب بنى شيبة ، ورفع يديه حين رأى البيت ، وقال : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ، وزد من عظمة ممن حجه واعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبرا .

ثم طاف حول الكعبة سبع مرات ، وإثر ذلك صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين ، وبعد فراغه من الصلاة خرج من المسجد إلى الصفا وسعى بين الصفا والمروة ، وفى اليوم الثامن من أيام ذى الحجة سار

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ١١٠ وما بعده .

إلى منى ، فأقام بها ليلة ، ثم خرج فى صباح اليوم التاسع إلى جبل عرفات والمسلمون فى أثره (١)٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما أرى الناس منسكا من مناسكهم ، وعلمهم سنن حجهم ، يقول لهم ويكرر عليهم : ((أيها الناس خذوا عنى مناسككم ، فلعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا)) (٢) ٠

وعلى جبل عرفات ألقى النبى عليه الصلاة والسلام خطبته الخالدة التى تعتبر دستور الإسلام وقواعده ، وجاء فيها :

" أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وأنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل — فهو أول ما أبدأ من دماء الجاهلية (٣) ٠

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٧ ٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ٢٢٣ ، محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ، ص ١٨٤ ٠

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٥٥٤ ٠

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكن إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس : إن النسيء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليه ، ورجب مضر ، الذى بين جمادى وشعبان ٠

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه ٠

أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ فقال الناس: اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهد (١) ثم أكمل بعد ذلك باقى مناسك الحج ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ ٠

وقد سميت هذه الحجة " حجة الوداع " ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها ٠

فلما انقضى حجه عاد إلى المدينة فى أواخر ذى الحجة من السنة العاشرة من الهجرة ، وأقام بها بقية ذى الحجة والمحرم وصفر ٠

وفى يوم الجمعة والرسول صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة على ناقته العضباء بعد العصر ، والناس جموع حوله ، نزلت على النبى عليه الصلاة والسلام قوله تعالى :" **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** " (١) ٠

وفى هذه الآية ما فيها من دلائل واضحة على قرب رحيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى ٠

وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم :

لم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر من الهجرة النبوية ، وكان ابتداء مرضه فى بيت زوجه ميمونة أم المؤمنين ، وأخذ يتنقل فى بيوت أزواجه مدة ثلاثة عشر يوما وهو على حاله من المرض ٠

فلما اشتد عليه المرض بعد ذلك استأذن زوجاته أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له ، ولما دخل بيتها ، واشتد عليه وجعه ، قال عليه

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ ، وانظر ، القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ٣ ص ٢١٥٨ ، ٢١٥٩ ٠

الصلاة والسلام: اهريقوا على من سبع قرب من آبار شتى حتى أخـــرج من الناس فأعهد إليهم فاجلس فى مخضب ، وصب عليه الماء حتى طفق يقول : حسبكم ، حسبكم (1)٠

فلما وجد الرسول صلى الله عليه وسلم الراحة بعد ماء القرب التى صبت عليه خرج فصلى بالناس الظهر ، وخطبهم ، واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ، ثم أوصى بالأنصار خيرا ، فقال : أما بعــد يــا معشــر المهاجرين ، إنكم قد أصبحتم تزيدون ،وأصبحت الأنصار لا تزيد علـــى هيئتها التى هى عليها اليوم ، والأنصار عيبتى التى أويت إليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم قال إن عبدا من عباد الله قد خـــير بين ما عند الله وبين الدنيا ، فاختار ما عند الله ، فلم يفقهها إلا أبو بكــر ، فظن أنه يريد نفسه ، فبكى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : علـــى رسلك يا أبا بكر ! سدوا هذه الأبواب الشوارع فى المسجد إلا باب أبـــى بكر ، فإنى لا أعلم امرءا أفضل يدا فى الصحابة من أبى بكر (2) ٠

فلما غلبه عليه الصلاة والسلام المرض ، ومنعه مـــن الخـــروج للصلاة مع الناس ، أمر أبا بكر رضى الله عنه أن يصلى بالناس فصلى أبو بكر بالناس ثلاثة أيام ، وقيل سبع عشرة صلاة (3) ٠

وأبى الرسول صلى الله عليه وسلم بشده أن يصلى بالمسلمين غير أبى بكر ، حتى أنه لما تقدم الصفوف عمر بن الخطاب ليصلى بالنـــاس فى غيبة أبى بكر ، وسمع الرسول الكريم صوت عمر بالتكبير ، فقـــال

---

(1) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ١٨٩ ٠
(2) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ٠
(3) البخارى : صحيح البخـــارى ، جـــ ١ ص ١٩٩ ، المبـــاركفورى : الرحيـــق المختوم، ص ٤٢٧ ٠ والطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ١٩٧ ٠

رسول الله : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يـــأبى الله ذلـــك والمسلمون ولم يطمئن فؤاده حتى جاء أبو بكر وصلــــى بالنـــاس تلـــك الصلاة بعد أن صلى عمر (١)٠

وفى فجر يوم الاثنين الذى قبض الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليه السلام عاصبا رأسه إلى الصبح ، وأبو بكــــر يصلـــى بالناس ، فلما ظهر عليه الصلاة والسلام إلى الناس تفرج الناس ، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وســـلم ، فنكص عن مصلاه ، فدفعه الرسول من ظهره ، وقال صل بالناس ، ثـــم جلس إلى جنبه فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر ٠

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل الناس ، فكلمهم رافعا صوته ، فقال :" أيها الناس سعرت النار ، وأقبلـــت الفتـــن كقطع الليل المظلم ! وإنى والله ما تمسكون على بشئ ، إنى لم أحـــل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن " (٢) ٠

وعندما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه وشـــعر الناس أن النبى الكريم قد أصبح بنعمة من الله وفضلـــه كمـــا يحبـــون ، فاستأذن أبو بكر من رسول الله بالخروج إلى السنح لزيارة زوجه حبيبـــة بنت خارجة ، فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخرج أبو بكر إلى السنح ، ودخل عليه الصلاة والسلام منزله عند عائشة ، ولم يخرج بعدها أبد حيث قبض ، فكأن خروجه عليه الصلاة والسلام كان لوداع الناس ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ، ق ٢ ص٦٥٢ ٠
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٥٣ ، ٦٥٤ ٠

فبينما كان الناس مستبشرين برؤية رسولهم الكريم ، وأنه أصبح بارئا ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة فاضطجع على حجرها ، ثم دخل رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السواك فى يد الرجل نظرا مستديما، فعرفت عائشة أنه يريدها ، فأخذته ومضغته حتى لينته ، ثم أعطته لرسول الله ، فاستن به كأشد ما كان يستن بسواك قط ، ثم وضعه (1).

تقول عائشة : ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى فذهبت انظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول :" بل الرفيق الأعلى من الجنة " فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق!" (2) .

وهكذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من العام الحادى عشر من الهجرة الموافق ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م (3).

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافتتن الناس بين مصدق ومكذب قام عمر بن الخطاب ، فقال وهو فى أشد غضبه : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه

---

(1) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(2) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٥ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(3) ابن حزم : جوامع السيرة النبوية ، ص ٢١١ ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١٥٠ .

وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات (١) .

وأقبل أبو بكر من السنح حين بلغه الخبر ، ونـــزل علـــى بـــاب المسجد ، بينما عمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شئ حتى دخـــل علـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، والنبى الكريم مســـجى فى ناحية من البيت ، عليه برد حبره ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا! ثم رد البردة على وجه رسول الله صلى الله عليه وســـلم ، ثـــم خـــرج ومازال عمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت فـــأبى إلا أن يتكلم .

فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما ســـمع النـــاس كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

" أيها الناس ،إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومـــن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية :" **ومـــا محمـــد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقـــابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**"(٢).

---

(١) ابن عبد البر : الدرر ، ص ٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .

يقول أبو هريرة : فوالله لكأن الناس لم يعلموا إن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، قال : وأخذها الناس عن أبى بكر فإنما هى فى أفواههم ٠

وقال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ، ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات[1]٠

أمر السقيفة :

لما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم انحاز الأنصار من الأوس والخزرج إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة [2] يريدون أن يولوه عليهم ، واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة – رضى الله عنها – بينما انحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ، وانحاز معهم أسيد بن حضير فى بنى الأشهل من الأنصار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيته ، لم يفرغ من أمره ، وقد أغلق دونه الباب ، فأتى آت إلى أبى بكر وعمر ، فأبلغهما أمر انحياز الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة لمبايعة سعد بن عبادة ٠

فانطلق إليهم أبو بكر ومعه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فلما اجتمعوا جميعا فى سقيفة بنى ساعدة ، كادت أن تقوم فتنة بين هؤلاء وهؤلاء لولا أن قام بينهم أبو بكر خطيبا ، وأدلى لهم

---

(1) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٢ ص ٣٧٩ ، ٣٨٢ ٠

(2) هى مظلة لبنى ساعدة بن كعب بن الخزرج كانوا يجلسون تحتها وهم رهط سعد بن عبادة ، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٥ ، صفى الدين بن عبد الحق : مراصد الإطلاع ، جـ ٢ ص ٧٢١ ٠

بالحجة على أن هذا الأمر لقريش ، وأن أمر العرب لـــن يصلـــح إلا إذا وليته قريش ، وحذر الأنصار إن وليته الأوس أن تنفس عليها الخزرج ، وإن وليته الخزرج أن تنفس عليها الأوس ، فلما تذكر الأنصار ما كـــان بينهم فى الجاهلية ، وإن الحال توشك أن تعود إلى مثل ما كانوا عليه من عداوة ، اطمأنوا أخيرا إلى رأى أبى بكر ، فعرض عليهم عندئذ أبو بكـــر مبايعة عمر أو أبى عبيدة ، فخشى عمر أن يترك الناس فيختلفوا علـــى أنفسهم ، ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر ، فقام فقال لأبى بكـــر: ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون ثم بايعـــه الأنصار وهو يتواثبون على سعد بن عبادة حتى كاد يقتل تحت أقدامهم ، فلما كان الغد جلس أبو بكر على المنبر فى المسجد ، وبايعه الناس البيعة الكبرى أو العامة ، حيث اعتبر الناس أن بيعة السقيفة البيعة الخاصة[١].

وحين بويع أبو بكر البيعة الكبرى ، قام وخطب فى الناس مبينـــا سياسته التى عول على انتهاجها فى حكم المسلمين ، فقال :" أيها النـــاس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أســـأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عنـــدى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتـــى آخـــذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربـــهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوا مـــا أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لـــى عليكـــم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله " [٢].

---

[١] اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ص ١٢٧ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

[٢] الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ص ٢١٠ .

جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه :

فلما تمت بيعة أبى بكر رضى الله عنه أقبل الناس علـــى جـــهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء ١٣ ربيع الأول من الســـنة الحادية عشرة ، وكان الذى يغسله على بن أبى طالب ، ويساعده العباس، وولداه الفضل وقثم ،وأسامة بن زيد ،وشقران مولى رسول الله وكفن فى ثلاثة أثواب ، ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من تجهيزه عليه الصلاة والسلام ، وضع على سريره فى بيته ، وجهل الناس عليه أرسالا متتابعين يصلون عليه دون أن يأمهم أحد ٠

ثم حفر للنبى الكريم لحد فى حجرة عائشة حيث توفـــى ،وأنزلـــه القبر على والعباس وولداه ، ورش قبره بلال بالماء ، ورفع قبره علـــى الأرض قدر شبر (١) ٠

أثر الوفاة على الناس :

قال ابن إسحاق :

" ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عظمت به مصيبــة المسلمين ، فكانت عائشة ــ فيما بلغنى ــ تقول :" لما توفى رســـول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، واشرأبت اليهوديـــة والنصرانيــة ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشـــاتية لفقــد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، حتى جمعهم الله على أبى بكر ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ق ٢ ص ٦٦٢ ــ ٦٦٤ ٠

وقال ابن هشام :

حدثنى أبو عبيدة وغيره من أهل العلم : إن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم هموا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد ـ وإلى مكة وأميرها حينئذ ـ فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه !!

فتراجع الناس ، وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب بن أسيد والى مكة فهذا المقام الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله لعمر بن الخطاب :" إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه " (١)٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ .

(٥)

ذكر أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبنائه

تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة امرأة بنى بإحدى عشرة منهم ، ولم يدخل على اثنتين ، ومات عنه فــى حياتــه اثنتــان ، وتوفى عليه الصلاة والسلام عن تسعة • هذا بالإضافة إلى ما أفـــاء الله عليه من النساء ، وبيان ذلك كالتالى :

١-خديجة بنت خويلد :

كانت خديجة بنت خويلد أول امرأة تزوجها الرســول صلــى الله عليه وسلم ، وذلك قبل ظهور الإسلام بخمس عشرة سنة • وقد زوجـــه إياها أبوها خويلد بن أسد وقيل عمها عمرو بن أسد ، فولدت لـــه عليـــه الصلاة والسلام ولده جميعا إلا أبراهيم •

ولم يتزوج رسول الله امرأة فى حياتها حتى توفيت بعد زواج دام خمسة وعشرين عاما ، وقد وجد الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاتها وجدا شديدا ، ولذلك سمى عام وفاتها ـــ وهى السنة العاشرة من البعثـــة النبوية ـــ عام الحزن •

وكانت خديجة رضى الله عنها خير عون لزوجها قبـــل ظـــهور الإسلام وبعده ، وتحملت معه كثيرا من أعباء الدعوة الإســـلامية حتـــى كانت بحق وزير صدق للنبى صلى الله عليه وسلم (١) •

---

(١) سبق أن تكلمنا عنها عند زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وتوفيت رضى الله تعالى عنها فى السنة العاشرة من البعثة النبوية فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ([1]) ٠

٢-سودة بنت زمعة :

كانت سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس من بنى عامر بـــن لؤى من المسلمات الأوليات ، وهاجرت مع زوجها السكران بن عمـــرو ابن عبد شمس إلى الحبشة ، ثم مات عنـــها زوجـــها بعـــد عودتـــهما ، فتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، زوجه إياها سليط بن عمـــرو ــ ابن عمها ــ وأخو زوجها ٠

فكانت سودة أول امرأة بنى بها الرسول بعد خديجة ، وإن كان قد خطب عائشة بنت أبى بكر قبلها ، وتوفيت رضى الله تعالى عنها بالمدينة فى شوال سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية ([2])٠

٣- عائشة بنت أبى بكر :

كانت عائشة بنت أبى بكر الصديق فى ست من عمرهـــا حيـــن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم من أبيها بمكة ، ثم بنى بها بالمدينـــة بعد الهجرة ، بعد أن بلغت التاسعة ــ وقيل العاشـــرة ــ ولـــم يـــتزوج الرسول الكريم بكرا غيرها ، وتمتعت بمنزلة كبيرة فى قلبه ، لم تتمتـــع بها امرأة غيرها بعد خديجة ٠

([1]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٨ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ٠
([2]) ابن هشام : السيرة النبوية ، ق ٢ ص ٦٤٤ ٠

وتوفيت رضى الله تعالى عنها فى رمضان سنة ثمان وخمسين من الهجرة زمن خلافة معاوية ([1]).

٤- حفصة بنت عمر :

كانت حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية زوجة لخنيس بن حذافة السهمى ، وتوفى عنها عقب غزوة بدر الكبرى ، فعرضها عمر على صاحبيه أبى بكر وعثمان ، فسكت أبو بكر ، وأمتنع عثمان ، فذهب عمر شاكيا صاحبيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رسول الله يكرم صاحبه فيخطبها لنفسه ويتزوجها ، وكان زواجهما فى شعبان من السنة الثالثة من الهجرة .

وقد تعرضت حفصة رضى الله عنها لمحنة الطلاق ، ولكنه عليه الصلاة والسلام راجعها بأمر من الله تعالى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن جبريل صلى الله عليه وسلم أتانى فقال لى : أرجع حفصة فإنها صوامة قوامة وهى زوجتك فى الجنة ([2]) .

وتوفيت حفصة رضى الله عنها فى شعبان سنة خمس وأربعين فى خلافة معاوية ، وهى ابنة ستين سنة ، وقيل أنها توفيت سنة إحدى وأربعين ([3]).

([1]) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٨ ص ٦٣ – ٩٠ .
([2]) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ ٢ ص ٥٢ .
([3]) ابن العماد : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

٥- زينب بنت خزيمة — أم المساكين —

كانت زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية ، تحت عبيد الله بن الحارث بن عبد المطلب — ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستشهد عبيد الله يوم بدر الكبرى فى رمضان من السنة الثانية من الهجرة فتزوجها الرسول الكريم تكريما لابن عمه الشهيد ورأفة بها لما نزل عليها من مصاب ، وذلك فى رمضان من السنة الثالثة من الهجرة ، وكانت تسمى بأم المساكين فى الجاهلية ٠

وتوفيت رضى الله عنها فى آخر شهر ربيع الآخر من سنة أربع من الهجرة ، أى أنها مكثت مع رسول الله ثمانية أشهر فقط (١) ٠

٦- أم سلمة :

وأسمها هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية وكانت أولا عند أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومى ٠ وهاجر معها إلى أرض الحبشة الهجرتين ، فولدت له هناك زينب ، ثم ولدت له بعد ذلك سلمة ، وعمر ، ودرة ٠

وتوفى أبو سلمة بجرح أصيب به يوم أحد لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة ٠

وتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم رأفة بها وبعيالها وتكريما لزوجها أبى سلمة ، وكان زواجهما فى أواخر شوال سنة أربع من

---

(١) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ٠

الهجرة ٠ وتوفيت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين من الـهجرة زمـن خلافة معاوية ([1])٠

٧– جويرية بنت الحارث :

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث بـن أبى ضرار الخزاعية ٠ وكانت فى سبايا بنى المصطلق بعد هزيمتهم فى غزوة بنى المصطلق – المريسيع – فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى ٠ وكانت قبل ذلك تحت ابن عم لها ، يقال له صفوان بن مالك فقتل عنها فى الغزوة ٠

فكاتبا ثابت على نفسها ، فأتت رسول الله تستعينه فـى المكاتبـه فقال لها النبى : هل لك فى خير من ذلك ؟ ، قالت : وما هـو ، قـال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم ، فتزوجها رسول الله ٠

فكان بسبب هذا الزواج أن أعتق المسلمون ما كان بيدهم من بنـى المصطلق تكريما لمصاهرة الرسول لبنى المصطلق ٠ فقد أطلق بسـببها مائة أهل بيت من قومها – تقول عائشة رضى الله عنها : فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها ([2]) ٠ ، وتزوجها فى شعبان سنة خمسة من الهجرة وتوفيت رضى الله تعالى عنها سنة ست وخمسين فـى خلافـة معاوية ([3]) ٠

([1]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٨ ص ٩٧ – ١٠٩ ٠
([2]) أنظر ما سبق عن هذه الأحداثص ٢١٥ – ٢١٦ ٠
([3]) الذهبى : العبر فى خبر غبر ، جـ ١ ص ٤٤ ٠

٨- زينب بنت جحش :

كانت زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية ، ابنة عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمها هى أميمة بنت عبد المطلب وقد زوجها الرسول لمولاة زيد بن حارثة ، وكان قد تبناه سابقا ، ولكن لم يحدث توافق بين الطرفين مما أدى إلى طلاقها من زيد ، وذلك على الرغم من إلحاح الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بالإمساك عليها .

ولكن لما أراد الله تعالى أن يبطل حرمة زواج الرجل من زوجة ابنه الذى كان قد تبناه ، أمر الله رسول أن يتزوج زينب . يقول الله تعالى :" وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعت عليه أمسك عليك زوجك وأتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا"([1]). وتزوجها فى السنة الخامسة من الهجرة فى ذى القعدة .

وتوفيت زينب رضى الله عنها سنة عشرين من الهجرة ، وكانت بذلك أسرع زوجات الرسول لحوقا بها .

تقول عائشة رضى الله عنها عن زينب بنت جحش : " يرحم الله زينب بنت جحش ، لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف ، إن الله زوجها نبيه صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ، ونطق به فى القرآن ، وأن الرسول قال لنا ونحن حوله : أسرعكن بى لحوقا أطولكن باعا " فبشرها رسول الله بسرعة لحوقها به ، وهى زوجته فى الجنة ([2]).

([1]) سورة الأحزاب ، الأية ٣٧ .
([2]) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٨ ص ١٢٤ .

٩- أم حبيبة :

واسمها رملة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية تزوجها أولا عبيد الله بن جحش بن رئاب ــ أخو زينب بنت جحش ــ وهاجر بـها إلـى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية ، ثم تنصر وارتد عن الإسلام ، وتوفـى بأرض الحبشة ، وثبتت أم حبيبة على دينها •

فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلـى النجاشى يخطب له أم حبيبة ، فزوجها إياه وأصدقها النجاشى من عنـده عن رسول الله أربعمائة دينار ، وكان الذى زوجها وخطب إليه النجاشـى خالد بن سعيد بن العاصى بن أمية ، ثم وصلت إلى المدينة من الحبشـة فى السنة السابعة من الهجرة بعد صلح الحديبية • ولما بلغ أبـا سـفيان زواج النبى من ابنته قال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه ، ويقول ابن عبـاس فى قوله تعالى :" عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذيـن عـاديتم منـهم مودة"(١) قال : نزل حين تزوج النبى صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنـت أبى سفيان •

وتوفيت أم حبيبة رضى الله عنها سـنة أربـع وأربعيـن مـن الهجرة(٢) •

١٠ - صفية بنت حيى :

هى بنت حيى بن أخطب النضرى زعيم يهود بنى النضير وقتـل مع رجال بنى قريظه يوم قتلهم عقب غزوة بنى قريظة ، وكـانت فـى

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية ٧ •
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٥٤ •

البداية متزوجة من سلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها فتزوجها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى ، فقتل عنها يوم خيبر ، ووقعت صفية فى أسر المسلمين ، وكانت ممن اصطفاها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عرض عليها أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله ، فقالت : أختار الله ورسوله ، وأسلمت ، فأعتقها وتزوجها الرسول أثناء العودة من خيبر ، وجعل عتقها مهرها .

وتوفيت صفية بنت حيى رضى الله عنها سنة خمسين فى خلافة معاوية (١).

١١- ميمونة بنت الحارث :

هى ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية من بنى عامر بن صعصعة ، وقد تزوجها فى الجاهلية مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى ، ثم فارقها فتزوجها أبو رهم بن عبد العزى بن أبى قيس ، فتوفى عنها فأرسل إليها رسول الله خاطبا أثناء خروجه من المدينة لعمرة القضاء ، وتزوجها فى الطريق أثناء عودته من مكة إلى المدينة بعد عمرة القضاء، وزوجها إياه العباس بن عبد المطلب عمه ؛ لأنه يلى أمرها إذ كانت أخت زوجته أم الفضل .

وكانت ميمونة رضى الله عنها آخر من تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها الرسول بسرف على عشرة أميال من مكة سنة سبع من الهجرة ، وماتت بسرف أيضا سنة إحدى وستين فى خلافة يزيد بن معاوية . ويقال أنها التى وهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٨ ص ١٣٨ ـ ١٤٨ .

فأنزل الله تعالى :" وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للرسول إن أراد النبـى أن يستنكحها " وهناك خلاف فى هذا الأمر (١) .

فهؤلاء اللاتى بنى بهن رسول الله صلى الله عليه وسـلم إحـدى عشرة ، فمات قبله منهن اثنتان : خديجة بنت خويلة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنها ، ولم تلد للرسول صلى الله عليه وسـلم منـهن غـير خديجة، فقد رزقه الله منها بستة من أبنائه ولدين ، هما : القاسم ، وعبـد الله ، وأربع بنات هن زينب ، ورقية ،وأم كلثوم ، وفاطمة ، فأما القاسـم وعبد الله فقد لقيا ربهما طفلين صغيرين ، وذلك قبل بعثة والدهما عليـه الصلاة والسلام ، أما البنات فقد كبرن حتى تزوجن ، فأما زينـب فقـد تزوجت من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس ، وولدت له عليا وأمامة . ومات على وهو صغير وتزوج على بن أبى طالب أمامـة بعد موت فاطمة ، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا فى البداية ولدين مـن أولاد أبى ليب بن عبد المطلب (عتبة وعتيبة) ثـم أمرهمـا أبوهمـا بطلاقيما بعد ظهور الإسلام نكاية فى النبى صلى الله عليه وسـلم ، ثـم تزوجتا الواحدة بعد الأخرى من عثمان بن عفان رضى الله عنهم جميعا، وأما فاطمة فقد تزوجت من على بن أبى طـالب رضـى الله عنـهما ، وكانت الوحيدة التى عاشت بعده إذ أنها ماتت بعده بستة أشهر ، ثم كانت الوحيدة التى أنجبت حفيدين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وعاشا بعده ، وهما : الحسن والحسين ، وذلك بخلاف أم كلثوم وزينب (٢) .

---

(١) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٥٢ ـ ١٦٢ .
(٢) ابن سعد : المصدر السابق ـ جـ ٨ ص ٣٤ ـ ٤٤ .

١٢-١٣ – اثنتان لم يدخل بهما الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، تزوجها النبى فوجد بها بياضا ، فمتعها، وردها إلى أهلها . وعمرة بنت يزيد الكلابية ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على رسول الله استعاذت منه عليه الصلاة والسلام ، فردها إلى أهلها دون أن يبنى بها . وهناك خلاف فى عدد من تزوجهن رسول الله ولم يبن بهن ، وفى أسمائهن (١) .

وبخلاف ما سبق فإن الله قد أفاء على رسوله بامرأتين فتسرى بهما ، وهما :

١-ريحانة بنت زيد ، وكانت من سبايا بنى قريظة ، وقيل من بنى النضير . وقيل أنها تحسب من زوجاته حيث أعتقها النبى وتزوجها(٢).

٢-مارية بنت شمعون القبطية ، أهداها له المقوقس صاحب مصر ، فولدت له إبراهيم ، ومات وهو ابن سنة ونصف وذلك فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية ، فحزن النبى الكريم لموته كثيرا .

وقد ذهب بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام ورسوله ، ومن تبعهم من الجهلاء الذين جهلوا حقيقة ما يرمى إليه الإسلام من زواج رسول الإسلام بهذا العدد من النساء إلى إلصاق صفة الرجل الشهوانى ، الغارق فى لذات الجسد لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، وذلك

---

(١) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٦٢ ـ ١٧٢ .
(٢) ابن سعد : المصدر السابق جـ ٨ ص ١٤٩ ـ ١٥٢ ، ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٧ ص ١٢٠

دون تحر دقيق فى زواجه عليه الصلاة والسلام ، ودون محاولة أى فـهم فى هذه المسألة • مع أن موضوع زواجه من عدد من الزوجـات مـن أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر ، العارف بدينه ، والمطلـع على سيرة نبيه ، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين الحنيف تمامـا من مستشرقين وأزنابهم •

فالرجل الشهوانى ، لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى ذلك الحين ، عفيف النفس ، دون أن ينساق فـى شئ من التيارات الفاسدة التى كانت تموج مـن حولـه • ثـم الرجـل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها من العمر أربعين عاما ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شئ مما حولـه إلـى أن يتجـاوز مرحلة الشباب •

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد تزوج بعد موت خديجـة بغير امرأة ، فلم يدر خصوم الإسلامية أن ذلك كـان لأغـراض دينيـة وسياسية • فقد تزوج الرسول الكريم جميع زوجاته بعد موت خديجـة ، وهو فوق الخمسين من عمره ، فمن الواضح أن هذه الزيجات لم تكن منه عليه الصلاة والسلام لمجرد قضاء الوطر ، واستجابة للرغبة الجنسـية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب لذلك فى وقته وشبابه •

وكان من أثر تلك الأغراض الانتفـاع بالمصـاهرة ، واتخاذهـا وسيلة لاجتذاب عطف القبائل العربية ، كما كان لتـأليف القلـوب إلـى الإسلام دخل كبير فى زواجه عليه الصلاة والسلام ، ثم أضف إلى ذلـك ما كان لرأفته وعطفه على من ذل بعد عز من أثر فى زواجـه ببعـض

زوجاته ، فقد تزوج من جويرة بنت الحارث سيد بني المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، ليتم له إسلام قومهما لا لتأثير جمالهما كما يقولون ٠

وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمة ، وهى امرأة مسلم مات فى سبيل الله والدفاع عن الإسلام ، وذلك تطييبا لخاطرها ، وإثابة لها عن زوجها ٠كما تزوج حفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها تطييبا لقلبها ، ومكافأة لأبيها (١) ٠

وأما زينب بنت جحش ، فكان زواج الرسول منها لأغراض تشريعية ٠ فقد كان العرب يحرمون فى الجاهلية الزواج بزوجة المتبنى، لاعتقادهم أن زوجة المتبنى كزوجة الابن من الصلب ، فتزوجها الرسول إبطالا لهذا الزعم الذى عرف عند العرب ، ولما خشى أن يتقول عليه اليهود والمنافقون ، ويرمونه بأنه خرج على هذه التقاليد ، نزل قوله تعالى (**فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا**)(٢) ٠

كذلك تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بن حرب زعيم قريش ، تطييبا لخاطرها بعد أن تنصر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة وتركها بلا زوج فى الغربة ، بخلاف استمالة أبى سفيان زعيم قريش ٠

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، جـ ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٦ ٠
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ ٠

هذا وبالله التوفيق والرشاد ٠ والحمد لله رب العــالمين والصــلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلـــى آله وأصحابه أجمعين ٠

{ تــم الكتــاب }

أ٠د / عبد الرحمن أبوراس

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٠

٢- ابن حجر العسقلانى : فتح البارى ٠

٣- ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ٠

٤- ابن حزم الأندلسى : جوامع السيرة النبوية ٠

٥- ابن حنبل : كتاب السيرة النبوية ٠

٦-ابن سعد : الطبقات الكبرى ٠

٧- ابن سيد الناس : عيون الأثر ٠

٨- ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغازى والسير ٠

٩- ابن كثير : البداية والنهاية ٠

١٠- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٠

١١- ابن هشام : السيرة النبوية ٠

١٢- ابن منظور : لسان العرب ٠

١٣- أبو داود : سنن أبى داود ٠

١٤- أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ٠

١٥- أبو هلال العسكرى : الأوائل ٠

١٦- أحمد أمين : فجر الإسلام ٠

١٧- البخارى ــ الإمام : صحيح البخارى ٠

١٨- بدر رشاد الدوبى : المدينة المنورة عبر التاريخ مقال فى مجلة الحج ٠

١٩- جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ٠

٢٠- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب ٠

٢١- حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ٠

٢٢- الذهبى ــ الحافظ شمس الدين : تاريخ الإسلام ٠

٢٣- الذهبى الحافظ شمس الدين : العبر فى خبر من غبر ،
٢٤- رفاعة رافع الطهطاوى : نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ،
٢٥- زين الدين بن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ،
٢٦- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب فى عصر الجاهلية ،
٢٧- سيد قطب : فى ظلال القرآن الكريم ،
٢٨- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ،
٢٩- صفى الدين بن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع بأسماء الأمكنة والبقاع ،
٣٠- عبد الرحمن أبوراس : أضواء جديدة حول تقسيمات النسابين والإخباريين للجنس العربى ــ بحث فى مجلة الكلية ،
٣١- عبد الرحمن أبوراس : الهجرات وآثرها فى مسيرة الدعوة الإسلامية ــ بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق ،
٣٢- عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،
٣٣- الفاسى ــ تقى الدين : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ،
٣٤- الفاسى ــ تقى الدين : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ،
٣٥- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ،
٣٦- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ،
٣٧- الكتبى : عيون التواريخ ،

٣٨- المباركفورى : الرحيق المختوم ٠

٣٩- محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ٠

٤٠- محمد بن يوسف الصالحى : سبل الهدى والرشاد في سيرة حير العباد ٠

٤١- محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى : أيام العرب فى الجاهلية ٠

٤٢- محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية٠

٤٣- محمد الخضرى بك : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ٠

٤٤- محمد رضا : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

٤٥- محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة ٠

٤٦- المقريزى : امتاع الأسماع ٠

٤٧- منير محمد الغضبان : المنهج الحركى للسيرة النبوية ٠

٤٨- ياقوت : معجم البلدان ٠

٤٩- اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ٠

فهرس الكتاب

فهارس الكتاب

فهارس الكتاب

فهارس الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

فهارس الكتاب

فهرس الكتاب

{ تم بحمد الله تعالى }